

ملف خاص بعاشوراء

رسالة القلم

إسلامية ثقافية شاملة



١٧

السنة الخامسة - العدد السابع عشر - محرم ١٤٣٠ هـ - ديسمبر ٢٠٠٨ م

اقرأ في هذا المصعد

- تساؤلات عاشورائية
- إحياء عاشوراء
- جلاء العين في حكم صوم العاشورائين
- كي يبقى الدم أداة للمصلحين
- الآثار العملية لصفة الرضا
- آثار الذنوب
- مشكل تأخير البيان.. وحله

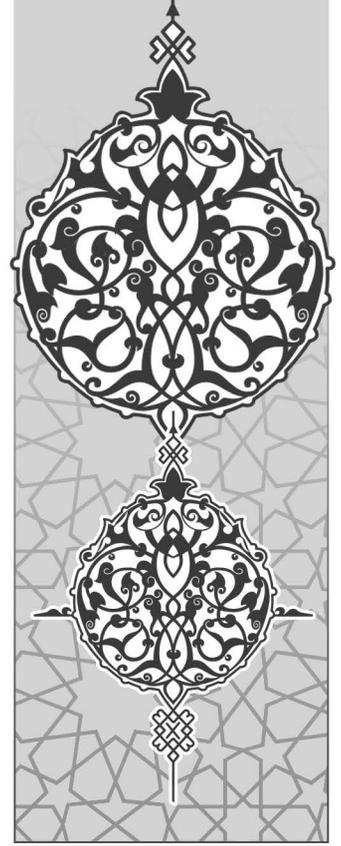
Resalat Alqalam

رسالة القلم

إسلامية ثقافية شاملة

فصلية تصدر عن
طلاب البحرين في الحوزة العلمية
بمدينة قم المقدسة

برعاية
مكتب البيان للمراجعات الدينية



■ المشرف العام والمدير المسؤول:

عبد الله علي الدقاق

■ رئيس التحرير:

علي أحمد الكريبادي

■ مدير التحرير:

علي أحمد الجفيري

■ هيئة التحرير:

عبد الرؤوف حسن الربيع

عزيز حسن سلمان

غازي عبد الحسن إبراهيم

فاضل عبد الجليل الزاكي



- ٥ تساؤلات عاشورائية
في حوار مع سماحة الشيخ نجم الدين الطبسي
- ٢٤ إحياء عاشوراء
غازي عبد الحسن إبراهيم
- ٥٤ جلاء العين في حكم صوم العاشورائين
محمد علي العربي
- ٧١ كي يبقى الدم أداة للمصلحين في التغيير والإصلاح
رائد ميرزا الستري
- ٨٤ الآثار العملية لصفة الرضا
حسين علي أبورويس
- ٩٦ مناقشة كتاب (آل البيت وحقوقهم الشرعية) الحلقة الثانية
حسن عبد الله القصاب
- ١١٧ آثار الذنوب
عيسى جاسم القفاص
- ١٣٠ مشكل تأخير البيان.. وحله
علي فاضل الصدي
- ١٤٥ بحث في أدلة الشفاعة عند المعتزلة (القسم الثاني)
سعيد جعفر حماد
- ١٨٦ دروس في الأخلاق السياسية (الحلقة الثانية)
عادل علي الشعلة
- ٢٠١ المنهجية الصحيحة لدراسة العلوم الدينية (الحلقة الثانية)

بكاء فاطمة عليها السلام

إن كان من خيرٍ يبقى فهو ما اتّصل بعنوان البقاء، ورمز الخلود، فكلّ ما كان فهو إلى فنائه، وكلّ موجودٍ فهو هالكٌ، ويبقى وجه الله، فلا وجهة لنا نحطُّ عندها رحالنا، إلا وجه الله الذي إليه يتوجّه الأولياء، والسبب المتّصل بين الأرض والسماء... فعظّم الله لكم الأجر آل الله بتجدد الأحران، وعظّم الله لكِ الأجر يا سيّدة النساء..
وهذه بعض الأبيات، نُظمت بلسان حالكِ..

إن كان عزٌّ على الرسول عزائي
أو كنتُ في فقدِ النبيِّ محمّدٍ
فعلى الحسينِ بكرِلاءٍ معفراً
آه.. وهل بعد الحسينِ ملامةٌ
ما مثلَ يومِ الغاضريةِ مأنمٌ
فلقد وقفتُ وعند رأسِ المصطفى
ها قد نظرتِ له مسجىً حاسراً
ولقد وقفتُ على حسينٍ ليتني
أبصرتُ منه الجسمَ ملقىً في العرا
في كفِّه اليمنى المهندَّ قاطعاً
رأسَ الحسينِ أفيكَ يَغرسُ ذابلٌ؟!
من أجل طه قد بكى مرابه
هذا له قبرٌ ألودٌ بظله
فالرأسُ يهدى في البلادِ وقلبه

فعلى الحسينِ السبطِ كلُّ بكاءٍ
أبكيه مدراراً بفيضِ دماءٍ
أشجى السماءَ تزفري وندائي
فالعرشُ مالَ وضجَّ كلُّ فنائه
إن كان في طه عظيمٌ بلائي
هاجتُ عيوني أدمعَ الكرماءِ
يا عينُ جودي جهرةً بدماءٍ
ما كنتُ، وهو موزعُ الأعضاءِ
والشمرُ فوقَ الصدرِ أيّ جفاءٍ؟!
وبكفه اليسرى عظيمٌ رجائي
هل بعد حلمٍ فيك حلمٌ سماءٍ؟!
وأنا أضجُّ بأرضِ كربِ بلائِ
ولذاكَ ذاكَ موزعُ الأعضاءِ
بالممِّ منفطرٌ، وسهمِ عداءِ

يا كربلاء وهل تعيدي خنصراً
قد كان يرجو الناس مني سلوةً
يا ابن الهدى علمت ملائكة السما
ظلي أيا ذكرى الحسين بخاطري
وتنشقي يا روح عطر ثواكل
وترققي يا أدمعي في نينوى
قد كنت أئمه، وكان شفائي؟!
هيهات... لا أسلو وأنت عزائي
بعد الطفوف الدمع صار قضائي
وتجلببي ما شئت من أرزائي
فقميصه لازال غصّ دماء
دهر الدهور بقبة غراء

رئيس التحرير

تساؤلات عاشورائية

في حوارٍ مع حجة الإسلام والمسلمين سماحة العلامة الشيخ نجم الدين الطبسي رحمته الله

حاوره: عماد عليّ الشعلة

تحتل الثورة الحسينية المباركة من الأهمية، والأصالة، وقوة التأثير مكانة جعلتها فريدة من نوعها، وإن لها أبعاداً عميقة قد تخفى على أيّ إنسان، ومواقف غامضة لها دلالات قد يُغفل عنها، أو لا يلتفت إليها، ولكن المدقق ومعمّن النظر قد ينظر إلى أمور لا يراها إلا من كان في مكانه، وللوصول إلى إدراك بعض من محتوى الثورة الحسينية، ننظر إليها بمنظار العالم، المدقق، الباحث في التاريخ، سماحة حجة الإسلام والمسلمين، الشيخ نجم الدين الطبسي، سائلين الله عز وجل أن يرزقه خير الدنيا والآخرة.

وقد وجه سماحة الشيخ - في مفتح الحوار - نداء شكرٍ وتقديرٍ، فقال: (قبل أن أبدأ أودّ أن أشكركم، وأشكر الإخوة الأجلاء، السادة العلماء، أصحاب الفضيلة، أرباب القلم، الذين وقفوا أنفسهم للدفاع عن مذهب أهل البيت عليهم السلام، ولإيصال الحقائق إلى الأجيال، سيّما في هذا العصر الذي بدأت الأقلام المأجورة تقلّب الحقائق، وتُبدي الضغينة والأحقاد البدرية والخبرية، وبعضها عادت تعلن حربها من جديد على آل بيت الرسول صلّى الله عليه وآله، من خلال بعض الفضائيات، وبعض الصحف، وبعض المجلّات، وبعض الأفراد المشبوهين؛ ففي هذه الفترة والبرهة من الزمن، تتجلى أهمية المجلّات والمقالات النزيهة، والأقلام التي وقفت نفسها لخدمة دين الإسلام، وآل بيت

الرسول ﷺ، فهنيئاً لكم، ونسأل الله أن لا يجرمكم في الدنيا والآخرة زيارتهم، وشفاعتهم).

❖ هل أن حاجز البعد الزماني بيننا وبين الإمام الحسين عليه السلام عذرٌ كافٍ لعدم النصرة؟ أم أننا ما زلنا مكلفين شرعاً بالنصرة؟ وكيف يمكننا أداء هذا التكليف ونحن في هذا العصر؟

❖ لو أطلعنا على أهداف الإمام الحسين عليه السلام - سيما تلك الأهداف التي أعلنها في بدء الرفض لسلطة يزيد، ومن جانب آخر لو وقفنا على نوايا الحكم الأمويّ وسياساته اللإسلامية، والظلمة بشأن الأمة الإسلامية، ومواقفه العدائية تجاه الإسلام، والرسول الأكرم ﷺ، ثمّ طبّقنا الأمرين على الوضع الراهن، ودرسنا الأوضاع من هذا المنظار - لوجدنا أن الثورة الحسينية لا زالت قائمةً، والمعسكر الحسيني لا زال قائماً على قدمٍ وساقٍ، والمعسكرات المناوئة أيضاً تعمل، وبكل ما لديها من طاقة.

فنحن لسنا في زمنٍ بعيدٍ حتّى نبحث عن البعد الزمنيّ، بل نحن في زمن الامتداد للمعسكر الحسيني، وصرخة الإمام الحسين عليه السلام: «هل من ناصر ينصرني؟» لا زالت تدوّي في الأسماع، فلعلّ هذا السؤال غير صحيح؛ إذ لا يوجد بُعدٌ في الزمن حتّى نتحدّث عن الحاجز، وعن العذر، بل نحن في نفس العصر والزمن، أمّا الشعارات والأهداف التي أعلنها الحسين عليه السلام:

(١) (وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ﷺ، أريد أن أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي عليّ بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردّ عليّ هذا، أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم، وهو خير الحاكمين)(١).

(٢) وقوله عليه السلام: (أيها الناس، إنّ رسول الله ﷺ قد قال في حياته: «من رأى منكم سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهده، مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ،

يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بقول ولا فعل، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، وقد علمتم أن هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ بهذا الأمر؛ لقرايتي من رسول الله ﷺ (٢).

٣) وقوله للفرزدق: (أنا أولى من قام بنصرة دين الله، وإعزاز شرعه، والجهاد في سبيله؛ لتكون كلمة الله هي العليا) (٣).

٤) وفي رسالته لأهل البصرة: (وأنا أدعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ؛ فإنّ السنة قد أميتت، وإنّ البدعة قد أحييت، وإنّ تسمعوا قولي، وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد) (٤).

وعشرات من نظائر هذه الكلمات العطرة القيّمة الصادرة من فم سيّد شباب أهل الجنة ﷺ، ممّا ينبئ ويدلّ على عمق الفاجعة في المجتمع الإسلاميّ، والمحاولات المستمرة من قبل السلطة لإماتة السنة، وإحياء البدعة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر إننا ننظر إلى أهداف السلطة، وتصرفاتها الظالمة، كقول بعض ممّن كان يترأس السلطة الأمويّة مخاطباً أهل الكوفة: (أتروني قاتلتكم على الصلاة، والزكاة، والحج...؟! لكنني قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وآلي رقابكم) (٥)، وقوله: (أنا أولّ الملوك)، بعد أن نقيس هذا الكلام إلى كلام الرسول الأعظم ﷺ، حيث قال: (فإذا تحوّل الحكم إلى ملكٍ عضوضٍ يرثه فاجرٌ عن فاجرٍ، وكقوله (معاوية): (برأتُ الذمّة ممّن روى شيئاً في فضائل أبي تراب، وأهل بيته، والعشرات من هذه التصريحات الخطرة التي هي - بعبارةٍ أخرى - إعلان حربٍ مفتوحةٍ ضدّ الإسلام، والنبيّ الكريم ﷺ، وأهل بيته الطاهرين ﷺ).

والحاصل: طالما أنّ أهداف الثورة الحسينيّة هي نصره الدين، وإعزاز الشرع، وقطع أيدي المتآمرين على الدين و المسلمين باسم الدين، ف«البعد الزمني» - إن

صحّ هذا التعبير - غير مانع، ولا عذر عن الوقوف إلى جانب هذا المعسكر - أعني المعسكر الحسيني -؛ لأنّ هذا الوقوف يُعدّ نصرةً لهذه القيم، وجهاداً ضدّ من هو شارب الخمر، لاعب الفجور، فالثورة الحسينية ثورةٌ حيّةٌ على مرّ العصور، وتعطي الحيويّة، والزخم، والاتّجاه الصحيح لمن يريد الدفاع عن الحقّ والحقيقة، فلم تبَلْ بمرور الزمن، بل هي مع الزمن، والقضية قضية الساعة والساحة، فالدفاع عنها - والوقوف إلى جانبها - هو التكليف الشرعيّ، وأمّا الاعتزال عنها فهو اعتزالٌ عن أداء الواجب، وانخراطٌ في سلك المعسكر الثاني، نعوذ بالله أن نكون من الخوالم الذين قعدوا عن الجهاد.

❖ كيف نوفّق بين موقف مناشدة الإمام العدو أن يعطيه فرصةً للتوجه إلى أيّ بلدٍ شاء، ولا يبتلي بدمه الطاهر، وبين قوله: (والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد..)، وخروجه لإيصال مراده بالشهادة؟

❖ بعد أن عرفنا أهداف الحسين عليه السلام من الثورة، وأنها هي إماتة البدعة، وإحياء السنّة، والصدّد بوجه الظالمين بلغ الأمر ما بلغ، وإن كلفه الأمر نفسه الطاهرة، وأنه من المستحيل أن يركع للعدوّ ويصافحه - كما قال: (والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبيد) -، فبعد هذه الشفافية، والوضوح، والصراحة في أهداف الثورة الحسينية، كل نصّ يتعارض مع هذا الموقف فلا اعتبار له، ولا نقيم له وزناً إن لم يمكن توجيهه بما لا ينافي الموقف الصريح له.

وأما بالنسبة إلى هذه العبارة التي نقلتموها، لعلّ البعض يسجّله موقفاً آخر مغايراً للموقف الأوّل للحسين عليه السلام، ولعلّ فيه نوعٌ - إن صحّ التعبير - من التراجع، أو نوعٌ من المماشة، أو المسايرة مع السلطة، فإن كان معنى العبارة هو الذي فهمناه، رفضنا العبارة، وضرينا بها عرض الجدار، سيّما أن رواها إنّما هم المؤرخون، ولم ترد بسندٍ صحيحٍ من أئمة أهل البيت عليهم السلام حتى نقوم بتأويلها، وتوجيهها.

نعم، إنَّ البعض قام بتأويل هذه العبارة: بأنَّ الإمامَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ أراد إلقاءَ الحجَّةِ على السلطة؛ كي يسلب من أيديهم وإعلامهم المضللِّ كلَّ النقاط التي يمكن أن يشنَّوا منها حملةً إعلاميةً على الإمام، بحيث يتظاهرون بأنَّهم أخذوا جانب اللين، وفسحوا المجال للإمام الحسين عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ، ولكنَّه هو الذي بدأ، كما أنَّهم قاموا بهذا التضييل الإعلاميِّ: قاموا بالتعبير عن الإمام الحسين عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ بالخارجيِّ.

أمَّا تاريخياً فهذا النصُّ قد ورد في تاريخ الطبريِّ، وهنا عندي ملاحظتان:

الملاحظة الأولى: الإشارة إلى نصِّ عن عقبة بن سمان، الَّذي كان مصاحباً للإمام عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ من المدينة إلى العراق، إذ روى هذا النصُّ، ولعلَّه يُروى عن غيره أيضاً، لكن مرسلًا، أو أخذًا من عقبة، وإليك النصُّ، قال عقبة: «صحبتُ حسينًا، فخرجتُ معه من المدينة إلى مكَّة، ومن مكَّة إلى العراق، ولم أفارقه حتَّى قُتل، وليس من مخاطبته الناس كلمةً بالمدينة، ولا بمكَّة، ولا في الطريق، ولا بالعراق، ولا في عسكر إلى يوم مقتله إلا وقد سمعْتُها، ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس، وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسيروه إلى ثغرٍ من ثغور المسلمين، ولكنَّه قال: دعوني فلأذهب إلى هذه الأرض العريضة، حتَّى ننظر ما يصير أمر الناس»^(٦)، والملاحظ أنَّ السلطة بدأتُ تعمل من خلال أيادٍ خبيثةٍ، وأفلامٍ فاسدةٍ مأجورةٍ، ببثِّ ما يشين، وما لا يليق بمقام الحسين عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ، ممَّا يشير إلى - نعوذ بالله - الذلِّ بالنسبة إلى مقام الحسين عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ، فترى ابن سمان ينكر هذا النوع من الإشاعات التي وراءها السلطة الفاسدة، فتراه يركِّز على مسألة الذهاب إلى الأرض العريضة.

ونحن نأخذ من هذه الرواية، ونردِّ الذيل بقريضة الصدر، فنقول: إن كان هذا القول - (دعوني فلأذهب إلى هذه الأرض العريضة) - لا يتناسب مع مقام الإمام عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ، وأهداف ثورته، وقيمه العالية، فهو مردودٌ؛ لأنَّه مصداقٌ لما يتذاكر الناس، وما يزعمون على حدِّ قول ابن سمان.

والملاحظة الثانية: بالنسبة إلى تاريخ الطبري الذي قد يُقال فيه: إنه من أمتن التواريخ، وأدقها، والمعروف بتاريخ الأمم والملوك، فإنه وإن أطروه لكنّه - أي الطبري - مؤرّخٌ في غاية العصبية، إن لم نقل إنه - تاريخ الطبري - تأليفٌ لصالح السلطة، لا أقلّ إنه لم يكتب لصالح الحقّ، ولدافع عن أهل البيت عليهم السلام.

إن لم نقل: إنه كان يماشي، ويساير، ويطلب رضا السلطة، لا نستطيع أن نقول: إنه كان يُكتب لرضا الله، ولرضا نبيّه صلّى الله عليه وآله، ورضا أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، وعندني شواهد على ذلك، فالرجل وإن قالوا: إنه كان دقيقاً في النقل، ولكنّه كان سيئاً في انتقاء النقل والأقوال، ولم تكن له سليقةٌ سليمةٌ في اختيار النقل، هذا ما قالوه، ولكنّي أراه سيئاً في الرأي قبل أن يكون سيئاً في اختيار النصوص، فمثلاً:

المورد الأول: في أسباب مسير المصريين في مخالفتهم مع حكومة المدينة، لم يذكر رأي المخالف، ولم يذكر رأي الطرفين، بل اكتفى برأي العاذرين معاوية، فيقول: (روى الآخرون أموراً شنيعةً كرهتُ ذكرها)، فلم يذكر رأي الآخريين، ولكنّه يقول: (أمّا العاذرون معاوية)، فيذكر رأيهم في أمر أبي ذرّ الغفاريّ، وإشخاص معاوية إياه من الشام^(٧).

المورد الثاني: في رواية ابن عبّاس يوم الخميس، وما يوم الخميس؟! مع أنّ الواقديّ أورد الرواية في طبقاته، والبخاريّ أوردّها مع تصريحه بمن منع الدواة والكتف، لكنّ الطبريّ يحذف اسم من منع، فقال: (إنّ الرجل ليهجّر).

في مورد ثالث: ميلاً كتابه من أخبار قطعّة الكذب، وخلاف تواتر السيّر، وهي أخبارٌ عن السريّ، عن شعيب، عن سيف بن عمر، الذين رماهم كلّ علماء الرجال من العامّة بالكذب، والضعف، وكذلك شعيب، ولكنّ الطبريّ حشّى كتابه من أكاذيبهم، مثلاً يقول راوياً عن سيف: (إنّ أبا بكر بويج يوم أن مات النبيّ، ولم يخالف عليه أحدٌ إلا مرتدّ، ومن كاد أن يرتدّ، وإنّ عليّاً كان في بيته، إذ أُتيّ فقبل له: قد

جلس أبو بكر للبيعة، فخرج بقميصٍ ما عليه إزارٌ ولا رداءً، - عجباً، يعني خرج بسرعة - كراهيةً أن يُبطئَ عنها، حتّى بايعه^(٨)، مع أنّ الواقع غير هذا، كما صرّح به البخاريّ وغيره.

وكتب أيضاً أنّ سعد بن عبادة بايع أبا بكرٍ، وأنّ مخالفته أولاً كانت فلتةً كفلتات الجاهليّة، مع أنّ الواقع غير هذا، فإنّه خرج إلى الشام، ولم يبايع، فلاحقته السلطة، واغتالته، ثمّ أشاعتُ بأنّه قتل الجنّ، كما صرّح بذلك القرطبيّ في العقد الفريد^(٩).

المورد الرابع: ينقل عن سيف الكذاب، أنّ أبا ذرّ طلب بنفسه من عثمان الخروج إلى الربذة، وأنّ عثمان أقطعهُ صرمةً من الإبل، ومملوكين، وأرسل إليه أن يعاهد المدينة حتّى لا يرتدّ أعرابياً، وكره عثمان لأبي ذرّ تعربه بعد الهجرة، فالفضيّة ليست قضيّة تسفير، وإبعاد، وتهجيرٍ لأبي ذرّ إلى الربذة، بل قضيّة الخروج بنفسه مع عدم رضی السلطة^(١٠).

المورد الخامس: يروي أنّ الوليد بن عقبة افتروا عليه بشربه الخمر، وأنّ عثمان قال له: يا أخي، نقيم الحدود، ويبوء شاهد الزور بالنار، فاصبر^(١١). يعني: أنّ سيفاً يبرئ الوليد بن عقبة.

المورد السادس: يروي عن سيف خبر: «كلاب الحوآب»، وأنّ النبيّ ﷺ قالها في أمّ زمل، لا في عائشة^(١٢). إلى غير ذلك.

فمن يروي في كتابه هذه القضايا، الظاهر عليها الكذب، وقلب الحقائق، ومن يعتمد في كتابه على أمثال سيف الذي قال فيه يحيى بن معين: (فلسٌ خيرٌ منه)، فمن الطبيعيّ - والمسلّم، والأكيد - ألاّ يؤخذ بما يرويه من خدشٍ بشأن أهل البيت ﷺ، وأكرّر، وأعيد: إنّ هذه العبارة التي يرويها الطبري - (دعوني فلاذهب إلى هذه الأرض العريضة حتّى ننظر ما يصير أمر الناس) - لو كان يلوح منها

أمارات الذلّ، والضعف، والانعطاف نحو السلطنة الأموية الدموية، فهي بعيدة كلّ البعد عن أبي الأحرار الشهيد، وهي من دسائس السلطنة، إن لم يكن توجيهها بنحوٍ آخر.

❖ لماذا نبكي على شهادة الإمام الحسين عليه السلام، وهو الذي سعى إليها لأنّها هي الفوز، والحياة؟ أليس من الأولى أن نفتخر بالإمام عليه السلام؛ لأنّه نال الشهادة، وحقق مراده، ونفّح بانتصار الدم على السيف؟

❖ سأعطيكم جوابين، أحدهما نقضي، و الآخر حلّي:

(١) أما النقضي: فقد استشهد الكثيرون في عهد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في الحروب، ونالوا الشهادة، كما في بدر، وأحد، وفي البعثات التي بعثها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلى التبليغ، ثم قُتل المبعوثون، كما في قصّة رجيع وبئر معونة، وقد نالوا الشهادة، حمزة أيضاً نال الشهادة، وجعفر فاز فوزاً عظيماً، لكنّ النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله بكى عليهم، فقد قال في حمزة: (أمّا حمزة عمّي لا بواكي له)، وفي جعفر: (فعلى مثل جعفر فلتبك البواكي)، وبكاؤه وتألمه على سعد بن ربيع، حيث دمعت عيننا رسول الله صلى الله عليه وآله، ونظائره، أيضاً يمكن أن ننقض على ذلك ببكاء أمير المؤمنين عليه السلام على مالك الأستر، مع أنّه فاز بالشهادة، فالفوز ونيل الدرجة العالية لا يمنعان العين من الدمع والقلب من التألم.

أعطيكم مثلاً: إنّ الأمّ المفقود ولدها إذا أُرّجع لها ولدها بعد فترة نراها تبكي، فهل هذا البكاء في محله؟! هل يحقّ لأحد أن يمنعها من البكاء فيقول لها: (اضحكي، وافرحي)؟! وهل هذا منطقٌ مقبولٌ؟! إنّ بكاءها ليس بكاء العجز، بل بكاء عاطفة، إنّ البكاء على الحسين عليه السلام لم يكن بكاء العجز والضعف حتّى يلام الباكي على بكائه، بل بكاء عاطفة، إنّ ما بين الجوانح ليس حجراً حتّى يكون قاسياً، بل هو

قلبٌ يتصدّع، يتألم، يتحسّس حينما يسمع ما جرى على آل الرسول ﷺ، لا أنسى كلام أبي ریحان البيرونيّ في الآثار الباقية حيث قال: (في اليوم العاشر، اتّفق فيه قتل الحسين، وفعل به - وبهم - ما لم يُفعل في جميع الأمم بأشرار الخلق، من القتل، والعطش، والسيف، والإحراق، وصلب الرؤوس، وإجراء الخيول على الأجساد)^(١٣).

فيا ترى هل أن القلب - حينما يقف أمام هذه الحقائق المرة - يبتهج ويفرح؟! فإن ابتهج فهو مصداق الآية: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾^(١٤)، كيف وقد بكى الرسول الأعظم ﷺ، وعليّ بن أبي طالب، وفاطمة، وأصحاب الرسول على الحسين قبل المادثة بمجرد أن أشار النبيّ الكريم ﷺ إلى مشهد من مأساة كربلاء، ويكفيك كتاب: «سير أعلام النبلاء للذهبي، الجزء الثالث»، فإنّه مليءٌ بروايات بكاء النبيّ الكريم ﷺ على الحسين، حينما نزل جبرئيل عليه السلام وأخبره بما يجري، وكذلك بكاء الإمام زين العابدين عليه السلام على الحسين مدّة حياته بعد كربلاء، حتّى عدّ من البكائين الخمسة، وبكاء الإمام الباقر عليه السلام، حتّى أنّه أوصى بإقامة المأتم بعده في منى لمدّة عشر سنوات، وبكاء الإمام الصادق عليه السلام، سيّما يوم عاشوراء، كما عن الإمام الكاظم عليه السلام، ولا ننسى كلام الإمام الرضا عليه السلام حيث قال: «إنّ يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأورثنا الحزن إلى يوم الانقضاء، فعلى مثل الحسين فليبك الباكون»، وبكاء الإمام المهدي عليه السلام صباحاً ومساءً كما في زيارة الناحية، التي حقّقنا صحتّها في أبحاثنا في المحوذة العلميّة، ونشر تقرير بحثنا في بعض المجالات التخصّصيّة.

❁ كيف كانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام هي العنصر الذي أبقى

الإسلام؟

❁ إنَّ من يراجع التاريخ وسياسة الحكم الأمويّ - سيّما بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام إلى يوم تسلّم يزيد الخلافة، وتسلّطه على رقاب الناس - يتبادر إلى ذهنه حديث الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله أنّه لم يبق من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، فترى المظاهر الإسلاميّة من إقامة صلاة الجمعة و الجماعة، ولكنّ السلطة وأيديها هم المتآمرون على الدين، وهم أبعد الناس عن القيم الإسلاميّة؛ فتراهم يزاولون المنكرات، ويبتعدون عن المعروف، ويروّجون للمنكر، إلى حدّ التبس على الناس أمرهم، وظنّوا أنّ هذا هو الإسلام جملةً وتفصيلاً، فلو لا الثورة الحسينيّة، ورفضها لهذه المظاهر والسياسة العدائيّة، وإعلان الوقوف بوجهها بقيادة سيد شباب أهل الجنّة، الذي لا يشكّ أحدٌ في سموّ مقامه وجلالته، ولو لا هذه الثورة - وبقيادة هذه الشخصيّة - لألتبس الأمر، ولضاعت الحقائق، ولموّه على الناس، وألتبس عليهم، وظنّوا أنّ الإسلام هو هذا الذي يُشيعه الأمويّون، فالحسين عليه السلام بثورته ونهضته أعلن للعالم أنّ هناك إسلاماً آخر غير ما يذيعه ويشيعه الآخرون، وهو إسلام رسول الله صلّى الله عليه وآله، وإسلام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو الإسلام الذي قال عنه الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١٥)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١٦)، فالحسين عليه السلام بثورته حاول الحفاظ على هذه القيم، وهذا النوع من الإسلام، بلغ الأمر ما بلغ، وإن كلفه الأمر نفسه.

❁ في زيارة الناحية يقول الإمام الحجّة عليه السلام: (فَلَمَّا رَأَيْنَ النِّسَاءَ جَوَادِكَ مَخْزِيًّا، وَنَظَرْنَ سَرَجَكَ عَلَيْهِ مَلُوبِيًّا، بَرَزْنَ مِنَ الْخُدُورِ، نَاشِرَاتِ الشُّعُورِ، عَلَى الْخُدُودِ لَاطِمَاتُ الْوُجُوهِ السَّافِرَاتِ، وَبِالْعَوِيلِ دَاعِيَاتِ، وَبَعْدَ الْعِزِّ مُذَلَّلَاتِ، وَإِلَى مَصْرَعِكَ مُبَادِرَاتِ). كيف لبنات الطهر والعفاف فعل هذه الأمور وهم على هذه الحالة يخرجن إلى مصرع الإمام الحسين عليه السلام؟

❁ أولاً - في رأيي القاصر - لا شبهة في اعتبار «زيارة الناحية»، وصدورها من الناحية المقدسة، وقد بحثنا في ذلك من خلال أبحاثنا التخصصية في مركز الأبحاث التخصصية في المهديّة من الحوزة العلميّة في قمّ المقدّسة، وأنّ هذه الزيارة يرويها ابن مشهديّ، ويصرّح في مقدّمة كتابه أنّ ما في هذا الكتاب يرويه عن الثقات عن المعصومين عليهم السلام.

هذا من ناحية السند، وأمّا العبارة هذه فلقد سألتُ أستاذي بالنسبة إليها، وأجاب بأنّه ليس من الضروريّ أن يكون نشر الشعر بنحو مكشوفٍ، بل من وراء الحجاب والستار - كما هو عادة نساء العرب من نشر شعورهنّ حين عروض المصيبة، ولكن تحت الستر والحجاب -، وهذا ما نتبناه نحن، أضف إلى ذلك أنّ الخدور والخيم لم يكن فيها رجالٌ إلاّ وقد استشهدوا غير الإمام زين العابدين عليه السلام، والذي كان في الخيمة، وهذه الصورة تُنقل عند مجيء الفرس، لا أنّهم خرجن إلى المصرع بهذا الزي، وهذه الطريقة، فالواقع أنّ الإمام عليه السلام يريد أن يرسم عمق الفاجعة، فهذه الحالات والمواصفات ترتبط بظرفٍ خاصٍّ، وهو حين مجيء الفرس، ومشاهدة النساء الجواد مخزياً، وليست هذه مرتبطة بقوله: (وإلى مصرعك مبادرات)، وعلى فرض ظهور العبارة فلا بدّ من التأويل، كيف وهنّ بنات الوحي والرسالة، وهنّ أحقّ وأولى من غيرهنّ بمراعاة حدود الشرع والشريعة التي هي هدفٌ من أهداف ثورة الحسين عليه السلام.

❁ قامت على مدى التاريخ - البعيد والقريب - ثوراتٌ، ومن المعلوم أنّ لكلّ ثورة رسالةً تريد إيصالها، ولكنّ لماذا اختصّت ثورة الإمام الحسين عليه السلام بإيصال رسالتها إلى مدى بعيدٍ جاوز الأزمان والأجيال؟ وما هي هذه الرسالة التي أرسلها الإمام الحسين عليه السلام إلينا؟

❁ رسالة الحسين عليه السلام عنوانها واضح، وهو: «هيهات منا الذلة»، فحينما خيروه بين السلّة والذلّة قال: «ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة»، وعنوان رسالة الحسين عليه السلام هو: «لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد»، والحسين صمد تحقيقاً لهذا العنوان بلغ الأمر ما بلغ، كما نسب إلى الإمام عليه السلام:

تركتُ الخلقَ طُرّاً في هواكِ وأيتمتُ العيالَ لكي أراكِ
فلو قطعني بالحبِّ إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكِ
هذه هي رسالة الحسين عليه السلام، والتي هي امتدادٌ لخطِّ جدّه الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله.
وخطُّ الحسين ونهجه هو: المحافظة على بقاء هذا الخطِّ، وألاّ تناله يد التحريف والتزييف كما هو شأن الأمويين، سيّما في فترة ما بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام إلى الثورة الحسينيّة؛ حيث قاموا باجتثاث جذور الإسلام، وشنّوا حرباً واسعةً على المؤمنين، بحيث لم يبق مؤمنٌ إلا وهو خائفٌ، أو طريدٌ، أو مسجونٌ، كما في احتجاج الطبرسي: أنّه لما استشهد الحسن عليه السلام ازداد البلاء والفتنة، فلم يبق وليٌّ إلا خائفٌ على نفسه، أو مقتولٌ، أو طريدٌ، أو شريدٌ، فالرسالة الحسينيّة، والثورة الكربلائيّة هي إعادة لعزّة المسلمين، وكرامتهم، وضععةٌ لأركان الظلم، وعروش الظالمين، وبما أنّ الإسلام دينٌ أبديٌّ، فالذي يحاول ويجاهد - وبكلِّ ما لديه - لإحياء هذا الدين، وإيقائه، وإنقاذه من براثن المتآمرين، تبقى ثورته خالدةً مشرقةً على مرّ العصور، وهذا هو سرُّ خلود الثورة الحسينيّة، وتجدها على مرّ الزمن؛ لأنّها ثورةٌ تمسّ الصميم، ثورةٌ لإحياء المبادئ، والقيم الإسلاميّة التي هي مع الفطرة السليمة، وهي في الواقع ثورةٌ متعاطفةٌ مع فطرة الناس، التي فطر الناسُ عليها، وهذا ما يوجب خلودها؛ لأنّ الإسلام «محمّديُّ الحدوث، وحسينيُّ البقاء»، ولو لا الثورة الحسينيّة

لما بقي أثرٌ من الإسلام المحمّديّ؛ لأنّ الأمويّين كانوا يروّجون إسلاماً متناسباً مع أهوائهم، ومصالحهم، ونواياهم، فكيف نطلق على ما يروّجون اسمَ إسلامِ النبيّ الكريم ﷺ؟! وقد كان يسبّ علي بن أبي طالب عليه السلام - الذي قال فيه: (عليّ منّي، وأنا منه) (١٧) - على المنابر علناً، بينما كان مدحه وذكر فضائله تعدّ جريمةً وذنباً لا يغفر! هذا هو رمز بقاء الثورة الحسينيّة، والثورات التي تعقبت هذه النهضة إذا كانت في نفس الاتجاه وبنفس الأهداف، فهي مستمدّةٌ من كربلاء، وكان لها الأثر في تجديد خواطر النهضة الحسينيّة، وتأثيرها على ضعفة أركان حكم الظالمين، وفضحهم، وتشهيرهم.

❁ لماذا كلّ هذا الثواب العظيم لمجالس العزاء الحسينيّ، وللبكاء، ولذرف

الدموع، حتّى على مستوى دمعَةٍ واحدة، بل حتّى على مستوى التباكي؟

❁ (من بكى أو تباكى أو أبكى)، وإن لم يرد حديثٌ بهذا النصّ، لكن ورد بهذا المضمون، ونقله علماء الفريقين، ولعلّ المقصود أنّه يؤدّي إلى الفوز، والنجاة، والتوبة، وحسن العاقبة، وبالتالي يموت نقيّ الثوب، طاهر السريرة، و من الطبيعيّ أنّ من لقي الله على هذه الحالة فعاقبته الجنّة.

إنّ البكاء - أو التباكي، أو الإيباء، أو كلّ ما يكون من هذا المقال أو المقولة - عبارةٌ عن التعاطف مع الأجواء الحسينيّة، وأهداف النهضة، والانقياد لقائدها، ولقيم النهضة ومبادئها، بل أكثر من ذلك، فهو عبارةٌ عن التواجد في المعسكر الحسينيّ، وإعلان الانقياد، والجهاد تحت رايته، ومن كانت هذه نيّته، وهذا كلّ ما في سريرته، وهذا عمله، فهو لا زال في عبادة الله ﷻ، وطاعته، «نفسُ المهموم لحزننا عبادة» (١٨)، فمن كان في عبادة الله، قام لله، جاهد في سبيل الله، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْنِي وَفَرَادَى﴾ (١٩)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ

مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴿٢٠﴾، فاذا كان البكاء تعبيراً آخر عن هذا الموقف الجهادي، ودعماً وتأييداً للنهضة الحسينية، وإظهاراً للتبرّي ممّا ارتكب في شأنه، وفي حقّه، وحقّ أولاده، وحقّ أصحابه، فلا شكّ أنّها عبادة، ومن أفضلها، وهذا الشخص - بهذه المواصفات - يستحقّ الجنّة؛ لأنّه في عبادة الله ﷻ، ورضاه، فمسكنه رياض الجنّة، ورضوان الله، وهنيئاً له جوار رسول الله ﷺ، وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

✽ ورد في مقتل الخوارزمي أنّ الإمام الحسين عليه السلام قال لعبيد الله بن الحر: قد سمعتُ جدّي رسول الله ﷺ يقول: (من سمع بواعية أهل بيتي ثمّ لم ينصرهم على حقّهم، أكبه الله على وجهه في نار جهنم)، وفي ثواب الأعمال وعقاب الأعمال للصدوق رضي الله عنه قال عمر بن قيس المشرقي: (دخلت على الحسين أنا وابن عمّ لي، وهو في قصر بني مقاتل، فسلمنا عليه، فقال له ابن عمّي: يا أبا عبد الله، هذا خضابٌ أو شعرك؟

فقال عليه السلام: خضابٌ، والشيب إلينا - بني هاشم - يعجل.

ثمّ أقبل علينا، فقال: جنّتما لنصرتي؟

فقلت: إنّني رجلٌ كبير السنّ، كثير الدّين، كثير العيال، وفي أيدينا بضائع الناس، ولا أدري ما يكون، وأكره أن أضيع أمانتي. وقال ابن عمّي مثل ذلك.

قال لنا: فانطلقا، فلا تسمعا لي واعيةً، ولا تريا لي سواداً، فإنّه من سمع واعيتنا، أو رأى سوادنا، فلم يجبنا، ولم يُعِنّا، كان حقاً على الله ﷻ أن يكبه على منخرية في النار). ما هي هذه الواعية؟

❁ قالها الإمام الحسين عليه السلام إتماماً للحجة، وإلقاءً لها، كي لا يحتج أحدٌ يوم القيامة بأنّي لم أسمع بخروج الحسين، ومقصده، وهدفه، ومأربه، والحسين عليه السلام - في احتجاجه مع عمر بن قيس، وغيره - أتى بهذه الكلمة أو بضمونها، كما قالها - كلمة الواعية - لهرثمة بن سليم على ما في وقعة صفين لنصر بن مزاحم (متوفى ٢١٢هـ)، يقول: غزونا مع عليّ (صفين)، فلما نزلنا بكربلاء صلي بنا صلاةً، ولما سلّم رفع إليه من تربتها، فشمّها، ثمّ قال: واهاً لك أيتها التربة، ليُحشَرَنَّ منك قومٌ يدخلون الجنةَ بغير حساب، فلما رجع هرثمة من غزوته إلى امرأته، وكانت شيعةً لعليّ، فقال لها هرثمة: ألا أعجبك من أبي الحسن، لما نزلنا كربلاء رفع إليه من تربتها، فشمّها، وقال: «واهاً لك أيتها التربة...»، وما علمه بالغيب؟! فقالت: دعنا منك أيّها الرجل، فإن أمير المؤمنين لم يقل إلاّ حقاً. فلما بعث عبيد الله بن زياد البعث الذي بعثه إلى الحسين وأصحابه، قال: كنتُ فيهم، وفي الخيل الذي بعث إليه، فلما انتهيتُ إلى القوم، والحسين، وأصحابه، عرفتُ المنزل الذي نزل بنا عليّ فيه، والبقعة التي رفع إليه من ترابها، والقول الذي قاله، فكرهتُ مسيري، فأقبلتُ على فرسي، حتّى وقفتُ على الحسين، فسلمتُ عليه، وحدثتُه بالذي سمعتُ من أبيه في هذا المنزل، فقال الحسين: معنا أنت أو علينا؟ فقلتُ: يا بن رسول الله، لا معك ولا عليك، تركتُ أهلي وولدي، أخاف عليهم من ابن زياد. فقال الحسين: فولّ هرباً؛ حتّى لا ترى لنا مقتلاً، فوالذي نفس محمد بيده، لا يرى مقتلاً اليوم رجلٌ ولا يغيثنا - في بعض النسخ: لا يعيننا - إلاّ أدخله الله النار، قال: فأقبلتُ في الأرض هارباً، حتّى خفي عليّ مقتله^(٢١)، بهذا المضمون، وقوله عليه السلام لعمر بن قيس: «من سمع واعية أهل بيتي...» بمعنى واحد؛ لأنّ الواعية في اللغة - كما في النهاية لابن الأثير، ومجمع البحرين للطريحي - هي: الصراخ على الميت، أو النعي، ولا يبني منه فعلٌ. وقيل: الوعى: كالوغى، الصوت الشديد.

فالمراد بالواعية هنا هو صراخ أهل البيت، وبكاء زينب، «وهي المخدرة التي كانت إذا أرادت زيارة قبر الرسول الأكرم ﷺ - كما رواه يحيى المازني، الذي كان جارها في المدينة على ما في كتاب الشيخ جعفر التستري - كانت تخرج ليلاً، والحسن عن يمينها، والحسين عن شمالها، وأمير المؤمنين قدامها، فإذا اقتربوا من الحرم الشريف، يأمر أمير المؤمنين الإمام الحسن بإطفاء السراج، ويقول: لا أريد أن يقع نظر أحد إلى شخص زينب»، فمن كانت بهذه المثابة والدرجة، فإذا بها - وبسائر نساء بني هاشم، بنات الرسول - يصرخن، ويندين، كما في زيارة الناحية: (فبالعويل نادبات)، فمن يرى هذه الحالة المأساوية، المقرحة للقلوب، والجفون، ولم يهتم بالذنب والدفاع عن أهل البيت، ونصرتهم، من الأكيد أنه من أهل النار، كيف وقد قال رسول الله ﷺ: «من سمع رجلاً ينادى: يا للمسلمين. فلم يجبه، فليس بمسلم»؟! فكيف والنادبات الصارخات المستغيثات هنّ من آل الرسول، وبنات فاطمة وعلي؟! والمصيبة والفاجعة العظمى هي مصيبة استشهاد من هو من الرسول، والرسول منه، «حسين مني وأنا من حسين»، وكما قالت زينب: «ويلكم يا أهل الكوفة، أي كبد لرسول الله فريتم؟! وأي كريمة له أبرزتم؟! وأي دم له سفكتم?!»، هذه الواعية التي من لم يلب طلبها، ولم ينصرها، فهو مسلوب الإيمان، والعقيدة، ومسلوب الإنسانية، ومن كان هكذا، من المعلوم أن مصيره إلى النار، كما قال الحسين عليه السلام: «أن يكبه على منخرية في النار».

❦ إلى ماذا يرمي الإمام الحسين عليه السلام من الاستنصار، والاستغاثة، ومن

الترخيص لأصحابه، والإذن بالانصراف؟

❦ أولاً: إن أصحاب الحسين الذين نصره إلى آخر قطرة دم، هم من خير الأصحاب، ولا يُقاس بهم أحد، كما صرح بذلك الحسين بن علي عليه السلام: «إني لا أعلم أصحاباً أوفى - ولا أبر - من أصحابي»، فالترخيص والإذن بالانصراف لهؤلاء ليس

إلاّ تأييداً لما قاله، من أنّهم من خير الأصحاب، وأبرّهم، لكي تنتقل - وتتناقل - الصورة إلى الأجيال، كيف أنّهم صمدوا، ووقفوا، وجاهدوا دفاعاً عن الحقّ والحقيقة، وكيف هو عزمهم على التضحية في سبيل الإسلام، والدفاع عن آل رسول الله ﷺ، إلى أن فازوا بالشهادة.

ثانياً: إنّ الاستغاثة والاستنصار بهم كان بعد استشهادهم كما في التواريخ، ولما نظر إلى مَنْ حوله وهم مجزّرين، قتلَى، صرعى، ناداهم: «مالي أناديكم فلا تجيبون؟! وأدعوكم فلا تسمعون؟! أنتم نيام؟! أم ذهب حميتكم؟!» فتحرّكت الأجساد، هذا شاهدٌ ثانٍ على وفائهم، وصلابتهم، وما يقال في رجوع البعض ليلة عاشوراء والانصراف فإنّه لم يثبت، كما أنّ وصف الإمام الحسين عليه السلام: «إني لا أعلم أصحاباً أوفى - ولا أبرّ - من أصحابي» - وما ورد في الروايات عنهم، وأنّهم من أجلّ الأصحاب، وأعلاهم درجةً يوم القيامة - لا ينسجم مع ترديده في النصرة، فكيف بعزمه على الرجوع وترك الانتصار؟! والنتيجة: أنّ الحسين عليه السلام أراد أن يلقي الحجّة، ولكي لا يبقى أيّ مستمسك لأحد لأنّ يتفوّه بكلمة غير مدروسة في أصحاب الإمام الحسين عليه السلام؛ فيقول: إنّهم شاركوا جبراً، أو حياءً، وعالجوا الموت بأسيافهم، وأمثال هذا الكلام الفارغ الذي كان يشيعه عملاء الأمويين بالأمس، وأذناهم في هذا اليوم.

كيف يكونون متردّدين في نصرة الحسين وقد فدّاهم الإمام الصادق عليه السلام بنفسه، وأبيه، حين وقف أمام ضريحهم المقدّس، وقال: «بأبي أنتم، ونفسي»؟! نسأل الله ﷻ أن ينور قلوبنا بنور معرفته، والاهتداء بهداهم، وأتباع سبيلهم، والحشر معهم، والنيل من شفاعتهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- (١) البحار، ج ٤٤، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.
- (٢) البحار. ج ٤٤، ص ٣٨٢ / الطبري، باختلافٍ يسيرٍ، ج ٤، ص ٣٠٢.
- (٣) تذكرة الخواص، الطبعة الجديدة، ج ١، ص ٢١٦.
- (٤) الطبري، ج ٤، ص ٢٦٦.
- (٥) صلح الحسن عليه السلام، ص ٢٨٥.
- (٦) الطبري، ج ٤، ص ٣١٣.
- (٧) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٨٣.
- (٨) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٢٠٧.
- (٩) العقد الفريد، ج ٤، ص ٢٦٠.
- (١٠) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٨٤.
- (١١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٤٧.
- (١٢) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٢٦٣.
- (١٣) الآثار الباقية، ص ٢٩٢.
- (١٤) البقرة: ٧٤.
- (١٥) آل عمران: ١٩.
- (١٦) آل عمران: ٨٥.
- (١٧) رواه البخاري ج ٣، ص ٣٦٨، بلفظ: «أنت متي، وأنا منك».

(١٨) ورد في الكافي، ج ٢، ص ٢٢٦، عن الإمام الصادق عليه السلام بلفظ: «نفس المهموم لنا - المغتم لظلمنا - تسبيحٌ، وهمّ لأمرنا عبادةٌ، وكتمانه لسرّنا جهادٌ في سبيل الله»، وفي غير الكافي بألفاظ أخرى.

(١٩) سبأ: ٤٦.

(٢٠) الصف: ١٠-١١.

(٢١) وقعة صفين ص ١٤٠.

إحياء عاشوراء

غازي عبد الحسن إبراهيم

المقدمة:

كعب عاشوراء موسمٌ يتجدد، فيتجدد معه الحزن والأسى على مصاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام. هكذا كانت سيرة أهل البيت عليهم السلام في يوم عاشوراء، فقد أورد الصدوق في أماليه عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «إنَّ المحرمَّ شهرٌ كان أهل الجاهليَّة يجرِّمون فيه القتال، فاستُحلتَّ فيه دماؤنا، وهتكت فيه حرمتنا، وسُبي فيه ذرارينا، ونساؤنا، وأُضرمت النيران في مضاربنا، وانتُهب ما فيها من ثقلنا، ولم تُرعَ لرسول الله صلى الله عليه وآله حرمةٌ في أمرنا، إنَّ يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذلَّ عزيزنا، بأرض كرب وبلاء، وأورثنا الكرب والبلاء، إلى يوم الانقضاء، فعلى مثل الحسين فليبك الباكون، فإنَّ البكاء يحطُّ الذنوب العظام. - ثمَّ قال عليه السلام: - كان أبي عليه السلام إذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكاً، وكانت الكآبة تغلب عليه، حتَّى يمضي منه عشرة أيَّام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبتة، وحزنه، وبكائه، ويقول: هو اليوم الذي قُتل فيه الحسين عليه السلام»^(١).

وروى الشيخ الطوسي في المصباح، عن عبد الله بن سنان، قال: «دخلتُ على سيدي أبي عبد الله، جعفر بن محمد عليه السلام في يوم عاشوراء، فألفيته كاسف اللون، ظاهر الحزن، ودموعه تنحدر من عينيه كاللؤلؤ المتساقط، فقلتُ: يا ابن رسول الله، ممَّ بكائك، لا أبكى الله عينيك؟! فقال لي: أوفي غفلة أنت؟! أما علمت أن الحسين بن علي عليهما السلام أصيب في مثل هذا اليوم؟!»^(٢).

عاشوراء.. وما أدراك ما عاشوراء؟! يوم بكت فيه الأرض والسماء، والملائكة والأنبياء، والمجنّ والأنس، وبكى فيه رسول الله ﷺ، فقد جاء في مستدرك الحاكم النيسابوري حديثٌ - عبّر عنه بـ: الصحيح على شرط الشيخين - عن أمّ الفضل بنت الحارث، أنّها دخلت على رسول الله، فقالت: «يا رسول الله، إنّي رأيتُ حلماً منكراً الليلة، قال: وما هو؟! قالت: إنّه شديدٌ. قال: وما هو؟! قالت: رأيتُ كأنّ قطعةً من جسدك قطعت، ووُضعت في حجري. فقال رسول الله: رأيتُ خيراً، تلد فاطمة إن شاء الله غلاماً، فيكون في حجرك. فولدت فاطمة الحسين، فكان في حجري كما قال رسول الله، فدخلتُ يوماً إلى رسول الله، فوضعتُه في حجره، ثمّ حانت منّي التفاتةٌ، فإذا عينا رسول الله تهريقان من الدموع! قالت: فقلتُ يا نبيّ الله، بأبي أنت وأمي، ما لك؟! قال: أتاني جبريل، فأخبرني أنّ أمّتي ستقتل ابني هذا. فقلتُ: هذا؟! فقال: نعم، وأتاني بتربةٍ من تربته حمراء»^(٣).

ذلك هو صانع عاشوراء الحسين عليه السلام، فلذة كبد رسول الله ﷺ، وقرّة عينه، الذي روّى بدمه الأقدس شجرة التوحيد، فثبّت أصلها، وأينعت ثمارها، فأتت أكلها في كلِّ عصرٍ ومصرٍ بإذن ربّها.

عاشوراء والآخر:

تنوّعت النظرة للممارسات العاشورائية من قبل الآخر - الدينيّ أو المذهبيّ - بين باحثٍ عن حقيقة مذهب أهل البيت عليهم السلام انطلاقاً من هذه المفردات الموسميّة؛ ليصل إلى أصول المذهب - وفروعه - عن طريق البحث العلميّ الجادّ، بعيداً عن العصبية الدينيّة أو المذهبيّة، وبين مثيرٍ للفتنة عن طريق شنّ حملات التشكيك المسعورة، التي تستهدف المذهب - والمنتمين إليه - في جلّ الأبعاد.

نحن نعتقد بأنّ ثورة الحسين عليه السلام ثورة شموليّة، لا تختصّ بالمسلمين الشيعة، بل هي لكلّ إنسانٍ فوق هذا الكوكب، مسلماً كان أو غير مسلم، فهي ثورة تعلّم منها

زعيم الهند غاندي، حيث قال: (تعلمتُ من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر)، وهي ثورةٌ قال عنها الكاتب المسيحي أنطون بارا: (الحسين ثار من أجل الحق، والحق لكل الشعوب، والحسين ثار من أجل مرضاة الله، وما دام الله خالق الجميع، فكذلك ثورة الحسين لا تختص بأحدٍ معيّن، بل هي لكلّ خلق الله)^(٤)، وقديماً قال ذلك القسّ المسيحي: (لو كان الحسين لنا لرفعنا له في كلّ بلد بيراً، ولنصنأ له في كلّ قرية منبراً، ولدعونا الناس إلى المسيحية باسم الحسين)^(٥).

فحريٌّ بنا - كمسلمين من كافة المذاهب الإسلامية - أن نعيش الحسين عليه السلام فكراً، وعاطفةً، وسلوكاً، نعيشه في قيمه، ومبادئه، التي هي - في واقعها - قيم ومبادئ السماء، التي صدح بها جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وذاد عنها أبوه أمير المؤمنين عليه السلام، والسلف الصالح من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، وترتقي بواقع المسلمين بما فيه رضا الله جلّ جلاله.

فمن شكك في مقام الحسين عليه السلام، ونهضته، وقيمه، ففي قيم السماء شكك، ومن آذى رسول الله صلى الله عليه وآله في أهل بيته، فقد آذى الله جلّ جلاله، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من آذاني في أهل بيتي فقد آذى الله، ومن أعان على أذاهم، وركن إلى أعدائهم، فقد أذن بحربٍ من الله ورسوله، ولا نصيب له في شفاعتي»^(٦).

عاشوراء الإسلام:

إن إحياء عاشوراء الحسين عليه السلام هو إحياء للإسلام في منطلقاته، وأبعاده، وأهدافه، وآلياته، فكما أن الإسلام محمديّ الوجود، فهو حسينيّ البقاء، والاستمرار، وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله: «حسينٌ منّي، وأنا من حسين»^(٧)، فالحسين عليه السلام لم يخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرج لطلب الإصلاح في أمة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، آمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر^(٨).

إنَّ عاشوراء - في حقيقته - هو اليوم العالمي لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويوم رفض الظلم والظالمين، ويوم الشهادة، ويوم التضحية، والفداء، والإيثار، ويوم الحرّية، ويوم الصلاة، والدعاء، ويوم العبوديّة المطلقة لله ﷻ.

فهذه المفردات - وغيرها - تتألق في يوم عاشوراء، وهي مفردات مقدّسة تنبع من عمق الدين الإسلاميّ الحنيف، ومن هنا تأتي لا بدّيّة التعبير عن هذه المفردات، بأساليب وأدوات تنسجم مع محتواها المقدّس الذي لا ينفكّ عن قدسيّة الإسلام.

الممارسات العاشورائية:

إنَّ إحياء عاشوراء، والتفاعل مع نهضة الحسين ﷺ له مستويات متعدّدة، بعضها يرتبط بالبعد العقائديّ الفكريّ الثقافيّ، والبعض الآخر يرتبط بالبعد الروحيّ العاطفيّ المعنويّ، فتتنوّع الإحياء والتفاعل يعتبر ظاهرة حضاريّة وصحيّة، يحتمّها تنوّع العطاءات في واقعة كربلاء، وكلّما توفّر إحياء عاشوراء على البعدين الفكريّ والعاطفيّ، كان الإحياء أقرب للرساليّة.

وهناك جملة من مظاهر الإحياء العاشورائيّ التي ساهمت - وبشكل كبير - في إبقاء ثورة الإمام الحسين ﷺ متجدّرة في وجدان الشعوب، بكلّ شرائحها، على مرّ العصور والأزمان، وهي تعتبر من المستحبّات العينيّة، والواجبات الكفائيّة، ومن هذه المظاهر:

أولاً: البكاء:

حقيقة البكاء:

البكاء فعلٌ من أفعال النفس الجوانحيّة، وهو تعبيرٌ عن تأثّر وانكسارٍ في البعد العمليّ؛ نتيجةً لإدراكٍ معيّن، قد يكون ملائماً، وقد لا يكون كذلك، فتدمع العين

لحزن، أو لفرح، أو لشوق، وإنما يكتسب البكاء بعده الإيجابي إذا صدر عن إدراك صادق، وكان المعنى المدرك كاملاً، وكانت الغاية من البكاء موجهةً، وهادفةً، فبكاء العبد العاشق لمعبوده ﷺ - شوقاً - يوجج حالة الحب في وجدان العبد العاشق، فتتولد حينها الطاعة لله ﷻ.

وكذا بكاء المفجوع حزناً على مصاب الإمام الحسين عليه السلام، فهو بكاء يجعل من قضية الإمام الحسين عليه السلام قضيةً متأججةً في وجدان الباكي، ومائلةً في واقعه، بكل ما تحمل من قيم ومبادئ، وذلك يختلف شدةً وضعفاً باختلاف مستوى الوعي والإدراك في شخص الباكي.

البكاء في الآيات:

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم، نرى بأنه تناول مسألة البكاء في مقام المدح كحالة فطرية تساهم في الارتقاء بالنفس نحو الكمال، وذلك في عدة من الآيات المباركة:

(١) منها قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (٩).

فهذه الآيات المباركة تطرح مقارنةً كانت بين اليهود والنصارى المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وآله، وتشير إلى شدة عداوة اليهود للمسلمين، وقرب النصارى في المودة للمسلمين في زمن الرسول صلى الله عليه وآله، وتصفهم - في مقام المدح - بأن أعينهم تفيض من الدمع.

٢) ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾^(١٠).
 وهذه الآية المباركة نزلت في قومٍ من الفقراء، أتوا إلى الرسول ﷺ بشوقٍ، وطلبوا منه بإصرارٍ أن يعطيهم مطايا توصلهم إلى ميدان الجهاد، فقال لهم الرسول ﷺ: ليس عندي مطايا. فخرجوا من عنده وأعينهم تفيض من الدمع؛ حزنًا من عدم وجود ما ينفقون على خروجهم للجهاد.

٣) ومنها قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُونُسَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١١).
 وهذه الآيات المباركة نزلت في نبيِّ الله يعقوب ﷺ بعد أن أعرض عن أولاده حينما زينت لهم أنفسهم ما فعلوه بنبيِّ الله يوسف ﷺ، فقال: يا أسفى على يوسف. وذهب بصره من شدة الحزن.

فحالة البكاء في بعدها الإيجابي - والتي منها البكاء على ما ألمَّ بالحسين ﷺ في يوم عاشوراء من مصابٍ - تنسجم مع المحتوى القرآني في جملة من آياته المباركة.

البكاء في الروايات:

وإذا رجعنا إلى الروايات الواردة في البكاء على مصاب الإمام الحسين ﷺ، نرى بأنها بلغت من الكثرة بمكانٍ يمكن القول معه بالتواتر، أو لا أقل بالاستفاضة، وهي في الوقت ذاته تشتمل على رواياتٍ صحيحةٍ ومعتبرةٍ سنداً، وتامةٍ من حيث الدلالة، وهي رواياتٌ موجودةٌ في مصادر الفريقين، على الرغم من وجود بعض الأخبار الضعيفة سنداً، إلا أنها تصلح للتأييد.

ما ورد من طريق مدرسة أهل البيت عليهم السلام:

(١) منها: ما أورده ابن قولويه في كامل الزيارات، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: أيّما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن عليّ عليه السلام دمعةً حتى تسيل على خده، بوّاه الله بها في الجنة عُرفاً يسكنها أحقاباً، وأيّما مؤمن دمعت عيناه حتى تسيل على خده فينا لأذى مسّنا من عدوّنا في الدنيا، بوّاه الله بها في الجنة ميوماً صدق، وأيّما مؤمن مسّه أذى فينا، فدمعت عيناه حتى تسيل على خده من مضاضة ما أودى فينا، صرف الله عن وجهه الأذى، وآمنه يوم القيامة من سخطه، والنار»^(١٢).

(٢) ومنها: ما أورده ابن قولويه أيضاً، عن زرارة، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا زرارة، إنّ السماء بكت على الحسين عليه السلام أربعين صباحاً بالدم، وإنّ الأرض بكت أربعين صباحاً بالسواد، وإنّ الشمس بكت أربعين صباحاً بالكسوف والحمرة، وإنّ الجبال تقطعت وانتثرت، وإنّ البحار تفجرت، وإنّ الملائكة بكت أربعين صباحاً على الحسين عليه السلام، وما اختضبت منّا امرأة، ولا ادّهنت، ولا اكتحلت، ولا رجلت حتى أتانا رأس عبيد الله بن زياد، وما زلنا في عبّرة بعده، وكان جدّي عليه السلام إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته، وحتى يبكي لبكائه - رحمة له - من رآه، وإنّ الملائكة الذين عند قبره ليبكون، فيبكي لبكائهم كلّ من في الهواء والسماء من الملائكة»^(١٣).

(٣) ومنها: ما أخرجه الشيخ الصدوق، عن الرّيان بن شبيب، قال: دخلت على الرضا عليه السلام في أوّل يومٍ من المحرم، «فقال لي: ... ثمّ قال عليه السلام: يا ابن شبيب، إنّ المحرم هو الشهر الذي كان أهل الجاهليّة فيما مضى يحرّمون فيه الظلم والقتال؛ لحرمته، فما عرفت هذه الأمّة حرمة شهرها، ولا حرمة نبيّها صلّى الله عليه وآله، لقد قتلوا في هذا الشهر ذريّته، وسبوا نساءه، وانتهبوا ثقله، فلا غفر الله لهم ذلك أبداً.

يا ابن شبيب، إن كنتَ باكياً لشيء، فابك للحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فإنه ذُبح كما يُذبح الكبش، وقُتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً، ما لهم في الأرض شبيهه، ولقد بكتُ السماوات السبع والأرضون لقتله، ولقد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعة آلاف لنصره، فوجدوه قد قُتل، فهم عند قبره، شعثُ غبرٍ إلى أن يقوم القائم، فيكونون من أنصاره، وشعارهم: يا لثارات الحسين.

يا ابن شبيب، لقد حدثني أبي، عن أبيه، عن جدّه عليه السلام: أنه لما قُتل جدّي الحسين عليه السلام، مطرتُ السماء دماً وتراباً أحمر. يا ابن شبيب، إن بكيت على الحسين عليه السلام حتى تصير دموعك على خديك غفر الله لك كل ذنبٍ أذنبته، صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً»^(١٤).

٤) ومنها: ما ذكره ابن شهر آشوب في مناقب آل أبي طالب، ممّا ورد في حزن وبكاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام على أبيه الحسين عليه السلام، من أنه بكى عليه عشرين سنةً، وما وُضع بين يديه طعامٌ إلا بكى، حتى قال مولى له: جُعلت فداك، يا بن رسول الله، إني أخاف أن تكون من الهالكين. قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني العبرة. وفي رواية: أما أن لحزنك أن ينقضي؟! فقال له عليه السلام: ويحك، إن يعقوب النبي كان له اثنا عشر ابناً، فغيّب الله واحداً منهم، فابيضت عيناه من كثرة بكائه عليه، واحدودب ظهره من الغم، وكان ابنه حياً في الدنيا، وأنا نظرتُ إلى أبي، وأخي، وعمي، وسبعة عشر من أهل بيتي، مقتولين حولي، فكيف ينقضي حزني؟!^(١٥).

ويكفي لإثبات شرعية البكاء على مصاب الإمام الحسين عليه السلام - بل رجحانه، واستحبابه - ممارسة أئمة الهدى عليهم السلام له، ومداومتهم عليه، وهم عدل القرآن، والثقل الأصغر، المأمورين بالتمسك به.

ما ورد من طريق مدرسة أهل السنة والجماعة:

(١) منها: ما رواه الترمذي في سننه، عن رزين أنه قال: حدثني سلمى، فقالت: دخلتُ على أم سلمة وهي تبكي، فقلتُ: ما يبكيك؟ قالتُ: رأيتُ رسول الله ﷺ - أي في المنام - وعلى رأسه ولحيته التراب، فقلتُ: ما لك يا رسول الله؟ قال: شهدتُ قتل الحسين آنفاً^(١٧).

ورواها الحاكم النيسابوري في مستدرکه أيضاً، ولكن بطريق آخر^(١٧).

(٢) ومنها: ما رواه الطبراني في المعجم الكبير، عن أم سلمة: كان رسول الله ﷺ جالساً ذات يوم في بيتي، فقال: لا يدخل عليّ أحدٌ، فانتظرتُ فدخل الحسين رضي الله عنه، فسمعتُ نسيح رسول الله ﷺ يبكي، فاطلعتُ فإذا حسينٌ في حجره، والنبى ﷺ يسح جبينه، وهو يبكي، فقلتُ: والله ما علمتُ حين دخل. فقال: إن جبريل عليه السلام كان معنا في البيت، فقال: تحبّه؟! قلتُ: أما من الدنيا فنعم. قال: إن أمتك ستقتل هذا بأرض يُقال لها كربلاء. فتناول جبريل عليه السلام من تربتها، فأراها النبى ﷺ، فلما أحيط بحسين حين قُتل، قال: ما اسم هذه الأرض؟! قالوا: كربلاء. قال: صدق الله، ورسوله، أرض كرب وبلاء^(١٨).

قال الميثمي في مجمع الزوائد حينما أورد هذا الحديث: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها ثقات^(١٩).

(٣) ومنها: ما رواه الطبراني في المعجم الكبير أيضاً، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: دخل الحسين بن علي رضي الله عنه على رسول الله ﷺ، وهو يوحى إليه، فنزا على رسول الله ﷺ وهو منكبٌ، ولعب على ظهره، فقال جبريل لرسول الله ﷺ: أتجبه يا محمد؟! قال: يا جبريل، وما لي لا أحبّ ابني؟! قال: فإن أمتك ستقتله من بعدك. فمدّ جبريل عليه السلام يده، فأتاه بتربة بيضاء، فقال: في هذه الأرض يُقتل ابنك هذا يا محمد،

واسمها الطفّ. فلما ذهب جبريل عليه السلام من عند رسول الله صلى الله عليه وآله، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله والتربة في يده يبكي، فقال: يا عائشة، إن جبريل عليه السلام أخبرني أنّ الحسين مشهورٌ مقتولٌ في أرض الطفّ، وأنّ أمّتي ستفتن بعدي. ثمّ خرج إلى أصحابه - فيهم عليٌّ، وأبو بكر، وعمر، وحذيفة، وعمار، وأبو ذر رضي الله عنهم - وهو يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال: أخبرني جبريل أنّ ابني الحسين يُقتل بعدي بأرض الطفّ، وجاءني بهذه التربة، وأخبرني أنّ فيها مضجعه.

٤) ومنها: ما رواه المحافظ أبو نعيم الأصبهانيّ في دلائل النبوة، عن أصغ بن نباتة، عن عليٍّ رضي الله عنه قال: أتينا معه موضع قبر الحسين رضي الله عنه، فقال: ههنا مناخ ركا بهم، وموضع رحالهم، وههنا مهراق دمائهم، فتيّة من آل محمد صلى الله عليه وآله، يقتلون بهذه العرصة، تبكي عليهم السماء والأرض ^(٢٠).

٥) ومنها: ما رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، عن ابن عباسٍ وهو يخاطب الحسين عليه السلام: والله إنّني لأظنّك ستقتل غداً بين نساءك وبناتك، كما قتل عثمان بين نساءه وبناته، والله إنّني أخاف أن تكون الذي يُقاد به عثمان، فإنّا لله، وإنّا إليه راجعون. فقال الحسين لابن عباسٍ: إنّك شيخ قد كبرت، فقال ابن عباسٍ: لو لا أن يزري ذلك بي أو بك، لنسبتُ يديّ في رأسك، ولو أعلم أنّا إذا تناصبنا أقمتُ لفعلتُ، ولكن لا أخال ذلك نافعي. فقال له الحسين: لئن أُقتل بمكان كذا وكذا، أحبُّ إليّ أن تُستحلَّ بي - يعني مكة - قال: فبكى ابن عباسٍ ^(٢١).

٦) ومنها: ما رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق أيضاً، عن يحيى بن إسماعيل بن سالم الأسدي، قال: سمعتُ الشعبيّ يحدث عن ابن عمرٍ أنّه كان بماءٍ له، فبلغه أنّ الحسين بن عليٍّ قد توجه إلى العراق، فلحقه على مسيرة ثلاث ليالٍ، فقال له: أين تريد؟ فقال: العراق. وإذا معه طوامير كتب، فقال: هذه كتبهم وبيعتهم. فقال: لا تأتيتهم. فأبى، قال: إنّني محدّثك حديثاً: إنّ جبريل أتى النبيّ صلى الله عليه وآله فخيره بين الدنيا

والآخرة، فاختر الآخرة، ولم يرد الدنيا، وإتكم بضعة من رسول الله ﷺ، والله لا يليها أحد منكم، وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خير لكم. فأبى أن يرجع، قال: واعتنقه ابن عمر، وبكى، وقال: أستودعك الله من قتيل^(٢٢).

ثانياً: الجزع:

وهو عبارة عن إظهار الحزن، والتعبير عنه بمثل اللطم، وإقامة المآتم، والنوح، والبكاء بصوت عالٍ ومرتفع، وهو مرجوحٌ فيما لو كانت المصيبة شخصيةً، وأمّا الجزع على مصاب الإمام الحسين عليه السلام فهو أمرٌ راجحٌ شرعاً، ومستحبٌ، وذلك استناداً إلى الروايات التي فاقت حدّ التواتر، والتي صرّحتُ برجحان الجزع على مصاب الحسين عليه السلام، وهي موجودةٌ في كتب الفريقين.

ما ورد من طريق مدرسة أهل البيت عليهم السلام:

(١) منها: ما أورده الكليني في الكافي، عن عن سفيان بن مصعب العبدي، قال: دخلتُ على أبي عبد الله عليه السلام، فقال: قولوا لأُمّ فروة تجيئ فتسمع ما صنع مجدها، قال: فجاءت، فقعدت خلف الستر، ثمّ قال: أنشدنا. قال: فقلتُ: «فرو جودي بدمعك المسكوب». قال: فصاحتُ، وضح النساء، فقال أبو عبد الله عليه السلام: الباب، الباب، فاجتمع أهل المدينة على الباب، قال: فبعث إليهم أبو عبد الله عليه السلام صبيٌّ لنا عُشي عليه، فصحن النساء^(٢٣).

(٢) ومنها: ما في الكافي، عن مصقلة الطحّان، قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: لما قُتل الحسين عليه السلام أقامتُ امرأته الكلبية عليه مأتماً، وبكتُ، وبكين النساء والخدم حتّى جفّت دموعهنّ وذهبّت، فبينما هي كذلك إذا رأتُ جاريةً من جواريتها تبكي، ودموعها تسيل، فدعتها، فقالتُ لها: ما لك أنتِ من بيننا تسيل دموعك؟ قالتُ: إنّي

لما أصابني الجهد شربتُ شربةً سويقٍ. قال: فأمرتُ بالطعام والأسوقة، فأكلتُ، وشربتُ، وأطعمتُ، وسقتُ، وقالتُ: إنما نريدُ بذلك أن نتقوى على البكاء على الحسين عليه السلام (٢٤).

وهذه الروايات - أي روايات الجزع - إضافةً لتواترها، فهي معتزدةٌ بالسيرة المتشرعية المتصلة بزمن المعصوم عليه السلام.

٣) ومنها: ما رواه ابن قولويه في كامل الزيارات، عن أبيه، عن سعد بن عبد الله، عن أبي عبد الله الجاموراني، عن الحسن بن علي بن أبي حمزة، عن أبيه، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سمعته يقول: إنَّ البكاء والجزع مكروهٌ للعبد في كلِّ ما جزع، ما خلا البكاء والجزع على الحسين بن علي عليه السلام، فإنه فيه مأجورٌ (٢٥).

٤) ومنها: ما ورد في كامل الزيارات، عن مسمع بن عبد الملك كردين البصري، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا مسمع، أنت من أهل العراق، أما تأتي قبر الحسين عليه السلام؟! قلتُ: لا، أنا رجلٌ مشهورٌ عند أهل البصرة، وعندنا من يتبع هوى هذا الخليفة، وعدونا كثيرٌ من أهل القبائل من التصاب وغيرهم، ولست آمنهم أن يرفعوا حالي عند ولد سليمان فيمثلون بي. قال لي عليه السلام: أفما تذكر ما صنع به - يعني الحسين عليه السلام -؟! قلتُ: نعم. قال: فتجزع؟! قلتُ: إي والله، وأستعبر لذلك حتى يرى أهلي أثر ذلك عليّ، فأمتنع من الطعام حتى يستبين ذلك في وجهي. قال عليه السلام: رحم الله دمعك، أما إنك من الذين يعدون من أهل الجزع لنا، والذين يفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا، ويخافون لخوفنا، ويأمنون إذا آمننا، أما إنك سترى عند موتك حضور آبائي لك، ووصيتهم ملك الموت بك، وما يلقونك به من البشارة أفضل، وملك الموت أرقّ عليك، وأشد رحمةً لك من الأمّ الشفيقة على ولدها. قال: ثم استعبر، واستعبرتُ معه، فقال عليه السلام: الحمد لله الذي فضّلنا على خلقه بالرحمة،

وخصنا أهل البيت بالرحمة، يا مسمع، إن الأرض والسماء لتبكي منذ قُتل أمير المؤمنين عليه السلام رحمةً لنا، وما بكى لنا من الملائكة أكثر، وما رقأت دموع الملائكة منذ قُتلنا، وما بكى أحدٌ رحمةً لنا، ولما لقينا، إلا رحمة الله قبل أن تخرج الدمعة من عينه ^(٢٦).

٥) ومنها: ما رواه الشيخ الصدوق في ثواب الأعمال، عن بكر بن محمد الأزدي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تجلسون وتتحدثون؟! قال: قلت: جعلت فداك، نعم. قال عليه السلام: إن تلك المجالس أحبها، فأحيوا أمرنا، إنّه من ذكّرنا، وذُكرنا عنده، فخرج من عينه مثل جناح الذبابة، غفر الله ذنوبه، ولو كانت أكثر من زبد البحر ^(٢٧).

٦) ومنها: ما ذكره الشيخ الصدوق في الخصال، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: البكاؤون خمسة: آدم، ويعقوب، ويوسف، وفاطمة بنت محمد، وعلي بن الحسين عليه السلام، فأما آدم فبكى على الجنة حتى صار في خديه أمثال الأودية، وأما يعقوب فبكى على يوسف حتى ذهب بصره، وحتى قيل له: ﴿تَاللّٰهِ تَفْتَنُوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتّٰى تَكُوْنَ حَرَضًا أَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهَالِكِيْنَ﴾، وأما يوسف فبكى على يعقوب حتى تأذى به أهل السجن، فقالوا له: إما أن تبكي الليل، وتسكت بالنهار، وإما أن تبكي النهار، وتسكت بالليل، فصالحهم على واحدٍ منهما، أمّا فاطمة فبكت على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تأذى بها أهل المدينة - بمعنى أنهم أشفقوا عليها لكثرة بكائها -، فقالوا لها: قد آذيتنا بكثرة بكائك. فكانت تخرج إلى المقابر - مقابر الشهداء -، فتبكي حتى تقضي حاجتها، ثم تنصرف، وأمّا علي بن الحسين فبكى على الحسين عليه السلام عشرين سنة، أو أربعين سنة، ما وضع بين يديه طعاماً إلا بكى، حتى قال له مولى له: جعلت فداك، يا ابن رسول الله، إنّي أخاف عليك أن تكون من الهالكين، قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إنّي ما أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني لذلك عبرة ^(٢٨).

٧) ومنها: ما رواه الشيخ الطوسي في المصباح، عن علقمة، عن أبي جعفر عليه السلام -
 - في حديث زيارة الحسين عليه السلام يوم عاشوراء - قال عليه السلام: ثم ليندب الحسين عليه السلام،
 ويبكيه، ويأمر من في داره - ممن لا يتقيه - بالبكاء عليه، ويقوم في داره المصيبة
 بإظهار الجزع عليه، وليعزّز بعضهم بعضاً بمصابهم بالحسين عليه السلام، وأنا الضامن لهم إذا
 فعلوا ذلك على الله تعالى جميع ذلك. قلت: جعلتُ فداك، أنت الضامن ذلك لهم
 والزعيم؟! قال عليه السلام: أنا الضامن، وأنا الزعيم لمن فعل ذلك. قلت: فكيف يعزّي
 بعضنا بعضاً؟ قال عليه السلام: تقولون: أعظم الله أجورنا بمصابنا بالحسين، وجعلنا
 - وإياكم - من الطالبين بثاره مع وليه الإمام المهدي من آل محمد عليه السلام. وإن استطعت
 أن لا تنتشر يومك في حاجة فافعل، فإنّه يوم نحس، لا تُقضى فيه حاجة مؤمن، فإن
 قضيت لم يبارك، ولم يرَ فيها رشداً، ولا يدخرن أحدكم لمنزله فيه شيئاً، فمن ادّخر
 في ذلك اليوم شيئاً لم يبارك له فيما ادّخره، ولم يبارك له في أهله ^(٢٩).

٨) ومنها: ما في السرائر للحلبي، نقلاً من كتاب «العيون والحاسن» للمفيد، عن
 خيثمة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أبلغ موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله، والعمل
 الصالح، وأن يعود صحيحهم مريضهم، وليعد غنيهم على فقيرهم، وأن يشهد حييهم
 جنازة ميتهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم، وأن يتفاوضوا علم الدين، فإن ذلك حياة
 لأمرنا، رحم الله عبداً أحبى أمرنا، وأعلمهم يا خيثمة أننا لا نغني عنهم من الله شيئاً
 إلا بالعمل الصالح، فإن لا يتنا لا تُنال إلا بالورع، وإن أشد الناس عذاباً يوم القيامة
 من وصّف عدلاً ثم خالفه إلى غيره ^(٣٠).

ما ورد من طريق مدرسة أهل السنة والجماعة:

١) منها: ما أورده الطبري في تاريخه، قال: أقبل الحسين بن علي بأهله من مكة،
 ومحمد بن الحنفية بالمدينة، قال: فبلغه خبره وهو يتوضأ في طست، قال: فبكى
 حتى سُمعت وكف دموعه في الطست ^(٣١).

٢) ومنها: ما رواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، عن شهر بن حوشب، قال: أنا لعند أم سلمة زوج النبي ﷺ، قال: فسمعنا صارخة، فأقبلت حتى انتهيت إلى أم سلمة، فقالت: قُتل الحسين. قالت: قد فعلوها ملأ الله بيوتهم - أو قبورهم - عليهم ناراً. ووقعت مغشياً عليها، وقمنا^(٣٢).

٣) ومنها: ما رواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق أيضاً، عن زبيد الإيامي، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة، أنها قالت لجارية: أخرجي فخبريني. قال: فرجعت الجارية، فقالت: قُتل الحسين. فشهقت شهقة غُشي عليها، ثم أفقت، فاسترجعت، ثم قالت: قتلوه قتلهم الله، قتلوه أذلم الله، قتلوه أخزاهم الله، ثم أنشأت تحدث، قالت: رأيت رسول الله ﷺ على السرير - أو على هذا الدكان -، فقال: ادعوا إلي أهلي، وأهل بيتي، ادعوا إلي الحسن، والحسين، وعلياً، فقالت أم سلمة: يا رسول الله، أو لست من أهل بيتك؟! قال: وأنت في خير، وإلى خير. فقال: اللهم هؤلاء أهلي، وأهل بيتي، أذهب عنهم الرجس أهل البيت، وطهرهم تطهيراً^(٣٣).

٤) ومنها: ما أورده البلاذري في أنساب الأشراف، قال: ولما بلغ أهل المدينة مقتل الحسين، كثرت النوائح والصوارخ عليه، واشتدَّت الواعية في دور بني هاشم، فقال عمرو بن سعيد الأشدق: واعية بواعية عثمان، وقال مروان حين سمع ذلك: عجت نساء بني زبيدة عجة كعجيج نسوتنا غداة الأرنب^(٣٤).

٥) ومنها: ما أورده أحمد بن محمد الخوافي الشافعي في التبر المذاب، قال الزهري: لما بلغ الحسن البصري الكوفة قتل الحسين، بكى حتى اختلج صدغاه، ثم قال: وأذل أمة قتل ابن بنت نبيها دعيها، والله ليردن رأس الحسين إلى جسده، ثم لينتقم له جدّه، وأبوه من ابن مرجانة، ويزيد^(٣٥).

٦) ومنها: ما رواه الطبراني في المعجم الكبير، عن أم سلمة، قالت: سمعتُ الجن تنوح على الحسين^(٣٦).

وقال الهيثمي معقّباً على هذا الخبر بعد أن أورده في مجمع الزوائد: رواه الطبراني،
ورجاله رجال الصحيح^(٣٧).

ثالثاً: إنشاد الشعر:

لا يخفى ما للشعر والشعراء من دورٍ كبيرٍ في تخليد الوقائع، وتوجيه الرأي العامّ
للتفاعل الوجدانيّ مع الحدث بكلّ تفاصيله، من خلال القوالب الشعرية الزاهية
بالأدب العربيّ الراقى، فلذا نرى بأنّ أهل البيت عليهم السلام كانوا يرغبون الشعراء إذا
دخلوا عليهم في إنشاد الشعر على مصاب الحسين عليه السلام، وأن يرثوه بما عندهم من
أبياتٍ حرصاً منهم عليهم السلام لتخليد نهضة الحسين عليه السلام، بكلّ ما تحمل هذه النهضة من
قيم إنسانيةٍ ومبادئ سماويةٍ.

وقد رواه الصدوق في كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام، في الصحيح عن عبد الله بن
الفضل الهاشمي، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: من قال فينا بيت شعر، بنى الله له بيتاً
في الجنة»^(٣٨).

ما ورد من طريق مدرسة أهل البيت عليهم السلام:

(١) منها: ما رواه محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي في كتاب: (الرجال)، عن
نصر بن الصباح، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن يحيى بن عمران، عن محمد بن
سنان، عن زيد الشحام - في حديث -: «إنّ أبا عبد الله عليه السلام قال لجعفر بن عفان
الطائي: بلغني أنّك تقول الشعر في الحسين عليه السلام، وتجدد؟! قال: نعم. فأنشده، فبكى
ومن حوله حتّى سالت الدموع على وجهه ولحيته، ثمّ قال عليه السلام: يا جعفر، والله لقد
شهدك ملائكة الله المقربون ههنا، يسمعون قولك في الحسين عليه السلام، ولقد بكوا كما
بكينا، وأكثر، ولقد أوجب الله لك يا جعفر في ساعتك الجنة بأسرها، وغفر لك،

فقال عليه السلام: ألا أزيدك؟! قال: نعم، يا سيدي. قال عليه السلام: ما من أحدٍ قال في الحسين عليه السلام شعراً فبكى وأبكى به، إلا أوجب الله له الجنة، وغفر له ^(٣٩).

٢) ومنها: ما رواه ابن قولويه في كامل الزيارات، قال: حدثنا أبو العباس القرشي، عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، عن محمد بن إسماعيل، عن صالح بن عقبة، عن أبي هارون المكفوف، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا هارون، أنشدني في الحسين عليه السلام. قال: فأنشدته. فبكى، فقال عليه السلام: أنشدني كما تنشدون - يعني بالرقعة - قال: فأنشدته:

امرؤ على جدت الحسين من فقل لأعظمه الزكية
قال: فبكى. ثم قال عليه السلام: زدني. قال: فأنشدته القصيدة الأخرى. قال: فبكى.
وسمعتُ البكاء من خلف الستر، قال: فلما فرغتُ قال لي عليه السلام: يا أبا هارون، من أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فبكى، وأبكى عشراً كُتبت له الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فبكى، وأبكى خمسة كُتبت له الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فبكى، وأبكى واحداً كُتبت لهما الجنة، ومن ذكر الحسين عليه السلام عنده، فخرج من عينه من الدموع مقدار جناح ذبابٍ، كان ثوابه على الله، ولم يرضَ له بدون الجنة ^(٤٠).

٣) ومنها: ما ذكره العلامة المجلسي في بحار الأنوار، حيث قال: رأيت في بعض مؤلفات المتأخرين أنه قال: حكى دعبل الخزاعي، قال: دخلتُ على سيدي ومولاي علي بن موسى الرضا عليه السلام في مثل هذه الأيام، فرأيتُه جالساً جلسة الحزين الكئيب، وأصحابه من حوله، فلما رأني مقبلاً قال لي: مرحباً بك يا دعبل، مرحباً بناصرنا بيده ولسانه، ثم إنه وسع لي في مجلسه، وأجلسني إلى جانبه، ثم قال لي عليه السلام: يا دعبل، أحبُّ أن تنشدني شعراً، فإن هذه الأيام أيام حزنٍ علينا

أهل البيت، وأيام سرورٍ كانتُ على أعدائنا، خصوصاً بني أمية، يا دعبل، من بكى وأبكى على مصابنا - ولو واحداً - كان أجره على الله، يا دعبل، من ذرفتُ عيناه على مصابنا، وبكى لما أصابنا من أعدائنا، حشره الله معنا في زمرتنا، يا دعبل، من بكى على مصاب جدِّي الحسين، غفر الله له ذنوبه البتة. ثمَّ إنَّه عليه السلام نهض، وضرب ستراً بيننا وبين حرمه، وأجلس أهل بيته من وراء الستر؛ ليبكوا على مصاب جدِّهم الحسين عليه السلام، ثمَّ التفت إليّ، وقال لي عليه السلام: يا دعبل، إرث الحسين، فأنت ناصرنا، ومادحنا ما دمت حيّاً، فلا تقصّر عن نصرنا ما استطعت. قال دعبل: فاستعبرتُ، وسالتُ عبرتي، وأنشأتُ أقول:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً وقد مات عطشاناً بشط فرات
إذا للظمت الخد فاطم عنده وأجريت دمع العين في الوجنات^(٤١)

رثاء ابن الجوزي للإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء:

قال ابن كثير في ترجمته لابن الجوزي: وقد سئل - أي ابن الجوزي - في يوم عاشوراء، زمن الملك الناصر صاحب حلب، أن يذكر للناس شيئاً من مقتل الحسين، فصعد المنبر، وجلس طويلاً لا يتكلّم، ثمَّ وضع المنديل على وجهه، وبكى شديداً، ثمَّ أنشأ يقول وهو يبكي:

ويل لمن شفاؤه خصماؤه والصور في نشر الخلائق ينفخ
لا بد أن ترد القيامة فاطم وقميصها بدم الحسين ملطخ
ثمَّ نزل عن المنبر، وهو يبكي^(٤٢).

رثاء الجنّ للإمام الحسين عليه السلام برواية ابن عساكر:

قال ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: أخبرنا أبو السعود بن المجلي... - إلى أن قال -: عن أم سلمة قالت: سمعتُ الجنّ تنوح على الحسين يوم قُتل وهنّ يقلن:

أيها القاتلون ظلماً حسيناً أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم من نبيٍّ ومرسلٍ وقتيلٍ
قد لُعنتم على لسان ابن داود وموسى وصاحب الإنجيل^(٤٣)
وقد روى الخوارزمي في مقتل الحسين خبر رثاء الجن عن أم سلمة برواية
أخرى^(٤٤). وقد ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية^(٤٥).

رابعاً: لبس السواد:

من الواضح أن في اللباس - بما يشتمل عليه من ألوان - إيجاءات، قد تكون أبلغ
من الكلمات في إيصال المطلوب، باعتبار أنها تعبيرٌ عن انعكاسٍ يحاكي خفايا النفس
في شخصية الإنسان من فرح، أو حزن.
ومن هذا المنطلق نرى بأن الشارع المقدس قد أوجب الحداد على المرأة المتوفى
عنها زوجها، والذي هو عبارة عن ترك الزينة في البدن واللباس بما يراه العرف العام،
كلبس الذهب، والحلي، واستعمال الكحل للزينة، والتجمل، ولبس الثياب الصفراء،
أو الحمراء إذا عُدت زينةً بنظر العرف.

وكذا الحال بالنسبة لمصاب الإمام الحسين عليه السلام، فإن في لبس المؤمنين الثياب
السوداء - حزناً وحداداً على سبط رسول الله صلى الله عليه وآله، الإمام الحسين عليه السلام، وما جرى
عليه من مصاب - إظهاراً للمودة والمحبة لأهل البيت عليهم السلام، التي أمرنا بها القرآن
الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٤٦)، وإحياء
لأمرهم عليهم السلام بإظهار الحزن في أحزانهم، ولبس السواد يعتبر من مصاديق الإحياء،
فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في وصيته لحيثمة: «رحم الله من أحيا أمرنا»^(٤٧).

وقد ورد في محاسن البرقي، بسنده عن عمر بن علي بن الحسين عليه السلام، قال: لما
قُتل الحسين بن علي عليه السلام لبس نساء بني هاشم السواد والمسوح، وكن لا يشتكين

من حرّاً ولا برد، وكان عليّ بن الحسين يعمل لهنّ الطعام للمأتمّ^(٤٨). وفي هذا الخبر دلالة على تقرير المعصوم عليه السلام.

وذكر ابن أبي الحديد المعتزليّ في شرح نهج البلاغة - نقلاً عن المدائنيّ -: وكان خرج الحسن بن عليّ إليهم - أي: إلى الناس بعد شهادة أبيه - وعليه ثيابٌ سود^(٤٩).

وأما بالنسبة للروايات التي دلّت على كراهة لبس السواد في خصوص الصلاة، أو التي دلّت على كراهة لبس السواد مطلقاً حتّى في غير حال الصلاة، فهي إمّا رواياتٌ غير نقيّة السند، أو رواياتٌ غير تامّة الدلالة على كراهة لبس السواد، علماً بأنّ هذه الكراهة مبنية على القول بقاعدة التسامح في أدلّة السنن، وأنّ هذه القاعدة تشمل الكراهة إضافة لشمولها الاستحباب، وعلى فرض تمامية هذه الدعوى، نقول:

أولاً: الكراهة في المقام بالنسبة للصلاة، ليست بالمعنى الاصطلاحيّ الذي هو بمعنى رجحان الترك، فإنّ الكراهة في العبادات - بهذا المعنى الاصطلاحيّ للكراهة - غير معقولة، بل هي مستحيلة؛ لعدم إمكان اجتماع المبعوضيّة والمقربيّة في شيء عباديٍّ واحد^(٥٠)، فالنهي عن لباسه في الصلاة، إرشادٌ إلى أنّ الصلاة في اللباس الأسود أقلّ ثواباً.

ثانياً: الروايات التي أفادت استحباب إظهار الحزن على الإمام الحسين عليه السلام فاقت حدّ التواتر، ولبس السواد من مصاديق إظهار الحزن، فلا يبعد تخصيص إطلاق الروايات الدالّة على الكراهة، بعموم الروايات الدالّة على استحباب إظهار الحزن والحداد على مصاب الإمام الحسين عليه السلام، قال صاحب الحقائق، الشيخ يوسف البحرانيّ: لا يبعد استثناء لبس السواد في مأتمّ الحسين عليه السلام من هذه الأخبار؛ لما استفاضت به الأخبار من الأمر بإظهار شعائر الأحران^(٥١).

خامساً: زيارة الحسين عليه السلام:

أكد أهل البيت عليهم السلام في ضمن المئات من الروايات الواردة عنهم عليهم السلام على زيارة الإمام الحسين عليه السلام، وشدّ الرحال إلى قبره الشريف؛ لما فيه من الفضل والكرامة، وقد جمعت هذه الروايات من قبل العلماء الأعلام، وأُفردت في كتبٍ خاصّة، اشتملتُ على جملةٍ من الأمور المتعلّقة بزيارة الإمام الحسين عليه السلام، كما هو الحال في كتاب كامل الزيارات لجعفر بن محمد بن قولويه، وقد ذكر بعضَها الخوارزميُّ أيضاً في مقتل الحسين عليه السلام.

ما ورد من طريق مدرسة أهل البيت عليهم السلام:

أورد ابن قولويه في كتاب كامل الزيارات الكثير من الروايات في فضل زيارة الإمام الحسين عليه السلام، وثواب من زاره في الدنيا والآخرة.

(١) منها: عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: لو يعلم الناس ما في زيارة الحسين عليه السلام من الفضل، لماتوا شوقاً، وتقطّعتْ أنفسهم عليه حسراتٍ، قلتُ: وما فيه؟ قال عليه السلام: من أتاه تشوقاً كتب الله له ألف حجّة متقبلة، وألف عمرة مبرورة، وأجر ألف شهيدٍ من شهداء بدر، وأجر ألف صائم، وثواب ألف صدقة مقبولة، وثواب ألف نسمة أريد بها وجه الله، ولم يزل محفوظاً سنته من كل آفة، أهونها الشيطان، ووكلّ به ملكٌ كريمٌ يحفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوق رأسه، ومن تحت قدمه، فإن مات سنته حضرته ملائكة الرحمة، يحضرون غسله، وأكفانه، والاستغفار له، ويشيّعونه إلى قبره بالاستغفار له، ويفسح له في قبره مدّ بصره، ويؤمنه الله من ضغطة القبر، ومن منكرٍ ونكيرٍ أن يروّعانه، ويفتح له باب إلى الجنة، ويعطى كتابه بيمينه، ويعطى له يوم القيامة نوراً

يضئ لنوره ما بين المشرق والمغرب، وينادي منادٍ هذا من زوّار الحسين شوقاً إليه، فلا يبقى أحدٌ يوم القيامة إلاّ تمنى يوماً أنّه كان من زوّار الحسين عليه السلام (٥٢).

٢) ومنها: عن معاوية بن وهب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي عليه السلام: يا معاوية، لا تدع زيارة الحسين عليه السلام لخوف، فإنّ من تركه رأى من الحسرة ما يتمنى أنّ قبره كان عنده، أما تحبّ أن يرى الله شخصك وسوادك فيمن يدعو له رسول الله صلى الله عليه وآله، وعليّ، وفاطمة، والأئمّة عليهم السلام؟! أما تحبّ أن تكون ممّن ينقلب بالمغفرة لما مضى، ويغفر لك ذنوب سبعين سنة؟! أما تحبّ أن تكون ممّن يخرج من الدنيا وليس عليه ذنبٌ تتبع به؟! أما تحبّ أن تكون غداً ممّن يصافحه رسول الله صلى الله عليه وآله؟! (٥٣)

٣) ومنها: عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أين زوّار الحسين بن عليّ؟! فيقوم عنقٌ من الناس، لا يحصيهم إلاّ الله تعالى، فيقول لهم: ما أردتم بزيارة قبر الحسين عليه السلام؟! فيقولون: يا ربّ، أتيناها حبّاً لرسول الله صلى الله عليه وآله، وحبّاً لعليّ عليه السلام، وفاطمة عليها السلام، ورحمةً له ممّا ارتكب منه. فيقال لهم: هذا محمّدٌ، وعليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، فالحقوا بهم، فأنتم معهم في درجاتهم، الحقوا بلواء رسول الله. فينطلقون إلى لواء رسول الله صلى الله عليه وآله، فيكونون في ظلّه، واللواء في يد عليّ عليه السلام، حتّى يدخلون الجنّة جميعاً، فيكونون أمام اللواء، وعن يمينه، وعن يساره، ومن خلفه (٥٤).

٤) ومنها: عن هارون بن خارجة، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سمعته يقول: وكلّ الله بقبر الحسين عليه السلام أربعة آلاف ملك شعثاً غبراً، يبيّونه إلى يوم القيامة، فمن زاره عارفاً بحقه شيعوه حتّى يبلغوه مأمنه، وإن مرض عادوه غدوةً وعشيّةً، وإن مات شهدوا جنازته، واستغفروا له إلى يوم القيامة (٥٥).

استحباب زيارة الحسين عليه السلام من بعيدٍ وقريبٍ:

قد لا يتمكن الإنسان المؤمن من زيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام عن قرب، والتي هي من المستحبات الأكيدة، فلا ينبغي أن يترك زيارته عليه السلام عن بعدٍ، وقد وردت في استحباب زيارته من بعيد عدة نصوصٍ.

(١) منها: ما رواه الكليني بسنده عن الحسين بن ثوير، قال: كنتُ أنا، ويونس بن ظبيان، والمفضل بن عمر، وأبو سلمة السراج جلوساً عند أبي عبد الله عليه السلام، وكان المتكلم منا يونس، وكان أكبرنا سنّاً، فقال له: جُعِلت فداك، إني أحضر مجلس هؤلاء القوم - يعني ولد العباس - فما أقول؟ فقال عليه السلام: إذا حضرت فذكرتنا فقل: «اللهم أرنا الرخاء والسرور». فإتكَ تأتي على ما تريد، فقلتُ: جُعِلت فداك، إني كثيراً ما أذكر الحسين عليه السلام، فأبيّ شيءٍ أقول؟ فقال عليه السلام: قل: «صلى الله عليك يا أبا عبد الله»، تعيد ذلك ثلاثاً، فإنّ السلام يصل إليه من قريبٍ ومن بعيدٍ ^(٥).

(٢) ومنها: ما أورده الصدوق من رواية حنان بن سدير، عن أبيه قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «يا سدير، تزور قبر الحسين عليه السلام في كلِّ يومٍ؟ قلتُ: جُعِلت فداك، لا. قال عليه السلام: ما أجفاكم، فتزوره في كلِّ شهرٍ؟ قلتُ: لا. قال عليه السلام: فتزوره في كلِّ سنةٍ؟ قلتُ: قد يكون ذلك. قال عليه السلام: يا سدير، ما أجفاكم للحسين عليه السلام، أما علمت أن الله - تبارك وتعالى - ألف ألف ملكٍ شعثٍ غبرٍ، يبكون، ويزورون، ولا يفترون؟! وما عليك يا سدير أن تزور قبر الحسين عليه السلام في كلِّ جمعةٍ خمس مرّاتٍ، أو في كلِّ يومٍ مرّةً؟! قلتُ: جُعِلت فداك، بيننا وبينه فراسخ كثيرة. فقال لي عليه السلام: اصعد فوق سطحك، ثمّ التفتُ يمنةً ويسرةً، ثمّ ارفع رأسك إلى السماء، ثمّ تنحو نحو القبر فتقول: «السلام عليك يا أبا عبد الله، السلام عليك ورحمة الله وبركاته»، تكتب لك بذلك

زورة، والزورة حجةً وعمره. قال سدير: فرمبا فعلتُ ذلك في الشهر أكثر من عشرين مرة»^(٥٧).

٣) ومنها: ما رواه الطوسي بسنده عن صالح بن عقبة، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «من زار الحسين بن علي عليهما السلام في يوم عاشوراء من المحرم حتى يظلّ عنده باكياً، لقي الله عز وجل يوم يلقاه بثواب ألفي حجة، وألفي عمرة، وألفي غزوة، ثواب كل غزوة وحجة وعمرة كثواب من حجّ واعتمر وغزى مع رسول الله صلى الله عليه وآله، ومع الأئمة الراشدين. قال: قلتُ: جعلتُ فداك، فما لمن كان في بعيد البلاد وأقاصيه، ولم يمكنه المصير إليه في ذلك اليوم؟ قال عليه السلام: إذا كان كذلك برز إلى الصحراء، أو صعد سطحاً مرتفعاً في داره، وأوماً إليه بالسلام، واجتهد في الدعاء على قاتله، وصلى من بعد ركعتين، وليكن ذلك في صدر النهار، قبل أن تزول الشمس. ثم ذكر زيارةً طويلةً، ثم قال عليه السلام: وإن استطعت أن تزوره كل يوم من دارك بهذه الزيارة فافعل»^(٥٨).

ما ورد من طريق مدرسة أهل السنة والجماعة:

١) منها: ما رواه الخوارزمي في مقتل الحسين، حيث قال: أخبرنا الشيخ الفقيه أبو بكر بن نصر الزاغوني... - إلى أن قال -:- سئل جعفر بن محمد عن زيارة قبر الحسين، فقال: «أخبرني أبي أن من زار قبر الحسين عارفاً بحقه، كتبه الله في عليين. وقال: إن حول قبر الحسين سبعين ألف ملك شعثاً غبراً، يبكون عليه إلى يوم القيامة»^(٥٩).

وقال محبّ الدين الطبري بعد أن ذكر الخبر: خرّجه أبو الحسن العتيقي^(٦). وذكر هذا الخبر - أيضاً - الجويني في فرائد السمطي^(٦).

٢) ومنها: ما رواه الخوارزمي أيضاً في مقتل الحسين، حيث قال: أخبرنا العلامة فخر خوارزم أبو القاسم، محمود بن عمر الزمخشري... - إلى أن قال -: حدثني عبيد بن يحيى بن مهران، عن محمد، عن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عن آبائه، عن جده، عن علي بن أبي طالب، قال: «زارنا رسول الله، فعملنا له حريرةً، وأهدت لنا أمّ أيمن قعباً من لبن، وزبداءً، وصفحة تمر، فأكل النبي، وأكلنا معه، فتوضأ رسول الله، ثمّ قام، واستقبل القبلة، فدعا الله ما شاء، ثمّ أكبّ إلى الأرض بدموع غزيرةٍ مثل المطر، فهبنا رسول الله أن نسأله، فوثب الحسين، فقال: يا أبتى، رأيتك تصنع ما لم أرك تصنع مثله! قال: يا بني، إني سررت بكم اليوم سروراً لم أسرّ بكم مثله، وإنّ حبيبي جبرئيل أتاني، وأخبرني أنّكم قتلى، وأنّ مصارعكم شتى، فدعوتُ الله لكم، وأحزنتني ذلك. قال الحسين: يا رسول الله، فمن يزورنا على تشنتنا، ويتعاهد قبورنا؟ فقال: طائفةٌ من أمّتي، يريدون برّي وصلتي، فإذا كان يوم القيامة زرتّها، فأخذتُ بأعضادها، فأنجيتها من أهواله وشدائده» (٦١).

٣) ومنها: ما رواه ابن المغازلي بإسناده عن فضيل بن يسار، قال: قيل لأبي عبد الله: أيّ قبور الشهداء أفضل؟ قال: «أوّ ليس أفضل الشهداء عندك الحسين؟! فالذي نفسي بيده، إنّ حول قبره أربعين ألف ملك، شعثاً غبراً، يبكون عليه إلى يوم القيامة» (٦٢).

الممارسات العاشورائية المستجدة:

هناك من الممارسات العاشورائية ما هو منصوصٌ عليه من قبل أهل البيت عليهم السلام، كالبكاء، والزيارة مثلاً، وهناك بعضٌ آخر من الممارسات المستجدة التي تتناغم مع التطور، وتواكب الإبداع، كالمرح، والتمثيل، حيث لم يرد فيها نصٌ بخصوصها، فلا

بدّها من ضابطةٍ شرعيّةٍ تكتسب من خلالها تلك الحيثيّة، بحيث تجعلها أداةً من الممكن أن تساهم في إيصال رسالة الإمام الحسين عليه السلام في نهضة عاشوراء.

والضابطة الشرعية للممارسات العاشورائيّة المستجدة تتلخّص في أمرين:

(١) أن تعبّر تلك الممارسة عن حالة الحزن والأسى بما ينسجم مع العرف العامّ، تعظيماً لمقام أهل البيت عليه السلام بشكلٍ عامّ، ولمقام الإمام الحسين عليه السلام على وجه الخصوص، فأحداث الضرر المعتدّ به على النفس - عرفاً وشرعاً - لا يمثّل تعبيراً عرفياً عن الحزن والأسى، بل هو من المحرّمات.

(٢) أن تتركز تلك الممارسة على الأبعاد الاعتقاديّة، والفكريّة الإسلاميّة الممزوجة بالقيم المعنويّة، والمحتوى الإنسانيّ الراقى، الذي يتناسب مع مقام أهل البيت عليه السلام، بحيث لا تستلزم الهتك، ولا تؤدّي إلى إدخال الوهن على مذهب أهل البيت عليه السلام.

والمتحصّل من ذلك: أن كلّ فعلٍ ثبت بالدليل إباحته شرعاً، ومناسبته عرفاً للحزن على مصاب الإمام الحسين عليه السلام، فهو ممّا يصح ممارسته في مقام التعبير عن الحزن والأسى على الإمام الحسين عليه السلام، وإلاّ فلا يجوز، ومع الشكّ في ذلك، فلا بد من إحراز راجحيّة تلك الممارسات، ولو على أساس تعنونها بعنوانٍ راجحٍ لا يزاومه عنوانٌ محرّمٌ؛ باعتبار أن الإحياء من الأمور التبعديّة التي تتوقّف على قصد القرية إلى الله سبحانه وتعالى، فلا يُطاع الله من حيث يُعصى.

والحمد لله ربّ العالمين.

المواضع:

(١) أمالي الصدوق، الشيخ الصدوق، ص ١١١.

(٢) مصباح المتهجّد، الشيخ الطوسي، ص ٥٤٧.

- (٣) المستدرك، الحاكم النيسابوري، ج ٣، ص ١٧٦.
- (٤) الحسين في الفكر المسيحي، أنطون بارا، ص ٢١.
- (٥) الحسين في الفكر المسيحي، أنطون بارا، ص ٧٢.
- (٦) جملة من مصادر أهل السنة والجماعة، لاحظ: شرح إحقاق الحق المرعشي، ج ٩، ص ٤٦٧.
- (٧) ترجمة الإمام الحسين عليه السلام، ابن عساكر، ص ١١٤.
- (٨) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج ٣، ص ٢٤١.
- (٩) سورة المائدة، الآيات: ٨٢-٨٣-٨٤.
- (١٠) سورة التوبة، الآية: ٩٣.
- (١١) سورة يوسف عليه السلام، الآيات: ٨٤-٨٥-٨٦.
- (١٢) كامل الزيارات، ابن قولويه، ص ٢٠١.
- (١٣) كامل الزيارات، ابن قولويه، ص ١٦٩.
- (١٤) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ١٩٣.
- (١٥) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج ٣، ص ٣٠٣.
- (١٦) سنن الترمذي، ج ٥، ص ٣٢٣.
- (١٧) مستدرك الحاكم، الحاكم النيسابوري، ج ٤، ص ١٩.
- (١٨) المعجم الكبير، الطبراني، ج ٣، ص ١٠٩.
- (١٩) مجمع الزوائد، الميثمي، ج ٩، ص ١٨٨.
- (٢٠) دلائل النبوة، أبو نعيم الإصبهاني، ج ٣، ص ٢١١.
- (٢١) تاريخ دمشق، ابن عساكر، ج ١٤، ص ٢١١.
- (٢٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ج ١٤، ص ٢٠٢.

- (٢٣) الكافي، الكليني، ج ٨، ص ٢١٥.
- (٢٤) الكافي، الكليني، ج ١، ص ٤٦٦.
- (٢٥) كامل الزيارات، جعفر بن محمد بن قولويه، ص ٢٠١.
- (٢٦) كامل الزيارات، جعفر بن محمد بن قولويه، ص ٢٠٦.
- (٢٧) ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق، ص ١٨٧.
- (٢٨) الخصال، الشيخ الصدوق، ص ٢٧٢.
- (٢٩) مصباح المتهدد، الطوسي، ص ٧٧٣.
- (٣٠) مستطرفات السرائر، ابن إدريس الحلبي، ص ٦٤٩.
- (٣١) تاريخ الطبري، الطبري، ج ٣، ص ٣٠١.
- (٣٢) تاريخ دمشق، ابن عساکر، ج ١٤، ص ٢٣٨.
- (٣٣) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساکر، ج ١٤، ص ١٤٠.
- (٣٤) أنساب الأشراف، البلاذري، ج ٢، ص ٤١٧.
- (٣٥) التبر المذاب، الخوافي الشافعي، ص ٩١.
- (٣٦) المعجم الكبير، الطبراني، ج ٣، ص ١٢٢.
- (٣٧) مجمع الزوائد، الهيثمي، ج ٩، ص ١٩٩.
- (٣٨) عيون أخبار الرضا، الصدوق، ج ٢، ص ١٥.
- (٣٩) رجال الكشي، ص ٢٨٩.
- (٤٠) كامل الزيارات، ابن قولويه، ص ٢٠٨.
- (٤١) بحار الأنوار، المجلسي، ج ٤٥، ص ٢٥٧.

- (٤٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ج ١٣، ص ٢٢٦.
- (٤٣) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ج ١٤، ص ٢٤٠.
- (٤٤) مقتل الحسين عليه السلام، الخوارزمي، ج ٢، ص ١٠٧.
- (٤٥) البداية والنهاية، ابن كثير، ج ٨، ص ٢١٩.
- (٤٦) سورة الشورى، الآية: ٢٣.
- (٤٧) مستطرفات السرائر، ابن إدريس الحلبي، ص ٦٢٥.
- (٤٨) المحاسن، البرقي، ص ٤٢٠، حديث ١٩٥.
- (٤٩) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٢٢.
- (٥٠) رسالة مختصرة في لبس السواد، الشيخ جواد التبريزي، ص ٦٢.
- (٥١) الحدائق الناضرة، الشيخ يوسف البحراني، ج ٧، ص ١١٨.
- (٥٢) كامل الزيارات، ابن قولويه، ص ٢٧١.
- (٥٣) كامل الزيارات، ابن قولويه، ص ٢٣٠.
- (٥٤) كامل الزيارات، ابن قولويه، ص ٢٦٩.
- (٥٥) كامل الزيارات، ابن قولويه، ص ٣٥٠.
- (٥٦) الكافي، الكليني، ج ٤، ص ٥٧٥.
- (٥٧) من لا يحضره الفقيه، الصدوق، ج ٢، ص ٥٩٩.
- (٥٨) مصباح المتهجد، الطوسي، ص ٧٧٣.
- (٥٩) مقتل الحسين عليه السلام، الخوارزمي، ج ٢، ص ١٩٢.
- (٦٠) ذخائر العقبى، محب الدين الطبري، ص ١٥١.

- (٦١) فرائد الصمطين، الجويني، ج ٢، ص ١٧٤.
- (٦٢) مقتل الحسين عليه السلام، الخوارزمي، ج ٢، ص ١٨٩.
- (٦٣) مناقب ابن المغازلي، ص ٣٩٧.

جلاء الحين

في حكم صوم العاشورائين

محمد عليّ العربيّ

قال صاحب الحقائق (عطر الله مرقده) عند ذكره للصوم المندوب: «ومنها صوم يوم عاشوراء على وجه الحزن، كذا قيده جملةً من الأصحاب، وكأثمهم جعلوا ذلك وجه جمع بين الأخبار الواردة في صومه أمراً ونهياً»^(١). وروى الشيخ في التهذيب صحيحاً عن عليّ بن الحسن بن فضال، عن هارون بن مسلم، عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليه السلام: «أنّ عليّاً عليه السلام قال: صوموا العاشورا التاسع والعاشر؛ فإنّه يكفر ذنوب سنة»^(٢). إلّا أنّ السيّد ابن طاووس أوردته في كتابه الإقبال بإسناده إلى هارون بن مسلم، عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله عليه السلام، عن أبيه: «أنّ عليّاً عليه السلام قال: صوموا من عاشوراء التاسع والعاشر؛ فإنّه يكفر ذنوب سنة»^(٣). وفي الجعفريات بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام، قال: كان عليّ عليه السلام يقول: «صوموا يوم عاشوراء، التاسع والعاشر احتياطاً؛ فإنّه كفارةٌ للسنة التي قبله، وإن لم يعلم به أحدكم حتى يأكل فليتمّ صومه»^(٤). والظاهر أنّ الكلّ روايةٌ واحدةٌ.

وفي كتاب الإقبال، عن كتاب دستور المذكورين [عن المفيد في كتاب حدائق الرياض: خ ل]، بإسناده عن ابن عباس، قال: «إذا رأيت هلال محرّم فاعدد، فإذا

أصبحتَ من تاسعه فأصبحَ صائماً. قال: قلتُ: كذلك كان يصوم محمدٌ ﷺ؟ قال: نعم.»^(٥).

وفيما رواه الكليني في الكافي، عن الحسن بن علي الهاشمي، عن محمد بن الحسين، عن محمد بن سنان، عن أبان، عن عبد الملك، قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن صوم تاسوعا وعاشورا من شهر المحرم، فقال: «تاسوعا يومٌ حوَّصر فيه الحسين ﷺ، وأصحابه ﷺ بكربلا...، وأمّا يوم عاشورا فيومٌ أُصيب فيه الحسين ﷺ صريعاً بين أصحابه، وأصحابه صرعى حوله [عرة]، أفصومُ يكون في ذلك اليوم؟! كلا، وربّ البيت الحرام، ما هو يوم صوم، وما هو إلاّ يوم حزنٍ ومصيبة...، فمن صامه - أو تبرّك به - حشره الله مع آل زياد، ممسوخ القلب، مسخوط عليه... الحديث»^(٦).

وفي صحيح مسلم، عن الحسن بن علي الحلواني، حدّثنا ابن أبي مريم، حدّثنا يحيى بن أيوب، حدّثني إسماعيل بن أمية أنّه سمع أبا غطفان بن طريف المري يقول: سمعتُ عبد الله بن عباسٍ ﷺ يقول: حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء، وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله، إنّهُ يومٌ تعظّمه اليهود والنصارى. فقال رسول الله ﷺ: فإذا كان العام المقبل - إن شاء الله - صمنا اليوم التاسع. قال: فلم يأت العام المقبل حتّى تُوفّي رسول الله ﷺ»^(٧).

وعدم إتيان العام المقبل المراد منه نزول صيام شهر رمضان، وأمّا الوعد بصيام التاسع من العام المقبل، فلأنّه قد فات أول وقت الصيام المشروع لدى اليهود، كما سوف يتبيّن لك.

وفيه: وفي البخاريّ بسنده إلى ابن سعيد بن جبير، عن أبيه، عن ابن عباسٍ ﷺ: أنّ النبي ﷺ لما قدم المدينة، وجدّهم يصومون يوماً - يعنى

عاشوراء-، فقالوا: هذا يومٌ عظيمٌ، وهو يوم نَجَّى اللهُ فيه موسى، وأغرق آل فرعون، فصام موسى شكراً لله، فقال: أنا أولى بموسى منهم، فصامه، وأمر بصيامه»^(٨).
هذه جملةٌ من الأخبار التي ورد فيها صريحاً - أو ضمناً - ما يمكن بحثه في تحديد الموضوع له اسم (عاشوراء).

المقصود من يوم عاشوراء:

واتضح من السرد السابق للأخبار الشريفة أن التسمية دائرةٌ بين (عاشوراء) مجردةً عن لام التعريف، و(العاشوراء) محلاةٌ بها، كما في رواية مسعدة، والتي فيها «العاشورا التاسع والعاشر».

فهل الأصل في التسمية هو يوم العاشر من المحرم بخصوصه، وعُدِّي لليوم التاسع تغليباً لعلّة الصوم فيه؟! أو أن الأصل في التسمية هو مجموع اليومين، وأطلق على اليوم العاشر لجزئيته وسببته فيه؟! أو بوضع آخر لخصوصه؟! ثم هل يبتني على القول بكونه مجموع اليومين حرمة صومهما معاً لو كان دليلٌ دالٌّ على حرمة صوم عاشوراء؟! أو يجرم صوم خصوص نهار يوم عاشر من المحرم؟! وجوهٌ، تتبين ضمن تفاصيل البحث.

أقوال اللغويين:

* قال الفراهيديّ (ت ١٧٠ هـ) في العين:

والعِشر: ورد الإبل اليوم العاشر. وفي حسابهم: العِشر: التاسع...، ويجمع [العِشر] ويشئى، فيقال: عشرا، وعشرون، وكلّ عشر من ذلك: تسعة أيام...، والعرب تقول: سقينا الإبل رفهاً، أي: في كلّ يومٍ. وغباً: إذا أوردوا يوماً، وأقاموا في الرعي يوماً. وإذا أوردوا يوماً وأقاموا في الرعي يومين، ثمّ أوردوا اليوم الثالث قالوا: أوردنا ربعاً.

ولا يقولون: ثلثاً أبداً؛ لأنهم يحسبون يوم الورد الأوّل والآخِر، ويحسبون يومي المقام بينهما، فيجعلون ذلك أربعةً. فإذا زادوا على العشرة قالوا: أوردناها رفهاً بعد عشرٍ. قال الليث: قلتُ للخليل: زعمت أن عشرين جمع: عشر، والعشر: تسعة أيامٍ، فكان ينبغي أن يكون العِشرون سبعة وعشرين يوماً؛ حتى تستكمل ثلاثة أتساع. فقال الخليل: ثماني عشر يوماً عشراً، [ولمّا كان اليومان من العشر الثالث مع الثمانية عشر يوماً] سمّيته بالجمع، قلتُ: من أين جاز لك ذلك، ولم تستكمل الأجزاء الثلاثة؟ هل يجوز أن تقول للدرهمين ودانقين: ثلاثة دراهم؟! قال: لا أقيس على هذا، ولكن أقيسه على قول أبي حنيفة، ألا ترى أنّه قال: طَلَّقَهَا تَطْلِيقَتَيْنِ، وعشر تطليقة فهي ثلاث تطليقات، وليس من التطليقة الثالثة في الطلاق إلا عشر تطليقة، فكما جاز لأبي حنيفة أن يعتدّ بالعُشر، جاز لي أن أعتدّ باليومين... وعاشوراء: اليوم العاشر من محرّم، ويُقال: بل التاسع، وكان المسلمون يصومونه قبل فرض شهر رمضان»^(٩).

* وقال ابن منظور (ت ٧١١ هـ) في لسان العرب:

«والتاسوعاء: اليوم التاسع من المحرّم، وقيل: هو يوم عاشوراء. وأظنّه مولداً. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: لئن بقيتُ إلى قابل لأصومنّ التاسع، يعني عاشوراء، كأنّه تأوّل فيه عشر الورد أنّها تسعة أيامٍ، والعرب تقول: وردتُ الماء عشراً، يعنون يوم التاسع، ومن ههنا قالوا: عشرين، ولم يقولوا: عشرين؛ لأنّهما عشراً، وبعض الثالث، فجمع، فقيل: عشرين. وقال ابن بري: لا أحسبهم سمّوا عاشوراء تاسوعاء إلاّ على الأظماء، نحو: العشر؛ لأنّ الإبل تشرب في اليوم التاسع، وكذلك الخمس، تشرب في اليوم الرابع، قال ابن الأثير: إنّما قال ذلك كراهةً لموافقة اليهود؛ فإنّهم كانوا يصومون عاشوراء، وهو العاشر، فأراد أن يخالفهم ويصوم التاسع، قال: وظاهر الحديث يدلّ على خلاف ما ذكر الأزهريّ من أنّه عنى عاشوراء، كأنّه تأوّل فيه عشر ورد الإبل؛

لأنه قد كان يصوم عاشوراء، وهو اليوم العاشر، ثم قال: إن بقيتُ إلى قابل لأصومنّ تاسوعاء. فكيف يعد بصوم يومٍ قد كان يصومه؟!»^(١٠).

وقال في موضعٍ آخر:

«وعاشوراء، وعشورا - ممدودان - اليوم العاشر من المحرم، وقيل: التاسع. قال الأزهري: ولم يسمع في أمثلة الأسماء اسماً على فاعولاء إلا أحرف قليلة... وقد ألحق به تاسوعاء. ورؤي عن ابن عباس أنه قال في صوم عاشوراء: لئن سلمتُ إلى قابل لأصومنّ اليوم التاسع. قال الأزهري: ولهذا الحديث عدّة من التأويلات، أحدها أنه كره موافقة اليهود؛ لأنّهم يصومون اليوم العاشر. ورؤي عن ابن عباس أنه قال: صوموا التاسع، والعاشر، ولا تشبّهوا باليهود. قال: والوجه الثاني ما قاله المزني: يحتمل أن يكون التاسع هو العاشر. قال الأزهري: كأنه تأوّل فيه عشر الورد أنّها تسعة أيّام، وهو الذي حكاه الليث عن الخليل، وليس ببعيدٍ عن الصواب»^(١١).

* وزاد الزبيديّ (ت ١٢٠٥هـ) في تاج العروس:

«قلت: وقد صحّ الصاغانيّ هذا القول. والمراد بظاهر الحديث - يعني حديث ابن عباس المذكور - أنه قال: حين صام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم عاشوراء، وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله، إنّه يومٌ تعظّمه اليهود والنصارى، فقال: فإذا كان العام القابل صمنا اليوم التاسع. وفي رواية: إن بقيتُ إلى قابل لأصومنّ تاسوعاء، أي: فكيف يعد بصوم يومٍ قد كان يصومه؟! فتأمل. وقول الجوهريّ وغيره: إنّه مولدٌ. فيه نظر؛ فإنّ المولد هو اللفظ الذي ينطق به غير العرب من المحدثين، وهذه لفظةٌ وردت في الحديث الشريف، وقالها النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي هو أفصح الخلق، وأعرفهم بأنواع الكلام بوحى من الله الحقّ، فأئى يتصوّر فيها التوليد؟! أو يلحقها التنفيذ؟!»^(١٢).

وقال في موضعٍ سابق:

«والعاشوراء، قال شيخنا: قلتُ: المعروف تجرّده من «ال»، والعشوراء، ممدودان، ويقصران، والعاشور: عاشر المحرم، قال الأزهري: ولم يسمع في أمثلة الأسماء اسماً على فاعولاء إلاّ أحرفاً قليلة... وبه أول [إسماعيل بن يحيى] (٤) المزيّ الحديث: لأصومنّ التاسع، فقال: يحتمل أن يكون التاسع هو العاشر. قال الأزهري: كأنه تأوّل فيه عشر الورد أنّها تسعة أيّام، وهو الذي حكاه الليث عن الخليل، وليس ببعيدٍ عن الصواب» (١٣).

* وفي مجمع البحرين للطريحيّ (ت ١٠٨٥هـ):

«ويوم عاشوراء - بالمدّ، والقصر - وهو عاشر المحرم، وهو اسمٌ إسلاميٌّ، وجاء عشوراء بالمدّ مع حذف الألف التي بمدّ العين» (١٤). وكأنه تابع ابن أثيرٍ في النهاية في غريب الحديث (١٥).

* وتردّد الفيروزآباديّ (ت ٨١٧هـ) في معناه، فقال:

«والعاشوراء، والعشوراء، ويقصران، والعاشور: عاشر المحرم، أو: تاسعه... والعشر - بالكسر - : ورد الإبل اليوم العاشر، أو التاسع، ولهذا لم يُقل: عشرين. وقالوا: عشرين، جعلوا ثمانية عشر يوماً عشرين، والتاسعة عشر والعشرين طائفةً من الورد الثالث، فقالوا: عشرين. جمعه بذلك» (١٦).

فتبيّن أنّ بعض قدماء اللغويين قائلين - أو غير مستبعدين - لأنّ يكون عاشوراء بمعنى: تاسع محرم الحرام، وأنّ المتأخّرين منهم متردّدين في ذلك.

أما تاريخ التسمية بحسب السبر التاريخي والروائي:

فأقدم ما جاء فيه من طرقنا:

ما رواه الشيخ في التهذيب موثقاً، عن عليّ بن الحسن بن فضال، عن يعقوب بن يزيد، عن أبي همام، عن أبي الحسن عليه السلام، قال: «صام رسول صلّى الله عليه وآله يوم عاشوراء» (١٧).

لكنّها محمولةٌ على ما ورد من إيجاب صومه على المؤمنين قبل تشريع صوم شهر رمضان، كما يأتي.

وما رواه الشيخ كذلك في التهذيب عن أحمد بن محمد، عن البرقي، عن يونس بن هشام، عن حفص بن غياث، عن جعفر بن محمد عليه السلام، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله كثيراً ما ينفل يوم عاشوراء في أفواه أطفال المراضع من ولد فاطمة عليها السلام من ريقه، ويقول: لا تطعموهم شيئاً إلى الليل. وكانوا يروون من ريق رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: وكانت الوحش تصوم يوم عاشوراء على عهد داود عليه السلام» (١٨).

ولا يبعد أن يونس الذي يروي عنه البرقي هو يونس بن عبد الرحمن العلم المشهور؛ إذ لا وجود لشخص بهذا الاسم في أسانيد الأخبار بحسب التتبع، ومن يروي عنه البرقي باسم يونس عادة هو ابن عبد الرحمن، هذا مع أن نسخة الوسائل فيها عن البرقي، عن يونس بن هاشم، عن جعفر بن عثمان، وهو سندٌ غريبٌ كذلك؛ إذ يونس لو كان ابن عبد الرحمن فهو لا يروي عن جعفر بن عثمان الرواسي، وهذا الأخير منحصرة رواياته بنقل ابن أبي عمير.

وعلى كل حال، فهذه الرواية كسابقتها، محمولةٌ على ما ذكرنا آنفاً. ويدل على حملهما على الصوم قبل تشريع صيام شهر رمضان صحيحة زارة ومحمد بن مسلم جميعاً، أنّهما سألا أبا جعفر الباقر عليه السلام عن صوم يوم عاشوراء، فقال: «كان صومه قبل شهر رمضان، فلما نزل شهر رمضان تُرك» (١٩).

وليس في ما روي من هذا القبيل تحديداً لعاشوراء بأوسع من ليلتها، أو يومها. وأمّا رواية ابن عباس التي رواها السيد ابن طاووس، وقدّمنا بها صدر البحث، وفيها: «إذا رأيت هلال محرم فاعدد، فإذا أصبحت من تاسعه فأصبح صائماً، قال: قلت: كذلك كان يصوم محمد صلى الله عليه وآله؟ قال: نعم» (٢٠)، فلم ترد بطرق أصحابنا، والناظر

في كتب السيّد (طيّب الله ثراه) يعلم مقدار تسامحه في النقل، خاصّةً في مثل كتابه الإقبال.

نعم هي بطريق العامّة مرويةٌ بأكثر من طريقٍ إلى ابن عبّاس، وبنفس المضمون. إلاّ أنّها معارضةٌ برواياتٍ صريحةٍ على كونه يوم العاشر بخصوصه، أو مبهمة المعنى، مجملة.

على أنّه يمكن الإشكال على هذا الحديث بما هو معروفٌ من أنّ اليهود كانوا يعملون بالحساب الشمسيّ، وكانت العرب على القمريّ، فعاشوراء اليهود ليست متّفقةً مع عاشوراء المسلمين دائماً، وما ذكر في هذا الحديث وأمثاله إنّما هو تقليدٌ لعمل اليهود وعاشورائهم بتاسعه وعاشره، ولا علاقة لها بشهر محرّم الحرام، لا تاسعه، ولا عاشره^(٢١).

يدلّك عليه ما ذكره ابن الجاور في: (تاريخ المستبصر)، قال في تعداد الأشهر اليهوديّة:

«تشري، و مرحشون، و كسليو، و طيبث، و شفط، و آذار، و نيسن، و إير، و سيون، و تمز، و أوب، و إيلل، و يعمل على هذه الشهور جميع يهود الرابع المسكون». ثمّ قال:

«ما الكفور؟ هو: اليوم العاشر من تشري، وهذا ربما يسمّى العاشوراء، وأمّا الكفور فهو: من تكفير الذنوب، وهذا اليوم فقط هو الذي فرض على اليهود صومه، والقتل على من لا يصومه، ومدّة الصوم خمسةً وعشرون ساعةً، يبتدئ بها قبل غروب الشمس في اليوم التاسع، ويختم بمضيّ ساعةٍ بعد غروبها في اليوم العاشر، ولا يجوز أن يقع الكفور في يوم الأحد، ولا في يوم الثلاثاء، أو يوم الجمعة»^(٢٢).

ومن كلامه هذا يعلم ما في قول ابن الأثير أنّها اسمٌ إسلاميٌّ من التنبيه، على أنّ اليهود لم تكن تسميه عاشوراء.

وفيه تنبيهٌ كذلك على أنّ تسميته بعاشوراء عربياً - أو غيرها - تسميةٌ لجزءٍ يسيرٍ من التاسع وتام العاشر منه، لا مجموع اليومين التاسع والعاشر كاملين، فغلب العاشر على التاسع في الإطلاق.

ويدلّك على ما قلناه كذلك ما في سفر اللاويين ضمن التوراة (٦ / ١٩): (ويكون لكم فريضةٌ دهريةٌ أنكم في الشهر السابع، عاشر الشهر تذللون نفوسكم.. لأنّ في هذا اليوم يكفر عنكم؛ لتطهيركم... الخ).

وفي سفر العدد (٧/٢٩): (وفي عاشر هذا الشهر السابع يكون لكم محفلٌ مقدّسٌ، وتذللون أنفسكم).

وهو يومٌ صومٍ مقدّسٌ معروفٌ لديهم، فيه مراسمٌ خاصّةٌ يقوم بها رئيس الكهنة، كالإغتسال، والزينة، ولبس ثياب الكتان.

ثمّ إنّ الذي وقع فيه أغلب شراح الأحاديث من أهل السنّة في تعيين اليوم، وأنّه التاسع أو العاشر قد دخل عليهم من هذه الجهة، وهي خفاء أنّ كلامه ﷺ - إن صحّ نقله بعينه - من أنّه سيصوم التاسع من قابل، وأنّه عليه وآله أحقّ بموسى منهم، إنّما هو تأييدٌ لنقلهم، وفعلهم، وشكرٌ لله على ما وقع في ذلك اليوم.

وأما الأخبار عن عليٍّ عليه السلام في صوم اليومين، التي منها:

ما رواه الشيخ في التهذيب صحيحاً، وأوردناها أوّل البحث بسنده عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليه السلام: «أنّ عليّاً عليه السلام قال: صوموا العاشورا التاسع والعاشر؛ فإنّه يكفر ذنوب سنة»، وما تلونا عليك بعده. فإنّ فيها احتمالان:

الأوّل: حمله على التقيّة، وهو أيسر المحامل.

الثاني: أن يكون كلام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام هو بنفسه كلام النبي صلى الله عليه وآله في المراد منه، وهو التاسع والعاشر من الشهر الشمسي، لا القمري، ويتأكد - هذا الثاني - لو صحّت دعوى أن كثيراً من المرويّات إلى أمير المؤمنين عليه السلام هي المنقولة عن كتاب السنن والأحكام والقضايا، الذي رواه أبو رافع - مولى رسول الله صلى الله عليه وآله، وصاحب بيت مال أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة - عن أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّ السنّة لازالت قائمة على صوم هذا اليوم الذي لا يجامع العاشر من محرّم الحرام. وكلا الاحتمالين يثبتان أجنبيّة هذين اليومين عن شهر محرّم الحرام. كلّ هذا كان مصطلحاً عليه، مستعملاً في التعابير قبل واقعة الطفّ إلى زمن من حياة الأئمة عليهم السلام بعده.

يرشدك إليه الوارد - كالصحيح - في التهذيب، بإسناده عن سعد بن عبد الله، عن أبي جعفر، عن جعفر بن محمّد بن عبّيد الله، عن عبد الله بن ميمون القدّاح، عن جعفر، عن أبيه عليه السلام قال: «صيام يوم عاشوراء كفّارة سنة» (٢٣). وفي الفقيه بسنده إلى الزهريّ - العامّيّ المعبر عنه بالعدوّ في رجال الشيخ (٢٤) - عن سيّد الساجدين عليه السلام قال: «وأما الصوم الذي يكون صاحبه فيه بالخيار، فصوم يوم الجمعة، والخميس، والاثنين، وصوم البيض، وصوم سنّة أيام من شوّال بعد شهر رمضان، وصوم يوم عرفة، ويوم عاشوراء، كلّ ذلك صاحبه فيه بالخيار، إن شاء صام، وإن شاء أفطر» (٢٥).

وإن أبيت عمّا استظهرناه، فمجال الحمل على التقيّة واسع، مع كون الراوي في الثاني مثل الزهريّ الذي لا يخفى حاله.

وأما ما ورد من الأخبار بعد ذلك العصر، فإنّ اقتران فاجعة كربلاء بالعاشر من محرّم، أولد مصطلحاً جديداً، ووضعاً خاصّاً لهذا الاسم - عاشوراء - مرتبطاً بهذا اليوم بخصوصه لا محالة، وعليه تُحمل كلماتهم عليهم السلام بعدها، خصوصاً الواردة في آخر

سنوات الصادق عليه السلام، انظر مثلاً لذلك روايات الباب ٢٠ من أبواب الصوم المندوب في الوسائل ^(٢٦) وما بعده، تجدها بين ناقلة لقول علي عليه السلام، أو السجّاد، أو الباقر عليهما السلام، أو حاكية لفعل النبي صلى الله عليه وآله، وكلّها فيها دلالة على استحباب صوم هذا اليوم، والتبرّك به، وهو الذي دعا صاحب الوسائل نفسه (قدس الله روحه) لحملها على التحزّن بصومه.

عدا ما رواه الشيخ في المصباح، عن عبد الله بن سنان، قال: «دخلتُ على أبي عبد الله عليه السلام يوم عاشوراء، [فألقيته كاسف اللون، ظاهر الحزن]، ودموعه تنحدر على عينيه كاللؤلؤ المتساقط، فقلتُ: ممّ بكاءك؟ فقال: أفي غفلة أنت؟! أما علمت أن الحسين عليه السلام أصيب في مثل هذا اليوم؟! فقلتُ: ما قولك في صومه؟ فقال لي: صمه من غير تبييت، وأفطره من غير تسميت، ولا تجعله يوم صومٍ كاملاً، وليكن إفطارك بعد صلاة العصر بساعة على شربة من ماء؛ فإنّه في مثل ذلك الوقت من ذلك اليوم تجلّت الهيجاء عن آل رسول الله صلى الله عليه وآله...» ^(٢٧) الحديث.

تجده عليه السلام قد أبان عن مصطلح جديد يباين المعروف سابقاً، وبسببه سأل ابن سنان عن صومه المعروف، فأجاب عليه السلام: «صمه... وليكن إفطارك بعد صلاة العصر بساعة»، مشيراً إلى أنّه ليس بصوم حقيقة، بل هو إمساك، ومواساة، وسيأتي حكمه. هذا مع ضمّ ما في تلك الأجواء من خلط لسنة النبي صلى الله عليه وآله في تراث أهل السنة، وتردد شديد في أوساطهم العلميّة في معنى (عاشوراء)، وما زامنّها من تقيّة لازمة على الشيعة، فلاحظه في روايات أبوابه تجده جلياً.

فمنها ما في الكافي عن محمد بن موسى، عن يعقوب بن يزيد، عن الحسن بن عليّ الوشاء، قال: حدّثني نجبة بن الحارث العطار، قال: «سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن صوم يوم عاشوراء، فقال: صومٌ متروكٌ بنزول شهر رمضان، والمتروك بدعة. قال

نجبة: فسألتُ أبا عبد الله عليه السلام من بعد أبيه عليه السلام عن ذلك، فأجابني بمثل جواب أبيه، ثم قال: أما إنه صوم يومٍ ما نزل به كتابٌ، ولا جرتُ به سنةٌ إلا سنةٌ آل زياد بقتل الحسين بن علي عليهما السلام» (٢٨).

فإنه - بعد معرفة أن المقصود من كونها متروكاً هو حكم وجوب صيامه، لا استحبابه المنقول عن علي عليه السلام، وغيره؛ لمقابته بصيام شهر رمضان، فالإتيان به بتلك النية ابتداءً في الدين - بعد هذا، كيف يُجمع بين كونه مأموراً به إلى نزول صيام شهر رمضان - المؤيدة بروايات النبي، وعلي، والسجاد عليه السلام -، وبين تأكيده عليه السلام لنفي سنته ونزوله؟! إلا أن يكون في البين شيئان، وليساهما - بحسب النظر - إلا ما ذكرنا من حكم صيام عاشوراء المعروفة ما قبل تشريع صيام شهر رمضان، وحكم صيام عاشوراء ذات المعنى الحادث بعد واقعة الطف.

وهذا الخلط في مفهوم هذا اليوم - أعني عاشوراء التي كانت على عهد النبي صلى الله عليه وآله، وعاشر محرّم الحرام - قد دخلتُ فيها أيدي النواصب، والوضّاعين، والمحرّفين.

ففي المرويّ عن ميثم التمار في حديث جبلة:

«قالت: جبلة: فقلتُ له: يا ميثم، فكيف يتّخذ الناس ذلك اليوم الذي قُتل فيه الحسين يوم بركة؟ فبكى ميثم رضي الله عنه، ثم قال: يزعمون لحديث يضعونه أنه اليوم الذي تاب الله فيه على آدم، وإنما تاب الله على آدم في ذي الحجة، ويزعمون أنه اليوم الذي قبل الله فيه توبة داود، وإنما قبل الله توبته في ذي الحجة، ويزعمون أنه اليوم الذي أخرج الله فيه يونس من بطن الحوت، وإنما أخرج الله يونس من بطن الحوت في ذي الحجة، ويزعمون أنه اليوم الذي استوت فيه سفينة نوح على الجودي، وإنما استوت على الجودي في يوم الثامن عشر من ذي الحجة، ويزعمون

أنه اليوم الذي فلق الله ﷻ فيه البحر لبي إسرائيل، وإنما كان ذلك في ربيع الأول...» (٢٩).

حكم صيام العاشورائين:

لابدّ من أن تكون النتيجة بعد هذا هو بقاء حكم الاستحباب لصيام عاشوراء الأولى، التي كانت على عهد النبي ﷺ، ووصيه عليّ عليه السلام، إلى زمن السجّاد والباقر عليهما السلام، ومن تلاهم من الأئمة عليهم السلام على احتمالٍ قويٍّ، وأنّ صيامها بصيام يومي التاسع والعاشر من ذلك الشهر الشمسيّ.

إلاّ أنّ للتردد فيه مجال؛ لبعد خفاء حكمه على فقهاء الطائفة، وكون خفاء النكته سبباً لعدم تعرّضهم لحكمه، وإنّ كان هذا الفرض نادراً.

وقد يتمسكّ لنسخ حكمه بما تقدّم من قول الباقر عليه السلام: «صومٌ متروكٌ بنزول شهر رمضان، والمتروك بدعة»، لكننا استظهرنا نسخ وجوبه، واستبداله بصوم شهر رمضان، وبقاء حكم استحباب صومه بمقتضى الوارد في شأنه، والحثّ على صومه على لسان الأئمة عليهم السلام، لا لأجل أنّ نسخ الوجوب يبقي شيئاً من الرجحان فيه فيحكم باستحبابه كما ذكر، فإنّ ذلك غير معلوم.

وأما صيام العاشر من محرّم الحرام:

فإنّا قدّمنا - صدر البحث - كلام المحدث العصفور، صاحب الحقائق (عطر الله تربته): «ومنها صوم يوم عاشوراء على وجه الحزن، كذا قيده جملةً من الأصحاب، وكأئهم جعلوا ذلك وجه جمع بين الأخبار الواردة في صومه أمراً، ونهياً» (٣٠)، لكنّه عليه السلام ذهب بعد ذلك إلى حرمة بقولٍ مطلقٍ، وحمل ما ورد في فضل ذلك اليوم على التقيّة، أو طعن في روايتها.

والذي يظهر بعد ما سطرناه لك:

أن أخبار الجواز لا تعارض أخبار التحريم، وبينهما كمال التباين الموضوعي؛ إذ ما ورد في الجواز على لسان النبي ﷺ - إلى زمن الباقر ﷺ - الظاهر منه إرادة ذلك اليوم المعروف بين اليهود، وهو التاسع والعاشر من تشرين بحسب ما ذكروه، وما ورد على لسان الصادق ﷺ مباشرةً تلاحظُ فيه القرائن الحافّة بالخطاب، فقد تحمّل على ما ذكرنا، أو تحمّل على التقية؛ لكون المقصود بها موافقة العامة المستحبين لصوم العاشر من المحرم.

وعليه، فتبقى أخبار التحريم - وإن كان كثيرٌ منها مبتلى بضعف السند، إلا أن كثرتها، واشتهارها، واشتهار روايتها بالغُ حدِّ الاطمئنان بصدورها - بلا معارضٍ، وبلا مقتضى لتقييدها بنية التبرك، ولنختم بذكر أحدها:

منها: ما رواه الكليني في الكافي، عن الحسين بن علي الهاشمي، عن محمد بن الحسين، عن محمد بن سنان، [عن أبان، عن عبد الملك]، قال: سألتُ أبا عبد الله ﷺ عن صوم تاسوعاء وعاشوراء من شهر المحرم، فقال: تاسوعاء يومٌ حوصر فيه الحسين ﷺ، وأصحابه ﷺ بكربلاء، واجتمع عليه خيل أهل الشام، وأناخوا عليه، وفرح ابن مرجانة، وعمر بن سعد بنوافل الخيل، وكثرتها، واستضعفوا فيه الحسين ﷺ، وأصحابه (كرم الله وجوههم)، وأيقنوا أن لا يأتي الحسين ﷺ ناصرٌ، ولا يمدّه أهل العراق، بأبي المستضعف الغريب. ثم قال: وأمّا يوم عاشوراء، فيومٌ أصيب فيه الحسين ﷺ صريعاً بين أصحابه، وأصحابه صرعى حوله، أفصومٌ يكون في ذلك اليوم؟! كلا، وربّ البيت الحرام، ما هو يوم صومٍ، وما هو إلا يوم حزنٍ ومصيبةٍ دخلت على أهل السماء، وأهل الأرض، وجميع المؤمنين، ويوم فرحٍ، وسرورٍ لابن مرجانة، وآل زياد، وأهل الشام، غضب الله عليهم، وعلى ذريّاتهم،

وذلك يومٌ بكتُ عليه جميع بقاع الأرض خلا بقعة الشام، فمن صام - أو تبرك به - حشره الله مع آل زياد ممسوخ القلب، مسخوط عليه، ومن ادّخر إلى منزله فيه ذخيرةً أعقبه الله تعالى نفاقاً في قلبه إلى يوم يلقاه، وانتزع البركة عنه، وعن أهل بيته، وولده، وشاركه الشيطان في جميع ذلك»^(٣١).

فإنَّ السائل فيها خصَّ يومي التاسع والعاشر من محرّم، وأجابه عليه السلام بجرمة الصوم، أو التبرك فيه، وتوعّد من صامه بعذابٍ أخرويٍّ دالٍّ على المصير، ومؤكّداً للحكم.

والمجال لبسط المقال متّسع، إلاّ أنّ المقام مقام اختصار، وإشارةٍ اقتصرنا فيه على المهمّ، بأوجز أسلوب، وأوضح عبارةٍ.

الموامش:

- (١) الحدائق، ١٣: ٣٦٩.
- (٢) التهذيب، ٤: ٢٩٩/ح ١١.
- (٣) إقبال الأعمال، ٣: ٥١.
- (٤) جامع أحاديث الشيعة، ٩: ٤٧٥/ح ١٠.
- (٥) جامع أحاديث الشيعة، ٩: ٤٧٥/ح ١١.
- (٦) الكافي، ٤: ١٤٧/ح ٧.
- (٧) صحيح مسلم ٣: ١٥١/باب (أيّ يومٍ يُصام في عاشوراء).
- (٨) البخاري ٤: ١٢٦/باب: (قول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾).

(٩) كتاب العين ١: ٢٤٥ / باب: (العين، والشين، والراء) معهما.

(١٠) لسان العرب ٨: ٣٤ / مادة (تسع).

(١١) لسان العرب ٤: ٥٦٩ / مادة (عشر).

(١٢) تاج العروس ١١: ٤٥ / مادة (تسع).

(١٣) تاج العروس ٧: ٢٢٢ / مادة (عشر).

(١٤) مجمع البحرين ٣: ١٨٦ / مادة (عشر).

(١٥) النهاية في غريب الحديث ٣: ٢٤٠ / باب: (العين مع الشين).

(١٦) القاموس المحيط ٢: ٩٠.

(١٧) التهذيب ٤: ٣٠٠ / ح ١٢.

(١٨) التهذيب ٤: ٣٣٣ / ح ١١٣.

(١٩) الفقيه ٢: ٨٥ / ح ١٨٠٠.

(٢٠) إقبال الأعمال ٣: ٤٥ / فصل ٧.

(٢١) إن قلت: لعله قد صادف عاشوراء اليهود عاشوراء المسلمين والعرب، فلا يمكن الجزم بكون المنظور إليه في الخطابات عاشوراء اليهود. قلنا: إن هذا الصوم قد صامه رسول الله ﷺ قبل هجرته إلى المدينة بحسب بعض الأخبار، وأمر بصيامه في السنة الأولى للهجرة، وهي لم تكن قد صادفت عاشوراء محرّم؛ لوقوعها في شهر ربيع الأول، والمروي عن العامة متواتراً كون الأمر بصيامه أوّل دخوله المدينة.

(٢٢) تاريخ المستبصر: فصل (ذكر شهور اليهود).

(٢٣) التهذيب ٤: ٣٠٠ / ح ٩٠٧.

- (٢٤) رجال الشيخ: ١١٩.
- (٢٥) الفقيه ٢: ٤٨ / ح ٢٠٨.
- (٢٦) السائل ١٠: ٤٥٧.
- (٢٧) الوسائل ١٠: ٤٥٨-٤٥٩ / ب ٢٠ ح ٧.
- (٢٨) الكافي ٤: ١٤٦ / ح ٤.
- (٢٩) علل الشرائع ١: ٢٢٧ / ب ١٦٢ ح ٣.
- (٣٠) الحدائق ١٣: ٣٦٩.
- (٣١) الكافي ٤: ١٤٧ / ح ٢.

كي يبقى الدم أمانة للمصلحين

في التخيير والإصلاح

رائد ميرزا الستري

تمهيد:

﴿إنَّ استِثْراءَ الفسادِ في الأرضِ يمثِّلُ كارثةً كبيرةً تتناقضُ والهدفُ الَّذي خلقَ اللهُ الإنسانَ لأجله، وأودعه هذه الأرضَ لتحقيقه، فوجودُ الإنسانِ في هذه الأرضِ وسَطَ إحاطتهِ بمجموعةٍ من الابتلاءاتِ المختلفةِ، سواءً منها الابتلاءاتُ الَّتِي تنتجُ من طبيعةِ النفسِ ذاتها، وميلها الحيوانيِّ وتصارعه مع الجانبِ الروحيِّ، أو تلكِ الَّتِي تنتجُ من ظروفٍ خارجيَّةٍ تُضيفُ تعقيداً آخرًا في صراعِ الإنسانِ مع طرفيه الحيوانيِّ والروحيِّ.﴾

وعندما يتغلَّبُ الجانبُ الحيوانيُّ في أناسٍ، تصطنعُ لدينا شخصيَّاتٌ، وإن كانت مختلفةً في شكلها عن الحيوانات، ولكنَّها لا تفترقُ قيد أئمةٍ عنها، بل هي أكثرُ شراهةً وضرراً، يقولُ الباري ﷻ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١).

توصيفٌ إلهيٌّ دقيقٌ لتلكِ الفئةِ الَّتِي ضاعت منها الأرواح، وتلاشى الجانبُ الروحيُّ من كلِّ كيائها، بعدما سمحت للهوى وللبعد الحيواني من أن يتحرك، ويصول، ويجول في كلِّ كيائها، فما كان إلا أن انقلبت الإنسانية فيهم إلى الحيوانية.

وبعد هذا الانقلاب لم تكن هناك أي قيمة للإنسان بحسب نظر المولى ﷺ، ولذلك كان على مستوى واحد مع الأنعام، لا يتمتع بأي امتياز عند الله، وقد يكون أشد انحطاطاً منها، فلا يمثل التطور المادي، أو التكنولوجي، أو غيرها - من جنباتٍ أخرى - قيمةً عند الله، بعدما يذهب البعد الروحي ويتلاشى.

كي لا تنحرف المسيرة:

لكي يحافظ المولى على سير الإنسان نحو الهدف المنشود، أودع في نفس البشريّة عناصر ومقومات تنهض ببعده الروحي، وتقويه متى ما أراد الإنسان ذلك. كما ويمثّل بعث الأنبياء والرسول من قبل الله ﷻ عوناً إضافياً لمكونات النفس الخيريّة، وإمداداً من قبله للبشريّة؛ كي تبقى على خطّ الرشاد والهدى، ولا تحيد عنه، يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٢).

وتمثّل الشريعة السمحاء أيضاً - بكلّ ما تشتمل عليه من تكاليف وأحكام - نوع إرشادٍ وهدايةٍ لصالح الإنسان، والأحكام التي وردت في الشريعة الإسلاميّة يمكن لنا أن نقسمها على قسمين مهمّين:

الأوّل: هي تلك الأحكام التي تُلاحق حركة الفساد الداخلي، النابع من ذات الإنسان ونفسه، وتحاول أن تبني عناصر ومقومات تنهض بالإنسان نحو كماله الذاتي، ومثال تلك الأحكام كثير، منها: الصلاة، والصوم، والحج، وحرمة الزنا، واللواط، وغيره.

الثاني: هي تلك الأحكام التي تلاحق حركة الفساد الخارجي التي تكون بالعادة إفرزاً طبيعياً من إفرزات فساد الأفراد، وتحاول هذه الأحكام أن تنهض بالمجتمع وبنائه نحو الكمال والفضيلة.

الأمر بالمعروف ملاحقة للفساد:

تعدّ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهمّ التشريعات الإلهية التي يمثل تفعيلها نوع ملاحقة للفساد الذاتي، والمجتمعي، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣)، ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٤).

وورد عن الإمام عليّ عليه السلام في وصيته للحسين عليه السلام عند الشهادة: «لا تتركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فيؤلى عليكم شراركم، ثم تدعون فلا يُستجاب لكم»^(٥).

نعم، إن ترك الجو العام للفساد - ليتحرك حرّاً طليقاً كيفما يحلو له - يؤول أمره بعد ذلك - بلا شك - إلى سيطرة تامة له، ولأصحابه، وتقلد للمفسدين لأعلى المراتب في المجتمع، وفساد الأرض وخرابها، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٦)، هذه هي النتيجة الطبيعية متى ما أهملت الرقابة والملاحقة للفساد، والمفسدين.

طرق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة:

يذكر الفقهاء في رسائلهم العملية مراتب لإنكار المنكر، والنهي عنه، تبدأ بالإنكار القلبي، وإظهار الكراهة القلبية، بمثل تقطيبات الوجه، أو السكوت، وترك

الكلام، ثم إذا لم تنفع هذه الوسيلة انتقل إلى مرتبة الإنكار القولي، وباللسان، من خلال النصيحة، أو الموعظة، أو التقريع، ونحوه، ثم الإنكار باليد، وبالفعل، من خلال الضرب، ونحوه.

ويرى بعض الفقهاء - كمثل السيّد الخوئي تت (٧) - أن الظاهر أن المرتبة الأولى والثانية كلاهما في عرض واحد، فقد نستعمل الثانية ونترك الأولى، أو بالعكس، أو نستعملهما معاً، كل ذلك خاضع لتقدير أيّ الطرق سيكون لها التأثير في ردع المرتكب للمنكر ونهيه.

ثم إذا لم تنفع هذه الطريقة انتقل إلى المرتبة الثالثة، وفي هذه المرتبة لا بد من مراعاة الترتيب في مراتبها على الأحوط وجوباً، فلا يبدأ بالأشدّ مع كون الأقلّ منه كافٍ في التأثير، والردع للمنكر.

ثورة الطفّ.. حركة نحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

مع بداية حركة الإمام الحسين عليه السلام تحرّكت أهداف حركته معه؛ لتكون أهداف الثورة واضحة المعالم، ومحدّدة النقاط، تنطلق في ذلك من سنّة الله في إبانة الحقّ، وجعله واضح المعالم بإزاء الباطل وزيفه، ﴿لئلاّ يكون للناس على الله حجة﴾ (٨).
فما إن تقرأ الكلمات التي قالها الإمام الحسين عليه السلام في مواضع مختلفة، حتّى تجد مثل هذه الكلمة شاخصّة للعيان واضحة، وهي: «وأني لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي صلى الله عليه وآله، أريد أن آمر بالمعروف، وأنهي عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي، وأبي عليّ ابن أبي طالب عليه السلام» (٩).
فهدف الإصلاح، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هو هدف حركة الإمام عليه السلام، وثورته.

لماذا وصلت المواجهة حتى الشهادة؟!

إذن حركة الإمام الحسين عليه السلام تعدّ تجربةً عمليّةً في مواجهة الانحراف، وصل بها الإمام عليه السلام إلى أقصى مراتب المواجهة، وهي المواجهة بالعنف، وبالدم. ومن هنا يجد المصلحون ثورة الإمام عليه السلام مادةً مهمّةً للدراسة، تتحدّد على ضوءها معالم الرُتبية بين الأسلوب السلمي في التغيير والإصلاح، وأسلوب المواجهة بالعنف.

إذ الملاحظ للترتيب الذي يذكره الفقهاء في مراتب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يجد أنّ البداية بالطريقة السلميّة في معالجة المنكر - ما دامت محتلة المنفعة والجدوى في مواجهة الفساد - لا يُنتقل منها إلى المواجهة بالعنف، بل إنّ الانتقال إلى هذه المرتبة من المواجهة بحاجة إلى إذن من الفقيه، إن كان يستلزم جرحاً، أو خدشاً، ونحو ذلك من تفاصيل تُبحث في محلّها، تُشدّد وتضيق في مجملها الخناق؛ كي لا نصل بالمسألة إلى هذه المرتبة.

ومن هنا ندخل في عمق المسألة التي أردنا أن نتناولها، وهي: إذا كانت المسألة كذلك، فإنّ لماذا كانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام؟! إذ قد يقول قائل: إنّ ثورة الإمام تُعدّ مواجهةً للانحراف، وحركةً للتصحيح والإصلاح، عن طريق المواجهة، والعنف، وهذه المرتبة لا يُوصَل لها إلاّ بعد استنفاد المراتب الأخرى!

هل كانت أمام الإمام عليه السلام خياراتٌ غير المواجهة؟

بتتبّع النصوص الواصلة لنا عن حركة الإمام الحسين عليه السلام نحو الثورة، يمكن لنا أن نذكر الخيارات الأخرى التي ذُكرت للإمام الحسين عليه السلام من قبَل البعض، بغضّ النظر الآن عن تفصيل صحتّها وسقمها، وهي كالتالي:

الأول: خيار المبايعة والتصالح:

وهذا الخيار أشار به ابن عمر، عندما لقي الإمام الحسين عليه السلام وابن الزبير، إذ قال لهما: (أذكر كما الله إلا رجعتما، فدخلتما في صالح ما يدخل فيه الناس، وتنظرا، فإن اجتمع الناس عليه لم تشذا، وإن افترق الناس عليه كان الذي تريدان)^(١٠). وهذا الذي أشار إليه ابن عمر في واقع أمره ينطلق من مبدأ قد سبّس، واستفاد منه البعض قبل أن يستفيد منه مثل يزيد ومعاوية، وهو مبدأ الجماعة، والاجتماع، وعدم شق عصا الأمة، ونحوها من مفاهيم حاول القوم شرعنة حكمهم من خلالها.

الثاني: خيار الهروب والتريث:

وأبرز من اقترح هذا الخيار للإمام الحسين عليه السلام هو أخوه محمد بن الحنفية عليه السلام، حيث قال للإمام عليه السلام لما علم عزمه على الخروج عن المدينة: (يا أخي، أنت أحب الناس إليّ، وأعزهم عليّ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق إلا لك، وأنت أحقّ بها، تنحّ ببيعتك عن يزيد بن معاوية، وعن الأمصار ما استطعت، ثمّ ابعث رسلك إلى الناس، فادعهم إلى نفسك، فإن تابعتك الناس وبايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك، ولا عقلك، ولا تذهب به مروءتك، ولا فضلك، إنني أخاف أن تدخل مصراً من هذه الأمصار، فيختلف الناس بينهم، فمنهم طائفة معك، وأخرى عليك، فيقتتلون، فتكون أنت لأول الأئمة، فإذا خیر هذه الأمة كلها نفساً، وأباً، وأمّاً، أضيعها دماً، وأذلها أهلاً. فقال له الحسين عليه السلام: «فأين أذهب يا أخي؟» قال: انزل مكة، فإن اطمأنت بك الدار بها فسبيل ذلك، وإن نبت بك، لحقت بالرمال، وشعب الجبال، وخرجت من بلد إلى بلد، حتى تنظر ما يصير أمر الناس إليه، فإنك أصوب ما تكون رأياً حين تستقبل

الأمر استقبلاً. فقال: «يا أخي، قد نصحت، وأشفقت، وأرجو أن يكون رأيك سديداً موقفاً». فسار الحسين عليه السلام إلى مكة^(١١).

الثالث: خيار المواجهة والشهادة:

وهو الخيار الذي وقع، وسار إليه الإمام عليه السلام، وربما كان مكان المواجهة مردداً حسب كلمات الناصحين للإمام عليه السلام بين ثلاث محلاتٍ أساسيةٍ هي:

- (١) مكة المكرمة.

- (٢) كربلاء العراق.

- (٣) اليمن.

اختيار خيار الشهادة بكربلاء عن علم:

خيار مكة المكرمة خياراً استبعده الإمام عليه السلام في قوله لأخيه ابن الحنفية: «يا أخي، قد خفت أن يغتالي يزيد بن معاوية في الحرم، فأكون الذي يُستباح به حرمة هذا البيت»^(١٢).

فالإمام عليه السلام على علمٍ بما ستؤول إليه الأمور من خذلانٍ، وسكوتٍ، فأراد أن تكون الجريمة جريمةً تتعلق بإهراق دمه دون أن تقترن بجريمة هتك بيت الله الحرام؛ لتبقى حُرْم الله الأخرى محفوظةً، ولا يكون هو سبباً لهتكها، بعدما كانت هناك خياراتٌ أخرى في الخروج من مكة، تحقق نفس مستوى الأهداف التي أرادها الإمام عليه السلام.

كما وأننا لو فرضنا مكة كانت هي الخيار، لأمكن ليزيد - بعد أن يُجهز على الحسين عليه السلام وأصحابه عليهم السلام - أن يرمم البيت، ويبنى الكعبة، ويشوه صورة الإمام الحسين عليه السلام، ويصور المسألة على أساس أنه عليه السلام هو السبب في هتك حرمة بيت الله، كما فعل باين الزبير.

ويظهر من ترجيح الإمام لخيار السير لأهل العراق - مع علمه أنهم قاتلوه بقوله عليه السلام: «هذه كتب أهل الكوفة إليّ، ولا أراهم إلا قاتلي»^(١٣) - أن هناك حيثيات مهمة ترتبط بالعراق ذاته.

فالمتتبع لكلمات الإمام عليه السلام لا يمكن أن يصرف نظره عن الكم الهائل من الكلمات التي ينعى فيها الإمام عليه السلام نفسه، فالسير إلى العراق ما كان إلا سيراً نحو المصرع، ومحلّ الدفن.

فها هو يخطب ويقول للناس: «خُطَّ المَوْتُ عَلَى وُلْدِ آدَمَ، مَخَطَّ القِلَادَةَ عَلَى جِيدِ الفَتَاةِ، وَمَا أَوْلَهَنِي إِلَى أَسْلَافِي اشْتِيَاقَ يَعْقُوبَ إِلَى يُوْسُفَ، وَخَيْرٌ لِي مَصْرَعٌ أَنَا لِأَقِيهِ، كَأَنِّي بِأَوْصَالِي يَتَقَطَّعُهَا عُسْلَانُ الفُلُواتِ، بَيْنَ التَّوَاوِيسِ وَكِرْبَلَاءَ، فَيَمْلَأَنَّ مِنِّي أَكْرَاشاً جَوْفاً، وَأَجْرِبَةً سُعْباً، لَا مَحِيصَ عَن يَوْمٍ خُطَّ بِالقَلَمِ»^(١٤).

وهي كلمات صريحة في أن مآل أمره إلى الشهادة، والقتل، فلذلك من غير المحتمل ما يذكره البعض من أن الشهادة فرضت على الإمام عليه السلام فرضاً؛ نظراً لسوء اختيار الإمام لخيار العراق، نعم، هي بالمقاييس الشرعية كما سنوضح لاحقاً فرضت كتكليف شرعي على الإمام عليه السلام.

فليس من الصحيح ما يصوره البعض من أن الإمام عليه السلام وكأنه عليه السلام - حاشاه - لا خُبرَ له بطبيعة الناس آنذاك، وبظروف الأوضاع العامة، مع أن المسألة كانت جلية جداً، وواضحة في رجحان الخذلان على النصر، حتى لمثل محمد بن الحنفية، وابن عباس، والفرزدق، وغيرهم، فكثير أولئك الذين قالوا للإمام عليه السلام بأن أهل الكوفة يخذلونه، والإمام عليه السلام على علم بالكوفة وأهلها أكثر من غيره، فهو الذي خاض الحروب مع أبيه، وكان مع أخيه، فكيف يخفى عليه مثل ذلك؟!!

فلا نجد بعد ذلك كلاً إلا حصر مسير الإمام عليه السلام إلى العراق، إلا أنه نوع من اختيار محلّ المصرع، وهي كربلاء، فهو القائل لأخيه محمد: «أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله

بعدهما فارقتك، فقال: يا حسين، اخرج؛ فإنَّ الله قد شاء أن يراك قتيلاً. فقال له ابن الحنفية: إنَّا لله، وإنَّا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذه الحال؟! قال: فقال له: قد قال لي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إنَّ الله قد شاء أن يراهنَّ سبايا» (١٥).

تخطيط وإعداد مسبقاً للشهادة، بخطى ثابتة، لم يثنها وصول خبر الخذلان، وقتل مسلم وهاني عَنْهُمَا؛ ليزداد التأكيد على أنَّ خطاه عَلَيْهِمَا كان نحو لُقيا الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، مع ثلثة رابطة على الإيمان، وقد كان الإمام عَلَيْهِمَا يتعاهدهم، ويصفّيهم، وينتقيهم، ويختبرهم في كلِّ موضعٍ موضعٍ، حتّى بقي معه من بقي، وذهب عنه من ذهب، فما كان إلا أن أراهم مصارعهم، ومحالّ دفنهم، فثبتوا، واستشهدوا.

لماذا كربلاء العراق؟

فيمكن لنا أن نفهم السر من خلال تعبيرات الإمام عَلَيْهِمَا: «الموعد حفرتي، وبقعتي التي أستشهد فيها، وهي كربلاء، فإذا وردتْها فاء توني» (١٦)، «ومن ذا يكون ساكن حفرتي بكربلاء؟! وقد اختارها الله يوم دحا الأرض، وجعلها معقلاً لشيعتنا، ويكون لهم أماناً في الدنيا والآخرة» (١٧).

السرّ في كربلاء كان خفياً ومغيّباً عند استشهاد الإمام عَلَيْهِمَا رغم هذه الكلمات، ولكن باتت هذه الكلمات اليوم واقعاً تتلمّسه يوماً بعد يوم، وسيأتي يوم ظهور قائم آل بيت محمد عَلَيْهِمَا؛ ليصبح ما قاله الإمام الحسين عَلَيْهِمَا بكلِّ حذفه واضحاً، جلياً، لا ريب فيه.

فالعراق أصبحت بسبب وجود هذه المشاهد المباركة ملاذاً للشيعة، وحصناً حصيناً لمذهب التشيع وأهله.

لماذا اختار الإمام خيار الشهادة؟

من يقرأ ثورة الإمام عليه السلام لا ينبغي أن يتجاهل بقيّة الأدوار التي قام بها الأئمة عليهم السلام؛ فالشريعة واحدة، اعتمد الله في بيانها على مراحل من التطور والتدرج، فقد يُصدر إماماً حكماً عاماً مطلقاً، ويأتي إماماً آخر يُخصّصه ويقيده. وهذا النحو من التدرج ليس مقصوداً على جانب الأحكام الفقهيّة في جانب العبادات والمعاملات وحسب، وإتّما هو نحو اعتمده الباري حتّى في مجال السياسة والدولة.

فبعد المخالفة لنصّ النبي صلّى الله عليه وآله في الخلافة من بعده، ومآل الحكم للخلفاء، يأتي الإمام عليّ عليه السلام بعد حين؛ ليعطي حكمه، ويبين نهجه، ويعيد الأئمة إلى سيرة الرسول صلّى الله عليه وآله.

وهكذا الأمر، تأتي ظروفٌ خاصّةٌ تُجبر الإمام الحسن عليه السلام على الصلح مع معاوية، وتسير الأمور، وتذهب الظنون بمعاوية حتّى يُنصب ابنه خليفةً من بعده، متجاهلاً لبنود الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام.

وفعل معاوية هذا قد أنهى أمد - وصلاحيّة - الصلح المبرم، والإمام الحسن عليه السلام كان مدركاً لذلك، فلذا كان النصّ في الصلح على مآل الأمر للإمام الحسين عليه السلام، لا ليزيد من بعد معاوية.

وهنا لا بد من حركةٍ تسلب هذا التنصيب مصداقيته، وشرعيّته، فيأتي دور الإمام الحسين عليه السلام ليفصل الشرعيّة عن الحكم القائم، وهذا ما حصل، فلم يكتسب الحكم الأمويّ أيّ شرعيّةٍ في نظر الناس بعد مقتل الحسين عليه السلام، وشهادته. فتورة الإمام عليه السلام عزّزت في نفوس الناس، وأكّدت أنّ الخلافة حقٌّ لأبناء بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله، إمامٌ بعد إمامٍ.

وهذا المعنى استغله العباسيون في الاستيلاء على الحكم، ولكن لما تكشفت نواياهم زالت عن حكمهم الشرعية، وفعل المأمون من خلال تنصيبه الإمام الرضا عليه السلام في ولاية العهد محاولةً لاكتساب الشرعية والحاكمية من قبل الله، ومن قبل رسوله صلى الله عليه وآله، بعدما زالت عن حكم آل العباس أيضاً.

فهذا إذن ما أراده الإمام عليه السلام، سلب الشرعية لأي حكمٍ وخلافةٍ سوى خلافة أهل البيت عليهم السلام، ولأجل ذلك تعدت ثورة الإمام عليه السلام تمهيداً لظهور الإمام الحجة عليه السلام؛ لأنها رسمت هذا المفهوم، وأعطت الشرعية لحكم الإمام عليه السلام، وضرورة خروجه قبل أن يولد، وقبل أن يخرج.

أمّا الأمر الآخر فهو: أن ثورة الطفّ أعادت للأدوات والأساليب في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر تمازجها الذي يجب أن يبقى، ويُحافظ على شخصه، هذا التمازج يتمثل في التأكيد على مسألةٍ في غاية الأهمية، ورسالة تُرفع في وجه كلّ ظالم، وهي:

كما أن هناك طريقاً سلمياً يمكن للمصلحين أن يسلكوه، فكذلك هناك المواجهة، والعنف، والدم الذي يمكن أن يفعلوه، وينشطوه، ويقدموه متى ما اقتضت الحاجة. كربلاء، ذلك البركان الذي لا يهدأ، فما زالت ذكراها تُحدث رعباً في قلوب الظلمة والجبايرة، إحيائها السنوي يعطي شحذاً في نفوس المؤمنين والغياري نحو التحرك والتغيير، وإرخاص الغالي والتمين لهذا الدين الحنيف، فلا يكفي بالإنسان أن يقرأ الشهادة مفهوماً، وإنما لابد له أن يعيشها قلباً، وفعلاً، وثورة الإمام عليه السلام تُعدّ الحاضن والمدرسة التي يتربى فيها الإنسان على الشهادة، وتغرس في قلبه الشوق، والحب لها.

فتحرك الإمام عليه السلام نحو الشهادة كان بدافع التكليف الشرعيّ في بيان هذه
الحيثيات؛ إذ لو لم يتحرك عليه السلام لحدثت في الدين مفسدة لا يمكن جبرها، شرعيةً
للحكم الجائر، وسكوتٌ عن انتهاك حرّات الله، وعن ارتكاب معاصيه، فدفعاً لهذه
المفسدة، كانت الضرورة لتحويل الأسلوب من السلم إلى المواجهة بالدم.

الخلاصة:

آمل أنّي قد وفّقتُ في بيان النقاط التالية:

- (١) فاعليّة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مطلوبةٌ دوماً، نحفظ أنفسنا
ومجتمعنا من خلالها.
- (٢) إنّ حركة الإمام الحسين عليه السلام حركةٌ نحو التغيير، والإصلاح، وتطبيقُ لفريضة
الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.
- (٣) إنّ الإمام عليه السلام تحرك في حركته من الأوّل نحو التضحية، والفداء.
- (٤) لا بدّ أن تكون أداة الدم والمواجهة شاخصةً، كأداة يلجأ لها المصلحون متى ما
اقتضتُ الضرورة، وفقاً لضوابطها الشرعية، لا أنّها تُعطل، وتُترك.

المواهب:

- (١) سورة الفرقان، ٤٣-٤٤.
- (٢) سورة الصف، ٩.
- (٣) سورة آل عمران، ١٠٤.
- (٤) سورة البقرة، ٢٥١.
- (٥) الري شهريّ، ميزان الحكمة، [١-٤]، ط ١، دار الحديث، قم - إيران، ج ٣، ص ١٩٤٥.
- (٦) سورة الروم، ٤١.

- (٧) راجع منهاج الصالحين، ج ١، باب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.
- (٨) سورة النساء، ١٦٥.
- (٩) معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، ط ٣، دار المعروف للطباعة والنشر، ١٩٩٥م، ص ٣٥٤.
- (١٠) ابن عساكر، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط ٢، ١٤١٤هـ، قم - إيران، ص ٢٦٣.
- (١١) الشيخ المفيد، الإرشاد، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، دار المفيد للطباعة والنشر، [١-٢]، ط ٢، ١٩٩٣م، بيروت - لبنان، ج ٢، ص ٣٤.
- (١٢) السيّد ابن طاووس، اللهوف في قتلى الطفوف، أنوار الهدى، ط ١، ١٤١٧، قم - إيران، ص ٣٩-٤٠.
- (١٣) ابن عساكر، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام، ص ٣٠٨.
- (١٤) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، تحقيق دار إحياء التراث العربي، [١-١١٠]، ط ٢، مؤسّسة الوفاء، بيروت - لبنان، ١٩٨٣م، ج ٤٤، ص ٣٦٦-٣٦٧.
- (١٥) السيّد ابن طاووس، اللهوف في قتلى الطفوف، ص ٤٠.
- (١٦) معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة شهادة المعصومين عليهم السلام، انتشارات نور السجاد، [١-٣]، ط ١، قم - إيران، ج ٢، ص ٩٦.
- (١٧) المصدر نفسه.

الإثار العملية لصفة الرضا

حسين علي أبورويس

مقدمةٌ حول علم الأخلاق:

كَلَّمَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١).

إنَّ جميع الأنبياء والرسل جاؤوا لتزكية وتطهير الإنسان عبر أهمِّ عناصره وأجزائه، وهي العقل، والروح، والجسم، فجاءت علوم العقيدة لتصيِّر العقل مفكراً في طريق الله ﷻ، وجاءت الأحكام الشرعيَّة، التي تتمثل في العبادات، والحقوق، والواجبات، والأخيران قد يتعلّقان بالله ﷻ، أو بالناس، أو بالنفس، فلكلِّ منها حقوقٌ وواجباتٌ، على الإنسان ألاّ يتهاون في أدائها.

وجاء علم الأخلاق؛ لتزكية الروح والنفس من الرذائل، وتحليلتها بالفضائل؛ لتصبح نقيَّةً، صافيةً، متَّجهةً صوب الكمال الإلهيِّ.

ومن جملة ما ذكره علماؤنا الأبرار أنَّ أشرف العلوم وأفضلها هو علم الأخلاق؛ لأنَّ شرف العلم يكون بشرف موضوعه، والنفس أفضل موجودٍ أوجده الله ﷻ من بين الموجودات الأخرى.

ويسند هذا الكلام ما ذكره صاحب جامع السعادات، حيث يقول: «لما عرفت أنَّ الحياة الحقيقيَّة للإنسان تتوقَّف على تهذيب الأخلاق، الممكن بالمعالجات المقرَّرة في هذه الصناعة، تعرف أنَّها أشرف العلوم، وأنفعها؛ لأنَّ شرف كلِّ علمٍ إنّما بشرف موضوعه، أو غايته... وموضوع هذا العلم هو النفس الناطقة التي هي حقيقة الإنسان، ولبَّه»^(٢).

وعلم الأخلاق - كما تقدّم - هو ذاك العلم الذي يجعل الفرد منّا متخلياً عن الرذائل، ومتخلياً بالفضائل، ولربما تكون آية الكرسيّ مسندةً لهذا الكلام: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣)، فما لم تحصل التخلية فلن تحصل التخلية، وإن جاءت التخلية قبل التخلية فستكون كالثوب الذي يكون مملياً بالأوساخ، ولا يقبل أيّ لونٍ من الألوان، فالذي يقوم ببعض الواجبات الأخلاقية من دون أن يخلي نفسه، يكون كقبرٍ باطنه جيفةٌ عفنةٌ، وظاهره زينةٌ عطرةٌ. ونركّز هنا على أنّ الإسلام هو مدرسة مكارم الأخلاق، وعلى من يرنو إلى حقيقة الإسلام أن يتدرّج في صفوف هذه المدرسة؛ ليصل إلى الكمال المطلق، ولا عبرة بمن كان الإسلام بالنسبة إليه مجرد نطقٍ بالشهادتين، فهو كالذي يذهب للمدرسة كلّ يومٍ، وينام في الصفّ إلى نهاية الدوام، فـ«يرجع بخفي حنين»! وفي بحثنا هذا نحاول قراءة إحدى الصفات الأخلاقية التي دُعينا إلى التحلي بها من قبل أهل البيت عليهم السلام، وهي: صفة الرضا، وسيكون البحث في محورين:

المحور الأوّل: وهو بيان مفهوم الرضا عند أهل اللغة، وفي الاصطلاح.

المحور الثاني: وهو بيان لبعض الآثار العملية لهذه الصفة، التي تعكس آثارها على الفرد، والمجتمع.

المحور الأوّل: الرضا في اللغة والاصطلاح:

النقطة الأولى: المعنى اللغوي للرضا:

ذكر ابن منظور في لسان العرب حول الرضا: ورضي، يرضى، رضاً - وهو مقصورٌ - ضدّ السخط^(٤).

وجاء في القاموس المحيط: رضي عنه، وعليه، يرضى، رضاً، ورضواناً، وأرضاه: أعطاه ما يرضيه، واسترضاه، وترضاه: طلب رضاه، ورضيته، وبه: فهو مَرْضِيٌّ، ومَرْضِيٌّ، والرَضِيُّ: الضامن، والمحب^(٥).

النقطة الثانية: المعنى الاصطلاحي للرضا:

جاء عن رسول الله ﷺ أنه سأل جبرئيل عليه السلام قائلاً: «فما تفسير الرضا؟ فقال جبرئيل: الراضي لا يسخط على سيده، أصاب من الدنيا أم لم يصب، ولا يرضى لنفسه باليسير من العمل»^(٦).

صفة الرضا هي من الصفات الأخلاقية المهمة جداً، والتي يجب على كل مؤمن أن يكون متحلياً بها، وقد ذكر علماء الأخلاق أكثر من تعريف لهذه الصفة الطيبة، ولا حاجة لذكرها جميعاً، فجميعها يصب في مصب واحد، حيث نستطيع القول أن الرضا: (هو قنوع الإنسان، وتركه للاعتراض، والسخط، باطناً وظاهراً، قولاً، وفعلاً).

ولكي نتعمق أكثر في معنى الرضا، نشير إلى نكنتين مهمتين، تساهمان في توضيح معنى الرضا بشكل أوسع:

النكته الأولى: صفة الرضا من لوازم المحبة:

الحب الحقيقي هو ذاك التعلق والميل الذي يجعل المحب راضياً عن كل قول - أو فعل - يصدر من المحبوب، فالزوجة المحبة لزوجها - مثلاً - تكون راضية عن كل قول - أو فعل - يصدر من زوجها بسبب حبها له، هذا مثال للحب المادّي، ولكن الحب الحقيقي هو الحب المعنوي المرتبط بالله تعالى.
فكيف هو حبنا لله تبارك وتعالى!؟

هل حبنا له يجعلنا راضين عن كل ما قدر لنا؟! نحن نعلم جميعاً أن حبه ﷺ هو أصل كل حب، وأي حب لا يكون في طول حبه فهو حب شيطاني، يهلك صاحبه، ويرديه إلى بس المسير.

إذن حبنا لله تعالى يجب أن يجعلنا راضين بكل شيء يصدر تحت ظل الإرادة الإلهية، فالحب حقيقة لله تعالى هو الذي يفني إرادته في إرادة الله تعالى، ويؤكد هذا المعنى ما ذكره السيد الإمام تفتي في كتاب: (الأربعون حديثاً)، حيث عبّر عن الإنسان الراضي بقوله: «يكون قد أفنى إرادته في إرادة الله، فلا يختار لنفسه شيئاً»^(٧).

النكته الثانية: مفهوم خاطئ:

قد يسأل البعض عن حقيقة صفة الرضا، فهل هي القبول بالواقع والركون له؟ أم هي عدم القبول بالواقع بتغيير كلفيته؟ فهناك مفهوم خاطئ لدى الكثيرين الذين اعتقدوا بأن الرضا هو الاستسلام للواقع، أو السكون أمامه، وعدم الحركة، فصفة الرضا هي تغيير الحركة، والتأثير في الواقع المعاش، وليست هي الاستسلام، والخضوع الذي يدعيه البعض. وهذا ما عبّر عنه الشهيد مطهري رحمته الله في كتابه: (الملحمة الحسينية)، حيث قال: «إن الرضا والتسليم للأمر الإلهي لا يعني السكوت، والسكون، والتوقف عن الحركة، بل تغيير كلفية الحركة»^(٨).

فالحسين عليه السلام لم يخضع للظروف المحيطة به، ولم يركن للظالم، بل حاول أن يغيّر كلفية حركته، وهذا التغيير منطلق من الأمر الإلهي الذي يجعله يدافع عن الإسلام، ويحفظه، ويصونه بأي وسيلة يكون فيها راضاً للأمر الإلهي، فهو راض بما تمليه عليه الإرادة الإلهية، ومسلم تسليمًا مطلقاً.

بعكس من تخاذل وضعف أمام الظروف المحيطة به، ولم يحرك ساكناً، كابن عمر الذي لزم بيته؛ ظاناً أنه بهذا يحقق رضا الباري جده رحمه.

فعديدة هي الفروق بين من سكت وسكن أمام الظروف المحيطة به، وبين من غير كيفية حركته؛ من أجل أن يؤثر في الظروف والأوضاع، لا هي التي تؤثر فيه، ونذكر هنا - من خلال ثورة كربلاء - ما تتميز به حركة التغيير، وعدم الركون للواقع:

الأول: ثورة الإمام عليه السلام - ونهضته - كانت بيد التدبير والتخطيط الإلهي، فالله عز وجل هو المدبر والمخطط لهذه النهضة، فكانت إرادة الإمام عليه السلام هي إرادة الباري جده رحمه.

وعندما نقول: (إنَّ إرادة الإمام عليه السلام هي إرادة الله تعالى.)، لا نعني بذلك أنَّ الإمام عليه السلام مجبرٌ، ومقيّدٌ بالإرادة الإلهية، بل نعني ما ذكرناه سابقاً من كلام الإمام الخميني العظيم قدس سبحانه، بأنَّ الإمام الحسين عليه السلام قد أفنى إرادته في إرادة الله تعالى، فكلَّ ما يوافق إرادة الله عز وجل تعلقت به إرادة الإمام عليه السلام.

الثاني: أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان عارفاً بما سيجري عليه - وعلى أهل بيته - من قتلٍ، وسلبٍ، ونهبٍ، وسبيٍ، وتشريدٍ، ولكنه - مع كلِّ ذلك - كان راضياً بما سيجري عليه؛ لأنَّه تحت عين الله عز وجل، وبرعايته.

ومما يدلُّ على ما ذكرناه هو مقولته الشهيرة، عندما أراد الخروج من أرض مكة المكرمة: «كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات، بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشاً جوفاً، وأجربةً سغباً، لا محيص عن يوم حُطَّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين...»^(٩).

الثالث: هو تجسيد الإمام عليه السلام حالة الانصياع للقيادة في أعلى درجاتها، فاتّباعه كان الاتّباع التامّ - المطلق - للأوامر الإلهية، فقام بثورته - ثورة الصمود، والإباء - اتّباعاً لأمر الإله، لا لأيّ دافعٍ آخر، وكأني بلسان حاله يقول:

تركت الخلق طرّاً في هواك و أيتمت العيال لكي أراك
فلو قطعني في الحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواك

الرابع: أنّ هذا الانصياع، وهذا الذوبان في القيادة، منشؤه هو العشق، والحبّ، الذي يتجسّد في العبادات، فلو تأملنا قليلاً في ثورة الطفّ لوجدنا أنّها تمثّل منظومةً عباديةً لم يشهدها التاريخ من قبل، ولا من بعد.

المحور الثاني: الآثار العملية لصفة الرضا:

كثيرةٌ هي الآثار والفوائد العملية لصفة الرضا، ونستعرض هنا مجموعةً من النقاط التي نوضّح فيها أهميّة هذه الصفة، وما تعكسه من آثارٍ إيجابيةٍ في بناء الشخصية الإيمانية الرسالية؛ لتكون مقدّمةً للخوض في بحر رضا سيّد الشهداء عليه السلام.

النقطة الأولى: فضيلة الرضا:

صفة الرضا هي من أشرف الصفات، وأفضلها، وأرقاها درجةً، ورتبةً؛ فهي - كما ورد في الحديث عن سيّد الساجدين، وزين العابدين عليه السلام - تفوق مرتبة الزهد، ومرتبة الورع، ومرتبة اليقين، حيث قال الإمام عليه السلام: «أعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا»^(١٠).

وقد تعرّض أهل البيت عليهم السلام في كلماتهم كثيراً لهذه الصفة، ونذكر هنا بعضاً من كلماتهم؛ لبيان فضيلة هذه الصفة، وعظمتها:

١) الرضا علامة الإيمان:

جاء عن إمامنا الصادق عليه السلام: «اعلموا أنه لن يؤمن عبدٌ من عباده حتى يرضى عن الله فيما صنعَ الله إليه، وصنع به، على ما أحبَّ وكره»^(١١).
هناك إشارةٌ مهمّةٌ في هذا الحديث المبارك علينا الالتفات لها، وهي أنّ حقيقة الإيمان لا تكتمل في شخصيّةٍ إلاّ وقد تحلّت هذه الشخصيّة بصفة الرضا، فالمؤمن الحقيقيّ راضٍ بكلِّ ما يجري في السراء، أو الضراء.
والإشارة الأخرى هي: أنّ الراضي بما قدّر له الله تعالى، يجب أن يكون رضاه في ما أحبَّ، وما كره، فقد يقدر الله تعالى لإنسان حياةً سعيدةً هانئةً، فيكون راضياً، ومن ثمّ يبتليه بالفقر، أو المرض، فيسخط، ويعترض على الله تبارك وتعالى، فمثل هذا الإنسان لا يكون قد وصل لحقيقة الرضا.

٢) الراحة في الرضا:

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «من رضي من الله بما قسم له، استراح بدنه»^(١٢).
الإنسان الراضي تراه قد سلّم كلّ أموره لله تبارك وتعالى، فنفسه مطمئنّة هادئة، وكذلك جسمه يكون سليماً من الأمراض، والعلل، فاستقرار الوضع النفسيّ للإنسان يساهم في الحدّ من تعرّضه للأمراض، والعلم الحديث قد أثبت هذا الترابط والتلازم بين الحالة النفسيّة للإنسان، وبين بدنه وجسمه.

وفي حياتنا العمليّة نجد الكثير من أصحاب الأموال والسلطة ساخطين على ما رزقهم الله تعالى، ومتنكرين لما تفضّل به عليهم، طالبين لأموال أكثر، وجاه أكبر، فيدفعهم هذا السخط إلى سلب حقوق الناس، والاعتداء عليهم، فيعيشون في صراعٍ

دائمٍ مع الشعوب، وسلطتهم - وجاههم - يكون ظاهرياً، بينما هم في الداخل يقاسون من التعب النفسي، والجسمي في نفس الوقت.

٣) الغنى ثمرة الرضا:

قال رسول الله ﷺ: « ارضَ بِقَسَمِ اللَّهِ، تكن أغنى الناس »^(١٣).

جاء في الرواية المزبورة ذكر (الغنى)، والمتبادر للذهن بدايةً عند قراءتها هو: أن الغنى المقصود هو الغنى المعنوي الروحي؛ لأن الحديث بصدد بيان فضيلة إحدى الكمالات الأخلاقية، فالرضا حالة نفسية روحية، تضي على صاحبها صفاء ونقاء كبيراً جداً، ولكن في نفس الوقت يمكن أن يكون الغنى أعم، فيشمل حتى الغنى المادي، فالذي رضي بما قسمه له ربه من رزق وخير يضاعف الباري جلال رزقه، ويبارك له فيه، فتصبح نفسه مطمئنة هادئة، وكذلك يكون رزقه واسعاً، وخيره كثيراً.

٤) الرضا سبب استجابة الدعاء:

جاء عن إمامنا الحسن الزكي عليه السلام قوله: «أنا الضامن لمن لا يهْجِسُ في قلبه إلا الرضا أن يدعو الله فيُستجاب له»^(١٤).

استجابة الدعاء لا تتحصّل للساخط والمعترض على الذات الإلهية المقدسة، فهذا السخط والاعتراض يجعل الكثير من الموانع والحجب بينه وبين ربه، فدعاؤه يصير مجرباً غير مستجاب، ويؤيد ذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في دعاء كميل: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء»، وربما يكون السخط أحد تلك الذنوب التي توجب حبس الدعاء، وعدم استجابته.

والتوفيق لاستجابة الدعاء هو غاية يسعى لأجلها الكثير من الناس، ولكن القليل منهم يوفق لبلوغها؛ لوجود موانع وحجباً تسدّ طريق استجابة الدعاء، والمانع

قد يكون في بعض الأحيان أن الواحد منا لا يعرف كيف يدعو الله تبارك وتعالى، فيظهر استياءه واعتراضه - مثلاً - من دون قصد، أو يعتبر نفسه مستحقاً لكامل معين، ففي المثاليين نكون قد اعترضنا على الذات الإلهية المقدسة، مع عدم إحساسنا بذلك، فنحرم من استجابة الدعاء.

ومن هنا فعلينا أن نهتم بقراءة أدعية أهل البيت عليهم السلام؛ لأنهم هم أصفياء الله تعالى، وأحبّاءه، الذين يعرفون على أي صورة يكون دعاء العبد للمعبود، وعلى أي صورة يناجي الحبيب المحبوب.

النقطة الثانية: ملاك الأجر والثواب:

قد يتساءل البعض منا عن الملاك الحقيقي للثواب، والفضيلة بالنسبة للعمل، فهل حسن نفس العمل هو الملاك في إدراك الثواب والأجر؟ أم أن هناك شيئاً آخر وراء نفس العمل؟

نستطيع القول بأن الملاك الحقيقي ليس نفس العمل فحسب، بل للنية الخالصة الراضية عن هذا العمل أساس في ملاك الثواب والفضيلة، وسرّ التلازم هنا بين خلوص النية والرضا هو: أن الرضا عن العمل أساس لخلوص النية، وصفائها. وبيان ذلك: أن العمل الصالح قد يحتاج لجهد؛ ليصل العبد في نهاية المطاف إلى ثمرة هذا العمل، ولكن هذا الجهد - إن لم يكن العبد متصفاً معه بالرضا - قد يقوده نحو الشيطان؛ حيث يعظم الشيطان عمله، ويزينه في عينه، فيصير في نفسه كبراً، وكأن له على الله تعالى حقٌ يجب أن يؤدّيه له!

فالعبد الحقير المسكين الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، صار متجرساً على مولاه، مائتاً عليه بعدد من الركعات، أو بصيام بضعة أيام، فلا يلتفت إلا وقد حُسر مع أصحاب النار، وبئس المصير.

النقطة الثالثة: الصبر على البلاء من الرضا:

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عَظِيمَ الْبَلَاءِ يُكَافَأُ بِهِ عَظِيمَ الْجَزَاءِ، وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ بِعَظِيمِ الْبَلَاءِ، فَمَنْ رَضِيَ لَهُ فَلَهُ الرِّضَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ»^(١٥).

عديدة هي الابتلاءات - والامتحانات - التي تصيب الإنسان في هذه الدنيا، فهناك الفقر، والمرض، والمظلومية، وغيرها من المصائب، ومن جهة أخرى قد يكون الامتحان - والاختبار - في الأعمال الصالحة من الصوم، والصلاة، والزهد، والقناعة، وما يمثّلها من الأعمال التي تحتاج لترويض النفس، وتهذيبها، فالإنسان إما أن يكون صابراً راضياً بما قدّر له الباري جَلَّ وَعَلَّ، فيكون من المرضيين عنده ﷻ، مع الأولياء والصالحين، أو أن يعترض على التقدير الإلهي، فتراه قد خلع ثوب الأدب والحياء في محض الذات الإلهية العظيمة، فيؤول مصيره إلى جهنم، يصلها مذموماً مدحوراً.

النقطة الرابعة: ارتباط الرضا بالمحبة:

الحبّ والعشق هو مصدر الرضا، ومنبعه، وكلّما كان المحبوب أكثر أهميةً بالنسبة للمُحِبِّ، كان مستوى الرضا عنده أرقى، وأرفع، فعباد الله الصالحين الذين تحمّلوا صنوف العذابات والشدّات، لم يكن رضاهم - وصبرهم - ناتجاً عن لا شيء، بل لأنّهم تعلقوا بالرحمة الإلهية، وبالجمال المطلق.

والرضا من هذه الزاوية - زاوية تحمّل الألم، والتعب، والمشقة؛ لأجل المحبوب - له مرتبتان:

المرتبة الأولى: وهي المرتبة التي يشعر فيها المحبّ بالألم، ولكنّه مع ذلك راضٍ بما قدّر له؛ لشدة غرامه بمحبوبه، فكلّ ما يصدر من محبوبه حسنٌ، وطيبٌ.

المرتبة الثانية: وتتميز هذه المرتبة عن سابقتها بأنَّ المحبَّ مع أنَّه مجروحٌ، و متألِّمٌ، إلاَّ أنَّه لا يشعر بما ألمَّ به؛ فهو قد أفنى نفسه في محبوبه إلى حدِّ أنَّه لا يدرك ما أصابه إلاَّ إذا رأى الدماء وهي تسيل، وتتصبَّب.

لكنَّ أحبَّتي، علينا ألاَّ نغفل عن هذه الحقيقة، وهي: أنَّ المحبوب الحقيقيَّ هو الله تبارك و تعالی، فكَلِّمنا همُنَّا وتهنَّا في حبه والقرب منه، كنَّا أكثر صبراً ورضاً على ما يعترينا في هذه الدنيا الفانية، وأبرز مثال على هذا الهيام هو سيرة أهل البيت عليهم السلام، وعلى الأخصَّ سيرة مولانا أبي عبد الله عليه السلام، فلو تأملنا قليلاً في سيرته لوجدنا الفناء المطلق، والذوبان التامَّ في حبِّ الله جبرئيل.

خاتمة:

بعد ما تقدّم من الحديث حول صفة الرضا نقول: إنَّه علينا أن نؤمن بقضاء الله تعالی وقدره، فننتيقن بأنَّ كلَّ ما قدره لنا هو من حكمته، وتدبيره، وأنَّ ما قدره لنا هو الأفضل لنا، وإنَّ كانت نفوسنا تكرهه، ولا تميل إليه، فنكون من عباده الصالحين، الذين لا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون. و آخر دعوانا أن الحمد لله ربَّ العالمين.

المواهب:

(١) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢١٠.

(٢) جامع السعادات، ج ١، ص ٣٩.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٥٦ .

(٤) لسان العرب، ج ١٤، ص ٢٩١.

- (٥) القاموس المحيط، ص ٢٩٤.
- (٦) ميزان الحكمة، ج ٤، ص ١٤٧٦.
- (٧) الأربعون حديثاً، ص ٢٤٧.
- (٨) الملحمة الحسينية، ص ٧١.
- (٩) اللهوف على قتلى الطفوف، ص ١٢٦.
- (١٠) ميزان الحكمة، ج ٤، ص ١٤٧٥.
- (١١) ميزان الحكمة، ج ٤، ص ١٤٧٥.
- (١٢) ميزان الحكمة، ج ٤، ص ١٤٧٧.
- (١٣) ميزان الحكمة، ج ٤، ص ١٤٧٧.
- (١٤) ميزان الحكمة، ج ٤، ص ١٤٧٧.
- (١٥) الخصال، للشيخ الصدوق، باب الواحد، صفحة ٦٤.

مناقشة كتاب

(آل البيت وحقوقهم الشرعية)

الحلقة الثانية

(فضائل آل البيت في القرآن والسنة)

حسن عبد الله القصاب

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين،
المصطفى الأجدد، المنصور المؤيد، أبي القاسم محمد، وآله الطيبين الطاهرين، الغرّ
الميامين، الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، وأوجب مودتهم في كتابه،
وأخصّ الصلاة والسلام على وليّ الله الأعظم، وإمام الدهر، الحجّة ابن الحسن،
أرواحنا لتراب مقدمه الفداء.

جاء في صفحة (١٤ و ١٥) من الكتاب ما سطره سماحة القاضي حول فضائل آل
البيت في القرآن الكريم، وقد كلف نفسه كثيراً في اختصار ما جاء من الفضائل بحق
أهل البيت عليهم السلام، فقد تطرّق القاضي إلى آيتين مباركتين في فضل أهل البيت عليهم السلام،
ولكن لو أردنا الإنصاف وذكر فضائل أهل البيت ممّا جاء في القرآن الكريم لاحتجنا
إلى تصنيف الكتب ممّا جاء بحقهم عليهم السلام في القرآن الكريم.

مقدمة البحث:

لا يزال البحث قائماً حول ما ورد في كتاب: (آل البيت وحقوقهم الشرعية)، ولا
زالت المناقشة مع سماحة القاضي الشيخ صالح بن عبدالله الدرويش، وقد قلنا سابقاً

بأن سبب ردنا على ما حوى هذا الكتيب لا يعود إلى تجديد في الشبهات والمسائل، وإنما كان السبب في الرد على هذا الكتيب دون سواه بسبب توزيعه، وانتشاره بين صفوف الشباب المثقف الشيعي، وكان هذا التوزيع يهدف إلى إعطاء صورة ناصعة عن عقيدة أهل السنة بأهل البيت عليهم السلام، وسنحاول - إن شاء الله - في هذه الحلقة من السلسلة بيان قسم ما ورد من فضائل أهل البيت بحسب عقيدة أهل السنة. وقد قام سماحة آية الله العظمى، الشيخ جعفر السبحاني بالرد على هذا الكتاب أيضاً، وهو مطبوع متداول في السوق.

وقفة مع صاحب الكتاب:

ادّعى صاحب كتاب: (آل البيت عليهم السلام)، وحقوقهم الشرعية) بأنهم عرفوا حق آل البيت، ولم يخصّصوا أهل البيت بعدد قليل، وكأن من تمام الحق لهم هو أن تُطلق عليهم أهل البيت فحسب، وجهل - أو تجاهل - التمسك بهم، والأخذ عنهم، وعمّا ورد منهم، فمجرد لقلقة لسان بأنهم عرفوا حقهم، وأحبّوهم، لا يكون كافياً لهم. ولا بدّ (في المقام) أن نفرّق جيداً بين (آل البيت) و(أهل البيت)، فالشيعة يقدّسون، ويحترمون، ويتبعون أهل البيت، لا عموم آل البيت، فالعلاقة بين آل البيت وأهل البيت عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ، فكلّ أهل البيت من آل البيت، وليس كل آل البيت هم أهل البيت.

ومّا يؤيد ذلك ما ورد في أمالي الصدوق، عندما سأل أبو بصير مولانا الصادق عليه السلام: من آل محمد؟ قال: ذريته. فقلت: من أهل بيته؟ قال: الأئمة الأوصياء. فقلت: من عترته؟ قال: أصحاب العباء. فقلت: من أمته؟ قال: المؤمنون، الذين صدّقوا بما جاء به من عند الله عزّ وجلّ، المتمسكون بالثقلين، الذين أمروا

بالتسّمك بهما: كتاب الله، وعترته أهل بيته، الَّذِينَ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرَّجْسَ،
وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً، وهما الخليفتان على الأُمَّة بعد رسول الله ﷺ.

وأخيراً، جاء الادّعاء بأنّهم هم الَّذِينَ يَجْبُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ، ويتمسكون بهم، وأتى
للقاضي أن يُثبت ذلك؟! وهو - ومن سار على منواله - على مرأى منهم ومسمع
بما فعله الحكّام الجائرون والطواغيت بأهل البيت، لما قتلوهم، وذبحوهم، وبنوا عليهم
البيوت، وأخذوا يقتلونهم بالظنّة، والتهمه بالتشيع، كما حصل في زمن معاوية، وابن
زياد، ويزيد بن معاوية لَعَلَّهُمْ، وكذلك قبل زمن الأمويين.

كما حصل بعد وفاة النبي الأكرم ﷺ من الهجوم على دار الصديقة الطاهرة،
فاطمة الزهراء ع، وأخذ عليّ ملبباً بحمائل سيفه؛ ليباع الخليفة الغاصب لمقام
الإمام عليّ ابن أبي طالب ع.

أَوْ هَلْ تُصَدِّقُ هَذِهِ الدَّعْوَى، بعد أن قتلوا الإمام الحسن المجتبي ع بيد زوجته،
بتغريير من معاوية بتزويجها ابنه يزيد الفاجر لعن الله؟!

أَوْ هَلْ تُصَدِّقُ هَذِهِ الدَّعْوَى، بعد أن قتلوا الإمام الحسين الشهيد بكر بلاء ع،
وسلبه، وأخذ نسائه سبايا، يُطَافُ بِهِنَّ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ؟!

أَوْ هَلْ تُصَدِّقُ هَذِهِ الدَّعْوَى، بعد أن قتلوا أولاد رسول الله، وشرّدوهم في
البلدان؟!

كلا، والله، فمن رضي بهذه الظلامه الواقعة على آل الرسول ﷺ لم يعرف
حقوقهم، ولم يحبّهم أبداً، كيف نصدّقكم في دعواكم هذه وأنتم لا زلتم تحترمون من
أساء إليهم، وقتلهم، وشرّدوهم؟! كما تحترمون الباغي معاوية بن أبي سفيان لعن الله،
وتحترمون يزيد لعن الله، الفاجر، الفاسق، اللعاب بالقردة، والضارب للطناير، والشارب
للخمر، القاتل للنفس المحترمة، الهاتك لحرمة البيت الحرام، ومروان، وأباه الحكم

طريد رسول الله ﷺ، وسائر بني أمية، الشجرة الملعونة في القرآن، وكذلك بني العباس، الذين سفكوا دماء أهل البيت عليهم السلام، واستباحوا الدماء، والأعراض، والأموال؛ من أجل تثبيت كرسي الخلافة.

كيف نصدقكم في دعوكم هذه، وأنتم لا زلتم تحبون الأشخاص الذين آذوا النبي في أهل بيته، وتقدسونهم، ولا ترضون عليهم أبداً؟!

كيف نصدقكم في دعوكم التمسك بهم، وأنتم منحرفون عنهم، تأخذون من أعدائهم، وتسيرون على منهج الحكام الظالمين لأهل البيت عليهم السلام، والغاصبين حقوقهم؟!

فالمنهج الذي تسيرون عليه هو ما ترتضيه السياسة المنحرفة عن منهج أهل البيت، فلذلك خالفتم جماعة المسلمين، وكفرتوهم.

حتى لو سلمنا أنكم أخذتم ذلك من الصحابة، فمن هم الصحابة الذين أخذتم منهم؟!

وهل أمرنا النبي الأكرم ﷺ أن نتمسك بالصحابة؟! أم بأهل بيته، كما ورد متواتراً في حديث الثقلين؟!

وأما أحاديثكم في الصحابة فجملة منها موضوعة مفترأة على نبي الرحمة والهدى ﷺ، فهي من موضوعات أبي هريرة، وكعب الأحمار، وغيرهم من الرواة الذين اشتريتهم السلطنة في تلك الأيام بدراهم معدودة، كما هو حال حديث العشرة المبشرين بالجنة، وحديث: (أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم)!!

لقد اخترعتم لكم منهجاً حينما تعثرتم وضللتم عن الطريق المستقيم، وتمسكتم بالصحابة الذين كانوا في أحلك الظروف يرجعون إلى أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، والتاريخ يشهد بذلك.

وقفَةٌ عند آية التطهير:

لا شكَّ أنَّ الكاتب ملتزمٌ ومصرُّ على تعميم فضيلة آية التطهير لكلِّ أهل النبيِّ الأكرم عليه وآله، حيثُ إنَّه لم يكتفِ بذكر المقطع الأخير من الآية، بل ذكر صدر الآية، وهي: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وقد ذكرنا في الحلقة الأولى بما فيه الكفاية حول هذه الآية المباركة، واختصاصها بالأشخاص الذين جللهم النبيُّ الأكرم عليه وآله بالكساء، وهذه الحادثة ممَّا تناقلها الكثير من المفسرين والمؤرخين.

وقد قلنا فيما سبق بأنَّ زوجات النبيِّ الأكرم عليه وآله خارجاتٌ من ذيل الآية المباركة، والتي فيها تطهيرهم من رجس الذنوب والمعاصي. لقد صرَّح جملةٌ من علماء التفسير - من قبيل الرازي في تفسيره - أنَّ هذه الآية تتضمن معنى العصمة لأهل البيت عليهم السلام، بمعنى عدم ارتكابهم للذنوب والمعاصي، مع قدرتهم على ذلك.

السيدة عائشة نموذجاً:

والتاريخ يشهد بأنَّ زوجات النبيِّ الأكرم عليه وآله لم يصلنَ إلى هذا المقام العالي، وذلك من خلال التتبع التاريخيِّ، والتأمل في المواقف، فعلى سبيل المثال - لا الحصر - خروج عائشة بنت أبي بكرٍ لمحاربة إمام زمانها أمير المؤمنين عليه السلام، وبصريح الآية أنَّ القرآن الكريم أمرها بلزوم بيتها، وعدم الخروج منه.

وكذلك موقفها تجاه الخليفة عثمان بن عفان، سواء في تأليب الناس على الخليفة، أو طلبها بدم عثمان.

ولا يفوتني أن أسأل سماحة القاضي عن مقولة أم المؤمنين، السيدة عائشة بنت أبي بكر في حق الخليفة الراشد عثمان بن عفان: (اقتلوا نعثلاً؛ فقد كفر).

نماذج من موقف أم المؤمنين تجاه الخليفة قبل مقتله:

مرَّ عبد الله بن عباس بعائشة - وقد ولَّاه عثمان الموسم - وهي بمنزلة من منازل طريقها، فقالت: يا ابن عباس، إن الله قد آتاك عقلاً، وفهماً، وبيانا، فأياك أن تردَّ الناس عن هذا الطاغية^(١).

وفي كتاب أمير المؤمنين عليه السلام - كتبه لما قارب البصرة إلى طلحة والزبير وعائشة -: «... وأنت يا عائشة، فأئك خرجت من بيتك عاصيةً لله، ولرسوله، تطلين أمراً كان عنك موضوعاً، ثم تزعمين أنك تريدين الإصلاح بين المسلمين، فخبّريني ما للنساء وقود الجيوش، والبروز للرجال، والوقوع بين أهل القبلة، وسفك الدماء المحرمة؟! ثم إنك طلبت على زعمك دم عثمان، وما أنت وذاك؟! عثمان رجل من بني أمية، وأنت من تميم، ثم بالأمس تقولين في ملاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: اقتلوا نعثلاً - قتله الله -؛ فقد كفر. ثم تطلعين اليوم بدمه؟! فاتقي الله، وارجعي إلى بيتك، واسبلي عليك سترك، والسلام»^(٢).

فإنما أن تكون أم المؤمنين على صواب في مقولتها، ومظلومية الخليفة، أو أنها مخطئة في ذلك، وعلى كل جواب سيكون طعناً في شخص لا يرضى القاضي بالطنع فيه.

وكلّ هذا يتنافى مع مقام تطهيرها من الرجس، هذا إذا سلّمنا بأنّها داخلةٌ في ضمن من عصمهم الله من الرجس، وطهرها تطهيراً.

الخلاصة:

إنّ مثل المواقف المتقدّمة للسيدة عائشة لا يمكن أن تُجمع مع العصمة التي تُفهم من الآيات، فكيف يمكننا أن نجمع بين الموقفين؛ بين العصمة التي أوجبها القرآن لأُمَّ المؤمنين عائشة، وبين مخالفتها لصريح القرآن في قوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؟!!

عودة للكاتب:

قال القاضي: (وجاء في صحيح مسلم، عن عائشة، قالت: (خرج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم) غداه، وعليه مرطٌ من شعرٍ أسود، فجاء الحسن بن عليّ، فأدخله، ثمّ جاء الحسين، فدخل معه، ثمّ جاءت فاطمة، فأدخلها، ثمّ جاء عليّ فأدخله، ثمّ قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

من روايتكم أدينكم:

طبعاً المصدر من أهمّ مصادر أهل السنّة والجماعة، ولا أحد منهم يمكنه الطعن فيه البتّة، وأيضاً رواية هذه الرواية امرأةٌ جلييلة القدر، عظيمة المنزلة والمقام، كيف لا وهي أمّ المؤمنين السيّدة عائشة؟! ولكن لنا أن نتأمّل من جديد في هذه الرواية: أولاً: إذا كانت هذه الآية لعموم أهل النبيّ - بما فيهم زوجاته، وأعمامه، وأبنائهم -، لماذا لم تدخل أمّ المؤمنين عائشة معهم تحت الكساء؛ حتّى تكون سادسة لهم؟! ولماذا لم يأمرها النبيّ الأكرم ﷺ بالدخول؟!!

ثانياً: لماذا لم يقرأ الآية من بدايتها؟! فإذا كانت الآية نازلةً في مناسبةٍ واحدةٍ، كان من الأولى أن يقرأ الآية بما ورد في صدرها. إنَّ النبيَّ الأكرمَ ﷺ لا يمكنه أن يبدأ بصدر الآية؛ باعتبار أن صدرها يخالف ذيلها، والذيل فيه أرفع معاني الطهارة، والعفة عن الذنوب، والأمر الأهم: أنه عليه السلام كان يتلو الآية بمحضر الأنوار الأربعة.

ثالثاً: لا بدّ أن نرجع إلى سبب نزول هذه الآية المباركة، وهي قد نزلت في بيت أمّ المؤمنين السيّدة أمّ سلمة، حيثُ قالت أمّ المؤمنين أمّ سلمة: إنَّ هذه الآية قد نزلت في بيتها، وهي همّت أن تدخل معهم تحت الكساء، إلاّ أن النبيَّ قال لها: لا، إنك إلى خير، إنك من زوجات النبيّ. ولا يبعد أن النبيَّ الأكرمَ ﷺ قد فعل ذلك مراراً أمام زوجاته؛ حتى يثبت لهنّ أنهنّ لسنّ ممن عني بهم النصّ القرآنيّ. من أراد المزيد حول هذه الآية يمكنه أن يُراجع مصادر التفسير والتاريخ في سبب نزول هذه الآية المباركة.

وقفه مع آية المباهلة:

وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٣).

وفي سبب نزول هذه الآية تواتر عن علماء التفسير نزولها بشأن نصارى نجران، حينما دعاهم النبيّ الأكرم ﷺ للإسلام، واعتراضهم على النبيّ الأكرم ﷺ حينما وصف نبيّ الله عيسى بأنه بشرٌ، واعتبروا كلام النبيّ الأكرم ﷺ إهانةً

للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولما اشتدت المناقشة فيما بينهم، دعاهم النبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى المباهلة.

ما نقله ابن عباس:

عن ابن عباس - وأخرج حديثه جمع من الحفاظ - قال: إن رهطاً من نجران قدموا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ... إلى أن قال: فسكت عنهم، فنزل الوحي: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ...﴾، ثم قال: وأيم الله أمرني إن لم تنقادوا للإسلام أباهلكم، ثم إنهم وعدوه إلى الغد، فلما أصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أقبل، ومعه علي، والحسن، والحسين، وفاطمة، وعند ذلك قال لهم الأسقف: إني لأرى وجوهاً لو سألو الله أن يزيل الجبل لأزاله، فلا تباهلوا، فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني. فقال له: لا نباهلك ^(٤).

وكما في بعض الروايات ذكرت أنه: إذا باهلنا بقومه باهلناه؛ فإنه ليس نبياً، وإن باهلنا بأهل بيته خاصة لم نباهله؛ فإنه لا يقدم إلى أهل بيته إلا وهو صادق. ما نقله الثعلبي في تفسيره عن مجاهد والكلبي: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر. فلما تحالوا قالوا للعاقب - وكان ذا رأيهم - يا عبد المسيح، ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لنهلكن، فإن أبيتم إلا إلف دينكم، والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل، وانصرفوا إلى بلادكم... .

ومن خلال التأمل في مجموع هذه الروايات والنصوص المنقولة عن الحادثة، تتضح أهمية المباهلة أولاً لإثبات صدق النبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، والأمر الآخر: إثبات درجة - ومقام - الذين أخرجهم النبي لإثبات صحة دعواه، ويتضح جلياً في كلمة

الأسقف: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا، فتهلكوا.

احتجاج أمير المؤمنين بالحديث:

ذكر ابن حجر في الصواعق قال: أخرج الدارقطني أن علياً يوم الشورى احتج على أهلها، فقال لهم: أنشدكم بالله، هل فيكم أحدٌ أقربُ إلى رسول الله ﷺ في الرحم مني، ومن جعله ﷺ نفسه، وأبناءه أبناءه، ونساءه نساؤه غيري؟! قالوا: اللهم لا.

فهذه منزلة أهل البيت عند النبي الأكرم ﷺ، وهذا مقامهم يحدّثنا به القرآن الكريم، وخصوصاً ما يرتبط بأمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب من جعله نفساً له ﷺ، حتّى قالوا: بأنّ علياً له مقامات النبي كلّها، سوى النبوة. وهذا ما ذكره سماحة السيّد عليّ الميلاني في بحثه (آية المباهلة)، حيث يقول: (... ولم يُخرج رسول الله إلاّ علياً، فكان عليّ نفس رسول الله، إلاّ أن كونه عليّ نفس رسول الله بالمعنى الحقيقي غير ممكن، فيكون بالمعنى المجازي هو المراد... فأقرب المجازات إلى المعنى الحقيقي في مثل هذا المورد هو: أن يكون عليّ مساوياً لرسول الله ﷺ، إلاّ أن المساواة مع رسول الله في جميع الجهات - وفي جميع النواحي - حتّى النبوة، لا. فتخرج النبوة بالإجماع على أنّه لا نبيّ بعد رسول الله، وتبقى بقيّة مزايا رسول الله، وخصوصيات رسول الله، وكمالات رسول الله موجودة في عليّ، بمقتضى الآية المباركة^(٥).

عودة للكاتب:

إنّ القاضي اكتفى بذكر هاتين الآيتين في فضائل أهل البيت عليهم السلام، ولكن ما جاء في حقهم كثيرٌ وكثيرٌ، سواء بالعموم، أو بالخصوص.

علي في القرآن الكريم:

(١) عن ابن عباس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن القرآن أربعة أرباع، فربعٌ فينا أهل البيت خاصةً، وربعٌ في أعدائنا، وربعٌ حلالٌ وحرامٌ، وربعٌ فرائضٌ وأحكام، وإن الله أنزل في عليٍّ كرائم القرآن»^(٦).

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنه: «نزل في عليٍّ أكثر من ثلاثمائة آية في مدحه»^(٧).

(٣) عن مجاهد قال: نزلت في عليٍّ سبعون آيةً، لم يشركه فيها أحدٌ^(٨).

(٤) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ليس من آية في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا وعليٌّ أميرها، وشريفها، ولقد عاتب الله أصحاب محمد في القرآن، وما ذكر عليًّا إلا بخير.

(٥) عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من الفضائل ما جاء لعليٍّ ابن أبي طالب. وتُقل عنه أيضاً أنه كان يقول: ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح ما لعليٍّ.

فهذا هو إمام القاضي يصرِّح بأن ما جاء في فضل أمير المؤمنين لم يأت لأحد من الصحابة كلهم، فما لنا نراه يساوي غيره من الصحابة به، بل يفضل الآخريين عليه؟! لم لم ينصف القارئ حينما أعرض عن ذكر فضائل أهل البيت، وإمامهم الأول؟! لماذا أرجع الكاتب إلى صحيح البخاري^(٩)، وصحيح مسلم بالذات في الأخذ بروايات الفضائل؟! لا أدري، لعل اللبيب يدري، وكما تعودنا، فإن يد السياسة قد دخلت في هذا الكتيب الصغير أيضاً^(١٠).

آية المودة:

إضافة لما ذكره سماحة القاضي، أحببت أن أذكر جملةً من الآيات التي نزلت في فضل أهل البيت عليهم السلام؛ وذلك تيمناً بذكرهم.

ومّا جاء في القرآن الكريم بفضل أهل البيت عليهم السلام آية المودة، وهي قوله - عزّ من قائل -: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (١١).

إنّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله - وبقية الأنبياء السابقين - لم ينتظروا من أقوامهم، وعشائرتهم، وجماعاتهم أيّ أجرٍ مقابل الدعوة الإلهية، ولقد بيّنت جملةً من الآيات هذا الأمر على لسان جملةٍ من الأنبياء، وإنّما حصروا الأجر والمجازاة من الله، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

ولما جاء المسلمون للنبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله لكي يعطوه أجراً على صبره وتحمله ما لقي من وجهاء قريش، والمشركين، ومن المنافقين، نزل الوحي أن يا محمد قل: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ اقتداءً بالأنبياء السابقين، ولكن بما أنّ هذه الشريعة خاتمة، وهي بحاجةٍ إلى من يبلغها إلى قيام الساعة، فربط قضية الأجر بقرباه عليهم السلام ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، وهذه توصيةٌ من النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله بقرباه، حتّى جاء المسلمون يسألون النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله: مَنْ هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ أو في نقلٍ آخر: مَنْ قرابتك الذين فرض الله علينا مودّتهم؟ قال: عليٌّ، وفاطمة، وابناهما (١٢).

هذه فضيلةٌ خاصةٌ بأهل البيت عليهم السلام، لا يشاركون فيها أحد، وهذه المحبة والمودة إليهم خاصةٌ، لا كما يدّعيه الكاتب، وما يقرّره من أنّ المحبة والمودة لانتسابهم للنبيّ الأكرم، وكأنّما يريد أن يُلغي الخصوصية لأهل البيت، وأنّهم نالوا هذه الفضيلة والمنقبة فقط لأنّهم أهل بيت النبيّ.

آية هل أتى:

ومّا جاء في فضل أهل البيت عليهم السلام أيضاً قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا...﴾ (١٣).

حيث ينقل ابن عباسٍ أنّ الحسن والحسين مرضا، فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله في ناسٍ معه، فقالوا: يا أبا الحسن، لو نذرت على ولدك، فنذر علي، وفاطمة، وفضة - جارية لهما - إن برئ مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام، فشفيا، وما معهم من شيء، فاستقرض عليٌّ من شمعون اليهودي ثلاثة أصواعٍ من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً، واختبزت خمسة أقراصٍ على عددهم، فوضعها بين أيديهم؛ ليفطروا، فوقف عليهم سائلٌ، فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله، مسكينٌ من مساكين المسلمين، أطعموني، أطعمكم الله من موائد الجنة. فأثروه، وباتوا لم يذوقوا إلا الماء، وأصبحوا صياماً، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم، وقف عليهم يتيمٌ، فأثروه، ووقف عليهم أسيرٌ في الثالثة، ففعلوا مثل ذلك، فلما أصبحوا أخذ عليٌّ بيد الحسن والحسين، وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع، قال: ما أشد ما يسوؤني ما أرى بكم. وقام، وانطلق معهم إلى فاطمة في محرابها، قد التصق ظهرها ببطنها، وغارت عيناها، فساء ذلك، فنزل جبرئيل، وقال: خذها يا محمد، هنالك الله في أهل بيتك، فأقرأه السورة.

آية النجوى:

وهذه الآية من الآيات التي اختص بها أمير المؤمنين، ومولى الموحدين، أبو الحسن والحسين، عليّ ابن أبي طالب، (عليه آلاف التحية والسلام)، حيث لم يعمل بها إلا هو.



قال تعالى - موجّهاً خطابه للمسلمين -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤).

وفي سبب نزول آية النجوى يذكر المفسرون أن الأغنياء كانوا قد أكثروا مناجاة رسول الله ﷺ، وغلبوا الفقراء على المجالس عنده، حتى كره رسول الله ﷺ ذلك؛ لطول جلوسهم، ومناجاتهم، فأنزل الله الآية.

وأيضاً يذكر المفسرون بأن المسلمين بعد نزول هذه الآية المباركة لم يقوموا بمناجاة الرسول ﷺ، وأن الشخص الوحيد الذي عمل بهذه الآية هو علي ابن أبي طالب، حيث نقل الطبري في تفسيره، والواحدي في أسباب النزول، وغيرهما على لسان علي ابن أبي طالب أنه قال: إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، آية النجوى، كان عندي دينار، فبعته بعشرة دراهم، فكنت كلما ناجيت رسول الله قدمت بين يدي نجواي درهماً.

وهناك الكثير من الآيات التي نزلت في فضل أهل البيت ﷺ، أو في الإمام علي ابن أبي طالب ﷺ بالخصوص، ولكن لم يسع الوقت لتسطيرها، نأمل في القريب العاجل أن ندون ما استطعنا تدوينه من فضائله، ومناقبه.

الخلاصة:

إن فضائل أمير المؤمنين ﷺ وأهل البيت ﷺ أكثر من أن تحصى في هذا البيان، وإن كلمة الإمام أحمد بن حنبل لأبلغ في إثبات كثرة الفضائل والمناقب التي حازها مولانا أمير المؤمنين ﷺ، ومن خلال نفس كلمة الإمام أحمد نستشف بأنه ﷺ

أفضل من سائر الصحابة، وهو الفاضل، وغيره مفضولٌ، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله.

المناقشة التاسعة:

بعد أن سرد المؤلف هذه التهم، واستغفل القارئ فيها، وأبان للجاهل بأن هذه هي معتقدات الشيعة، جاء ليثبت للبسطاء أن عقيدة أهل السنة في أهل البيت هو ما قرره شيخه ابن تيمية، المعلن للنصب والعداوة لأهل البيت عليهم السلام، الطاعن في مقاماتهم، المنكر لفضلهم.

حيث نقل الكاتب عن شيخه ابن تيمية ما يلي:

(ويحبون - أي: أهل السنة والجماعة - أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله) [وآله] ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وآله [وآله] وسلم، حيث قال في يوم غدیر خم: أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي).

لكي لا يكون كلامنا مجرد دعوى وتهم ضد شيخهم ابن تيمية، نستعرض بعض ما بحثه المحقق، آية الله السيد علي الميلاني حول شخصية ابن تيمية.

وقفه يسيرة حول ابن تيمية ونصبه العداوة لأهل البيت عليهم السلام، وعلى الخصوص إمامهم أمير المؤمنين عليه السلام:

نختصر المقام بذكر ما قاله المحقق، آية الله السيد علي الميلاني رحمته الله حول بغض ابن تيمية لعلي ابن أبي طالب عليه السلام:

(وأبدأ بحثي بكلمة لابن حجر العسقلانيّ الحافظ، بترجمته من كتاب: (الدرر الكامنة، في أعيان المائة الثامنة)، حيث يذكر قضايا مفصلةً بترجمة ابن تيمية، وحوادث كلها قابلةٌ للذكر، إلا أنني أكتفي بنقل ما يلي:

يقول الحافظ: وقال ابن تيمية في حقّ عليّ: أخطأ في سبعة عشر شيئاً، ثمّ خالف فيها نصّ الكتاب... إلى أن يقول: ومنهم من ينسبه - أي: ابن تيمية - إلى النفاق؛ لقوله في عليّ ما تقدّم، - أي أنه أخطأ في سبعة عشر شيئاً -، ولقوله: إنه - أي: عليّ - كان مخذولاً حيثما توجه. وأنه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها. وإثماً قاتل للرئاسة لا للديانة. ولقوله: إنه كان يحبّ الرئاسة. ولقوله: أسلم أبو بكر شيخاً يدري ما يقول، وعليّ أسلم صبيّاً، والصبيّ لا يصحّ إسلامه. وبكلامه في قصّة خطبة بنت أبي جهل، وأنّ عليّاً مات وما نسيها.

فإنّه شنّع في ذلك، فألزموه بالنفاق، لقوله (صلى الله عليه [وآله] وسلّم): ولا يبغضك إلا منافق^(١٥).

ومن خلال كلمة ابن حجر، فلو وصفنا ابن تيمية بالمنافق، لم يكن ذلك بدعاً. ثمّ يقول ابن تيمية في منهاجه:

(إنّ الرافضة تعجز عن إثبات إيمان عليّ وعدالته... فإنّ احتجّوا بما تواتر من إسلامه، وهجرته، وجهاده، فقد تواتر إسلام معاوية، ويزيد، وخلفاء بني أمية، وبني العباس، وصلاتهم، وصيامهم، وجهادهم).

وفي مكان آخر قال:

(لم يُعرف أنّ عليّاً كان يبغضه الكفّار، والمنافقون).

وأيضاً قال:

(كلّ ما جاء في مواقفه في الغزوات - كلّ ذلك - كذب).

وإلى هنا نصل إلى ابن تيمية في إنكاره لفضائل أمير المؤمنين، ومولى المتقين، وقائد الغر المحجلين؛ حتى يتبين للقارئ المنصف: هل أن ابن تيمية وأتباعه - والمؤلف ممن يتبع شيخه ابن تيمية - عرفوا حقهم، وحفظوا فضائلهم، أم هو زعم لا يقوم عليه دليل؟! لا

نترككم الآن مع نصب وعداء ابن تيمية بحق أمير المؤمنين عليه السلام:

(١) حديث: «أنا مدينة العلم، وعليُّ بابها»، يقول فيه:

وحديث: «أنا مدينة العلم، وعليُّ بابها» أضعف وأوهى، ولهذا إنما يعد في الموضوعات (١).

مناقشة ابن تيمية:

ادّعى المذكور بأن هذا الحديث موضوع، مع أن من رواه كل من:

- أحمد بن حنبل.

- الترمذي.

- ابن جرير الطبري.

- الحاكم النيسابوري.

- البيهقي.

- ابن الأثير.

- النووي.

- ابن حجر العسقلاني.

- السيوطي.

- ابن حجر المكي.

وقد صححه غير واحد من هؤلاء الأئمة.

٢) وحول حديث: «أقضاكم علي»، يقول:

فهذا الحديث لم يثبت، وليس له إسنادٌ تقوم به الحجّة، لم يروه أحدٌ في السنن المشهورة، ولا المساند المعروفة، لا بإسنادٍ صحيحٍ، ولا ضعيفٍ، وإنما يروى من طريق من هو معروفٌ بالكذب^(١٧).

مناقشة ابن تيميّة:

هذا الحديث موجودٌ في: صحيح البخاريّ، في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا نَأْتِ بَخَيْرٍ مِنْهَا﴾، كذا في الدرّ المنثور، وعن النسائيّ أيضاً، وابن الأنباريّ، ودلائل النبوة للبيهقيّ، وهو في الطبقات لابن سعد، وفي المسند لأحمد بن حنبل، وبتريجة الإمام عليّ^{عليه السلام} من سنن ابن ماجه، وفي المستدرک على الصحيحين، وقد صحّحه، وفي الاستيعاب، وأسد الغابة، وحلية الأولياء، وفي الرياض النضرة، وغيرها من الكتب^(١٨).

ويقول ابن تيميّة:

وقوله - أي العلامة الحلبيّ - (ابن عباسٍ تلميذ عليّ). كلامٌ باطل^(١٩).

في مقام الردّ:

يقول المتأوي في فيض القدير بشرح حديث: «عليّ مع القرآن، والقرآن مع عليّ»، يقول: ولذا كان - أي: الإمام عليّ^{عليه السلام} - أعلم الناس بتفسيره... إلى أن قال: حتّى قال ابن عباسٍ: ما أخذتُ من تفسيره - أي: تفسير القرآن - فعن عليّ^(٢٠).

ويقول أيضاً:

وأما قوله: قال رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): «أقضاكم علي»، والقضاء يستلزم العلم والدين، فهذا الحديث لم يثبت، وليس له إسنادٌ تقوم به الحجّة، وقوله: «أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل» أقوى إسناداً منه، والعلم بالحلال والحرام ينتظم القضاء أعظم ممّا ينتظم للحلال والحرام^(٢١).

ويقول أيضاً:

والمعروف أنّ علياً أخذ العلم عن أبي بكر^(٢٢). للصدق حدودٌ، والكذب لا حدود له، فتأمل.

ويقول أيضاً:

له - أي: لأمر المؤمنين - فتاوى كثيرةٌ تخالف النصوص^(٢٣).

ويقول أيضاً:

وعثمان جمع القرآن كلّه بلا ريب، وكان أحياناً يقرؤه في ركعة، وعليّ قد اختلف فيه، هل حفظ القرآن كلّه أم لا؟^(٢٤)

كانت هذه وقفةً يسيرةً حول أقوال ابن تيميّة، - الذي عرف مقام أهل البيت، وأقرّ بفضائلهم كما يدّعيه المؤلف -، ومن أراد المزيد من دعاواه فليراجع منهاج السنّة، هذا الكتاب المليء بالدعاوى المفتراة على الأئمّة، وعلى جميع علماء أهل السنّة، وينسب لهم أقوالاً لم يقولوها، ويدّلس على الجهّال، ومن لا فقه له، ولا علم. بعد هذه الوقفة نقول لهذا الكاتب الذي استغفل القارئ: أيّ فضيلة لعليّ ابن أبي طالب عليه السلام لم ينكرها؟! وماذا تبقى حتى ينكره؟! وهل تصدّق الآن - أخي العزيز - هذه الدعاوى التي يدّعيها المؤلف وأتباعه؟!

فهؤلاء المدعون - وبهذه الدعاوى، وهي محبتهم لأهل البيت عليهم السلام - يريدون أن يجلبوا قلوب الشيعة إليهم، ويستمعوا منهم، على أنهم على حقٍّ وهدى، ولكن أتى لهم أن يخدعوا مشاعر المسلمين؟! ويدعون حبَّ أهل البيت عليهم السلام، وها هي أباطيلهم منتشرة بين المؤلّفات.

المواهب:

- (١) الغدير، ج ٩، ص ١١٦، نقلاً عن أنساب الأشراف للبلاذري: ج ٦، ص ١٩٣.
- (٢) الغدير، ج ٩، ص ١١٨، نقلاً عن تذكرة الخواص: ص ٦٩.
- (٣) آل عمران: ٦١.
- (٤) روح المعاني للآلوسي، الدر المنثور للسيوطي، شواهد التنزيل للحاكم، وتفسير الطبري.
- (٥) آية المباهلة: ص ٣٠.
- (٦) شواهد التنزيل للحاكم، ج ١، ص ٤٢-٤٣.
- (٧) ينباع المودّة للقندوزي، ص ١٢٦.
- (٨) شواهد التنزيل.
- (٩) كلمة القاضي: «... أيها القارئ الكريم - من غير إلزام - انظر في فهارس صحيح البخاري، ومسلم، وغيرها من مصادر أهل السنّة؛ لكي تدرك الأحاديث التي رواها أهل السنّة في كتبهم في مناقب وفضائل أهل البيت، والتي منها ما روي عامّاً، ومنها ما ورد بذكر الأعيان». آل البيت وحقوقهم الشرعيّة: ص ٢٠.
- (١٠) ذكر مجموعة من المحققين والكتّاب بشأن تعظيم صحيح البخاري ومسلم لأمر، وكان من أهمّها أنّ هذين الرجلين كانا منحرفين عن أهل البيت عليهم السلام، ولهذا صار هذان الكتابان من أعظم الكتب بعد كتاب الله، وتجد ذلك جلياً لعدم ذكرهم ولا رواية واحدة عن الإمام جعفر بن محمد الصادق، مع أنهم جاؤوا من بعده، ويصرّح بعضهم بأنّ هذه العظمة والقدسية والمنزلة للبخاري بالذات، ومسلم كان لإعراضهم عن أهل البيت متابعةً للحكام الجائرين في تلك الفترة.

- (١١) سورة الشورى، ٢٣.
- (١٢) تفسير الرازي، الزمخشري في الكشّاف، الألويسي في روح المعاني، ابن كثير في تفسيره، البيضاوي في تفسيره، السبوطي في الدر المنثور في تفسير الآية.
- (١٣) سورة الإنسان، الآيتان ٧ - ٨.
- (١٤) سورة المجادلة، الآية ١٢.
- (١٥) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ١/١٥٤ - ١٥٥.
- (١٦) منهاج السنّة: ج ٧، ص ٥١٥.
- (١٧) منهاج السنّة: ج ٧، ص ٥١٢.
- (١٨) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج ٢، ق ٢، ص ١٠٢.
- (١٩) منهاج السنّة: ٧ / ٥٣٦.
- (٢٠) فيض القدير في شرح الجامع الصغير، ٤/٣٥٧.
- (٢١) منهاج السنّة: ٧ / ٥١٢ - ٥١٣.
- (٢٢) منهاج السنّة: ٥ / ٥١٣.
- (٢٣) منهاج السنّة: ٧ / ٥٠٢.
- (٢٤) منهاج السنّة: ٨ / ٢٢٩.

آثار الذنوب

عيسى جاسم القفاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، واللعن الدائم المؤبد على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١)، وجاء في دعاء كميل بن زياد - الذي علّمه إياه أمير المؤمنين عليه السلام -: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء»^(٢).

اهتمّ الشارع اهتماماً بالغاً بمسألة الذنب، وخطورة الذنب، وتأثيره السلبيّ الكبير على نفس المذنب، وعلى حياته، وعلى غيره من الناس، وغير الناس، لذا جاءت الآيات الكثيرة التي تتحدّث عن المعاصي والذنوب، وعن الطاعة والالتزام؛ وذلك لأنّ ترك الذنوب، والتزام الطاعة، هو الهدف الذي من أجله خلق الإنسان، وبهما تتحقّق معرفته الصحيحة لربه ﷻ، ولذا يعبرّ زين العابدين عليه السلام عن الذنب بأنّه فجيعةٌ عظيمةٌ: «ولا تفجعني فيه - وفي غيره من الليالي، والأيام - بارتكاب المحارم، واكتساب المآثم»^(٣).

والهدف الأساس من تأكيد الآيات والروايات على خطورة الذنب - وتأثيره السلبيّ - هو: تقبيح الذنب في نفس الإنسان، وخلق حالة الكراهية له في قلبه، وتخويفه من الوقوع فيه؛ فإنّ الإنسان بمقدار ما يدرك من تأثير سلبيّ للذنب، فإنّه لا

يقدم عليه، وهذا هو سرّ عصمة الأنبياء، والأئمة، والأولياء؛ حيث أطلعهم الله على حقائق الذنوب، فلا يقربوها؛ لما لهم من إدراكٍ كاملٍ بتأثيرها السلبيّ الخطير، ونحن في هذه الوقفة القصيرة نريد أن نقف على بعض الآثار السلبية للذنوب.

السقوط من عين الله:

«إلهي، إن كانت الخطايا قد أسقطتني لديك، فاصفح عنيّ بحسن توكلي عليك»^(٤)، أول تأثير سلبيّ توجبه الذنوب هو: السقوط من عين الله، فإنّ الذنب يعني التجرؤ على الله، ويعني الانقياد لأسر النفس والشهوات؛ لأنّ المذنب عبد نفسه، ورقُّ لشهواته، ومن حاله كذلك يكون صغيراً وذليلاً عند الله، وربما كان في عين الناس من المقدسين، إلاّ أنّه في الميزان الواقعيّ ليس إلاّ عبداً ذليلاً لشهواته ورغباته، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أزرى بنفسه من ملكته الشهوة، واستعبده المطامع»^(٥) ومعنى سقوط العبد من عين الله: تسافل كماله، وقلة رعاية الباري له، وبخلافه، فإنّ العبد عندما يعتني به ربّه، ويتوجّه إليه، فإنّه يتكامل بذلك، ويعظم عند الله.

تأذي أهل البيت عليهم السلام:

أعطى الله أهل البيت عليهم السلام القدرة على الاطلاع على جميع أعمال العباد، وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٦) أنّ (المؤمنون) هم أهل البيت عليهم السلام، لذا فإنّهم يفرحون إذا ما عمل الناس صالحاً، ويتأذون فيما إذا عمل الناس سوءاً، وقد ورد عن سماعة، عن أبي عبد الله عليه السلام، يقول: «مَا لَكُمْ تَسُوءُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؟! فَقَالَ رَجُلٌ: كَيْفَ نَسُوءُهُ؟! فَقَالَ: أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيْهِ؟! فَإِذَا رَأَى فِيهَا مَعْصِيَةً سَاءَهُ ذَلِكَ، فَلَا

تَسُوءُوا رَسُولَ اللَّهِ، وَسُرُوهُ»^(٧)، وهكذا الحال بالنسبة إلى جميع أهل البيت عليهم السلام كما تذكر الروايات، فقد جاء عن يعقوب بن شعيب، قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. قال: «هم الأئمة»^(٨)، ويقول الشيخ الجواديّ الأملّي في قوله تعالى - حكايةً عن لسان إبراهيم -: ﴿أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ﴾^(٩): إنَّ هذا الخطاب ليس خاصاً بإبراهيم فحسب، وليس خاصاً بحال عبادة الأصنام، بل شأن كلِّ وليٍّ - في كلِّ زمانٍ ومكانٍ - أن يقول لكلِّ من يعصي: أفِّ لك، ولما تعبد. فصاحب الزمان عليه السلام (وعجل الله له الفرج) الآن يقول لكلِّ من يتجرأ على الله: أفِّ لك، ولما تعبد. فإنَّ كلِّ من يعصي الله عبداً غيره، وأشرك.

تهيئة النفس للسقوط الكبير:

الذنوب تهيبُّ النفس للوقوع في المنزقات الخطيرة التي ربما لا يفتح للعبد بعدها بابٌ للرجوع، فالذنب على الذنب يسود القلب، ويهيئ النفس لحالة الانحراف، والسقوط الكبير؛ لأنَّ القلب كلما فقد النور قلَّت حصانته، وتهيأ للوقوع في الذنب الكبير، كالشرك، والخروج على الإمام عليه السلام، كما حصل مع بعض أهل الكوفة مثلاً، وقد حذرتُ روايات أهل البيت عليهم السلام من هذا الخطر الكبير، عن أبي بصيرٍ قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت، حتى تغلب على قلبه، فلا يفلح بعدها أبداً»^(١٠)، من هنا يعلم الإنسان أنه لا مبرر للتساهل في أمر الذنوب، وإن صغرت. عن الإمام الرضا عليه السلام: «الصغائر من الذنوب طرقٌ إلى الكبائر، ومن لم يخف الله في القليل، لم يخفه في الكثير»^(١١).

الضعف عن تشخيص الحق:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾^(١٢)؛ لأن: «المؤمن ينظر بنور الله»^(١٣)، و«أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع»^(١٤)، فكما أن التقوى من أسباب القدرة على التمييز بين الحق والباطل، فإن الذنوب من أسباب فقدان القدرة على تشخيص الحق من الباطل؛ لأن الذنوب تثير غباراً على قوة العقل والفتنة التي أودعها الله في الإنسان لإدراك الحق^(١٥). عن رسول الله ﷺ: «من قارف ذنباً فارقه عقلٌ لا يرجع إليه أبداً»^(١٦)، وما أحوج الإنسان في حياته لتمييز الحق من الباطل، في الأفكار، والأفعال، وربما يؤدي به ضعفه عن تمييز ذلك إلى التردّي، والانحطاط، واختيار سبيل الهاوية، والضلال، سيّما في الحالات المصيريّة.

فقدان المحبة من القلوب:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(١٧)، وهذا وعدٌ إلهيٌّ بأن الله سيجعل لمن آمن واتقى حباً في قلوب العباد، في الدنيا والآخرة، ولذا ورد في تفسير هذه الآية أن المراد به هو أمير المؤمنين عليه السلام، من باب ذكر المصداق الأكمل، فإن الإنسان كلّما طهر وكمل أحبه الناس أكثر؛ لأن الإنسان مجبولٌ على حبّ الكمال والطهر، وبعكس ذلك، فإن الإنسان كلّما تلوّث أكثر، قلّت محبة العباد له، وهذا أحد أضرار الذنوب، فإن الذنوب يلوّث الإنسان، ويتسافل به، ومن فوائد حبّ الناس للعبد في الدنيا قدرته على التأثير في قلوبهم، وهدايتهم، والاستعانة بهم على الخير، وقمع الظلم، فمن دون المحبة لا يتحقق ذلك، ولذا ورد في بعض الأدعية الطلب من الله بأن يجعل الإنسان محبوباً بين الناس، يقول زين العابدين عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد، وأبدلني من بغضة أهل الشنآن المحبّة».

كراهية الحق والعمل الصالح:

تجعل الذنوب نفس الإنسان تميل إلى الباطل، وتأنس به، وتحبّه، وترغب فيه، فيرى نفسه منجذباً نحو الباطل، والعمل الطالح، ويرى نفسه كارهاً للحقّ والعمل الصالح، فلا يطيق أن يجلس مع ربّه ليناجيه، ولا يطيق أن يقوم من نومه ليصلي، ولو فعل لكان ذلك على نفسه ثقيلاً جداً، وليس ذلك إلاّ لأنّ نفسه أنست بالباطل، ولم يعد يحبّ الخير، يقول زين العابدين عليه السلام في خطابه لربّه: «أو لعلك رأيتني آلفُ مجالس البطّالين، فبيني وبينهم خلّيتني؟!»،^(١٨) فإنّ من أسباب الألفة لمجالس البطّالين الذنوب، والمعاصي، والتجرؤ على الله، وكثير من الناس يجد من نفسه النفور من الحقّ، وعمل الخير، ولا يجد مبرراً واضحاً لذلك، وربما يكون ساخطاً على هذه الحالة التي يشعر بآثارها السيئة في حياته ومصيره الأبديّ، ولو تأمّل هذا الإنسان قليلاً لوجد أنّ من أهم أسباب ذلك هو اقرار الذنوب؛ لأنّ النفس الطاهرة تميل إلى الحقّ، فإذا تلوّثت مالت إلى الباطل على قاعدة: ﴿كُلُّ يَعْْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾^(١٩).

هتك العصم:

جاء في دعاء كميل: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم»، يقول المولى المازندراني: «عصم كعنب، جمع عصمة، وهي خصلة مانعة من المعصية، شبهها بالسائر بقريئة الهتك، والذنوب إذا كثرت - وتراكت - تهتكها، وترفعها بالمرّة، حتى لا يبالي المذنب بأيّ ذنب ورد، ولا بأيّ وادٍ هلك، وقد يصدر الهتك من ذنب واحد كسرب الخمر»^(٢٠)، وليس للإنسان من مانع عن ارتكاب المعاصي إلاّ هذه العصم التي جعلها الله في نفس الإنسان، فإذا فقدتها فما الذي بقي له؟! لا يبقى له إلاّ دواعي الفجور والعصيان، فلا تعود للإنسان فائدة أو قيمة تُقدّر، فيكون - بعد

ذلك - الموتُ أولى له، « فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان، فاقبضني إليك، قبل أن يسبق مقتك إليّ، أو يستحكم غضبك عليّ»^(٢١).

إنزال البلاء:

من رحمة الله بعبده أن يوجهه نحوه بأيّ وسيلة كانت؛ لكي يرزقه السعادة السرمديّة، وجعل لذلك وسائل كثيرة، فأرسل له الرسل، وأعطاه فطرةً تحبّ الخير، وفي بعض الأحيان يوفّقه لجذبات خاصّة، فقد ورد: «إنّ لربّكم في أيّام دهركم نفحاتٍ، ألا فتعرّضوا لها»^(٢٢)، وأحياناً يرفع غفلته بأخذ عزيزٍ عليه؛ ليذكّره بالموت والآخرة، ومن وسائل التذكير طريقة إنزال البلاء والعذاب، كالزلال، والفقر، والمرض، وأمثال ذلك؛ ليرجع عن غفلته، وتكبره، وعصيانه لربّه، وهذا منطلق المحبّ الذي لا يقبل لمحبوبه إلاّ الخير، وإن كان ذلك بمظهر الغضب، فإنّ غضب الله عين رحمته؛ لأنّ رحمته سبقت غضبه، «يا من سبقت رحمته غضبه»^(٢٣)، وهذه واحدة من فلسفات إنزال العذاب، نعم، أحياناً يكون العذاب للاستئصال والإفناء، وليس للتنبيه، كما حصل مع بعض الأمم السالفة، مثل قوم لوط، وهذا لا يكون إلاّ حينما يكون المغضوب عليه لا يُرجى منه خيرٌ ولا هدايةً، قال تعالى - على لسان نوح - : ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^(٢٤).

وقد ذكرت الروايات بعض الذنوب التي لها خصوصيّة إنزال البلاء، فقد ورد عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام: «... والذنوب التي تنزل البلاء: ترك إغاثة الملهوف، وترك معاونة المظلوم، وتضييع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»^(٢٥). وجاء عن الرضا عليه السلام: «كلّما أحدث الناس من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث لهم من

البلاء ما لم يكونوا يعرفون»^(٢٦). وعن الإمام عليّ عليه السلام: «مجاهرة الله سبحانه بالمعاصي تعجل النقم»^(٢٧).

حبس الدعاء:

العبد محض فقر، وحاجة، وخالقه محض غنى، ومنه كمال العطاء، والفيض، لذا فإنه ليس للعبد إلا اللجوء إلى ربه، والتضرع له، والطلب منه سبحانه؛ ليسد حاجته، وفقره، وإلا لو ترك الخالق عبده هلك، وضاع، وتساقل، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٢٨)، وقال: ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾^(٢٩)، فمن الخطر العظيم أن يحبس دعاء العبد عن ربه، فما هي حيلته عند ذلك؟! وما الذي يفعله العبد عندما يسد عليه طريق الطلب والدعاء؟! يقول أمير المؤمنين عليه السلام في منجاته: «مولاي، يا مولاي، أنت المعطي، وأنا السائل، ومن يرحم السائل إلا المعطي؟!»،^(٣٠) والذنوب من أسباب حبس الدعاء، وعدم الاستجابة للدعاء، لذا فعلى العبد أن يبدأ كل دعاء له بطلب التوبة؛ لتفتح له أبواب الإجابة، ويكون طاهراً متهيئاً للجلوس بين يدي الله تعالى، وهذا من دواعي الخوف، والحذر من الذنوب.

وقوع المحذور:

رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كتب رجل إلى الحسين - صلوات الله عليه -: عظني بحرفين. فكتب إليه: من حاول أمراً بمعصية الله كان أفوت لما يرجو، وأسرع لمجيء ما يحذر»^(٣١)، وهذه واحدة من سلبيات الذنوب، فعمر بن سعد رضي الله عنه مثلاً كان يرجو بقتل الحسين عليه السلام ملك الري، والرئاسة، والشهرة، والجاه، لكنّه

بذنبه فوت عليه ما يريد، وجاء ما يحذر من الذلِّ، والهوان، والضعفة في أعين الناس، حتى قُتل شرّاً قتلة، فلا فائدة في الذنب مطلقاً، حتى لذته الدنيوية مشوبة بالمتاعب، والمنغصات، لذا فإن العاقل لا يقدم على هكذا تجارة؛ لأنها تجارة خاسرة، فعن الإمام الكاظم عليه السلام: «إنَّ العقلاء تركوا فضول الدنيا، فكيف الذنوب؟! وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض»^(٣٢).

الذلُّ في الدنيا والآخرة:

الذنب، والعصيان، واتباع الهوى، والعبودية للشهوات، تجعل الإنسان ذليلاً، ضعيفاً؛ فالإنسان المطيع لشهواته يشعر في نفسه دائماً بالصغار والذل؛ لأنه أسير الشهوة، أسير الضعف والهوان، بينما يشعر الإنسان المتقي المتحرر من كل ما سوى الله بالعزة، والقوة، والكرامة؛ لأنه متحرر، وعزيز، نفسه عزيزة، لا يبيعه إلا بالجنة، أو لقاء الله، هذا في الدنيا، أمّا في الآخرة فالأمر أوضح، حيث يكون المذنب - الذي لم يتب من ذنوبه - مفضوحاً، مكشوحاً عن قبائحه في أقبح الصور، فالذنب سبب للذل في الدنيا، والآخرة، وكذلك فإن غير المتقي لا يشعر بالعزة بين الناس؛ لأنه لا يستند إلى ركن وثيق، وليس له الرابطة الوثيقة مع مصدر العزة، والقوة، وقد وضّح أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة بقوله عليه السلام: «من تلذذ بمعاصي الله أورثه الله ذلاً»^(٣٣).

قسوة القلب:

خلق الله الإنسان، وأعطاه قلباً رقيقاً، متفاعلاً مع ما يلائمه من طهر، وجمال، وكمال، فبالقلب يبكي شوقاً للقاء الله، وبالقلب يبكي خجلاً من الله، وبالقلب يتوجّه في صلاته؛ ليأنس بربه، وبالقلب يندم على ما فرط في جنب الله، وبالقلب يرقّ على أولاده فيرحمهم، وبالقلب يرقّ على المحرومين فيؤازرهم، وبالقلب يرحم زوجته،

وبالقلب... فإذا قسى القلب قلّ تفاعله، وتحركه، فإنّ قسوة القلب حالة مرضيةٌ تصيب القلب، فتشلّ وظيفته الأساسية في حياة الإنسان، ألا وهي التفاعل مع الخيرات، والانجذاب لها، فإذا فقد الإنسان هذه الحالة لم يعد فيه خيراً، عن الإمام عليّ عليه السلام: «ما جفت الدموع إلا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب»^(٣٤)، فيصير كالأسد الضرغام على أولاده، وزوجته، والضعفاء، ولا يعرف للخشوع في العبادة معنى.

زوال النعمة:

النعمة تارة تكون ماديةً، كالأكل، والأولاد، والمسكن، وأخرى تكون معنويةً، كالتوفيق لصلاة الليل، وجهاد الظالمين، أمّا النعم المادية فقد جعلها الله وسيلةً للإنسان؛ ليصرفها في طريق الخير، عن عليّ عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ قال: «لا تنسَ صحتك، وقوتك، وفراغك، وشبابك، ونشاطك، أن تطلب بها الآخرة»^(٣٥)، أمّا النعم المعنوية فهي عين التوفيق للخير والصلاح، ممّا يورث السعادة السرمديّة، والذنوب من أسباب زوال نعمتين؛ الدنيوية، والمادية، عن عليّ عليه السلام: «ما زالت نعمةً، ولا نضارة عيشٍ إلا بذنوبٍ اجترحوها، إن الله ليس بظلامٍ»^(٣٦). هذا بالنسبة لزوال النعم المادية، أمّا بالنسبة لزوال النعم المعنوية فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الرجل يذنب الذنب، فيُحرم صلاة الليل، وإنّ العمل السيئ أسرع في صاحبه من السكين في اللحم»^(٣٧)، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «اتقوا الذنوب؛ فإنّها محققةٌ للخيرات، إنّ العبد ليذنب الذنب، فينسى به العلم الذي كان قد علمه»^(٣٨)، فإنّ العلم من أعظم النعم المعنوية.

الضنك في المعيشة:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾^(٣٩) يقول العلامة الطباطبائي تَدْبُرُ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾: (أي: ضيقة، وذلك أن من نسي ربه، وانقطع عن ذكره، لم يبق له إلا أن يتعلّق بالدنيا، ويجعلها مطلوبه الوحيد الذي يسعى له، ويهتم بإصلاح معيشته، والتوسّع فيها، والتمتّع منها، والمعيشة التي أوتيتها لا تسعه، سواء كانت قليلةً أو كثيرةً؛ لأنّه كلما حصل منها واقتناها لم يرض نفسه بها، وانتزعت إلى تحصيل ما هو أزيد وأوسع من غير أن يقف منها على حدٍّ، فهو دائماً في ضيق صدرٍ، وحنقٍ ممّا وجد متعلّق القلب بما وراءه، مع ما يهجم عليه من الهمّ، والغمّ، والحزن، والقلق، والاضطراب، والخوف بنزول النوازل، وعروض العوارض، من موتٍ، ومرضٍ، وعاهةٍ، وحسد حاسدٍ، وكيد كائدٍ، وخيبة سعيٍ، وفراق حبيبٍ، ولو أنّه عرف مقام ربه ذاكراً غير ناسٍ، أيقن أنّ له حياةً عند ربه لا يخالطها موتٌ، ومُلكاً لا يعتريه زوالٌ، وعزّةٌ لا يشوبها ذلّةٌ، وفرحاً، وسروراً، ورفعةً، وكرامةً لا تُقدّر بقدرٍ، ولا تنتهي إلى أمدٍ، وأنّ الدنيا دار مجازٍ، وما حياتها في الآخرة إلاّ متاعٌ، فلو عرف ذلك قنعت نفسه بما قدّر له من الدنيا، ووسعه ما أوتيه من المعيشة، من غير ضيقٍ، وضنكٍ)^(٤٠).

الفضيحة في الدنيا:

ومن آثار الذنوب في الدنيا الفضيحة في الدنيا، فإنّ العبد يذنب، ويتجرّأ، ويعصي وهو في سترٍ من الله ﷻ، حتى يصل إلى مرحلةٍ من التجرؤ يعاقبه الله بفضحه في الدنيا قبل الآخرة، فيشعر بالذلّ، والصغار، وهو الخزي في الدنيا، الذي أشارت إليه الروايات، ويرى بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ

مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ
مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿٤١﴾ أن المراد من العذاب مرتين هو الفضيحة في
الدينا، والعذاب في الآخرة، وقد ورد عن سيف بن عميرة، قال: قال الصادق عليه السلام:
«إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ أَرْبَعِينَ جَنَّةً، مَتَى أَذْنَبَ ذَنْبًا كَبِيرًا رَفَعَ عَنْهُ
جَنَّةً، فَإِذَا اغْتَابَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ مِنْهُ انْكَشَفَتْ تِلْكَ الْجَنَّةُ عَنْهُ، وَيَبْقَى
مَهْتُوكَ السِّتْرِ، فَيَفْتَضِحُ فِي السَّمَاءِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمَلَائِكَةِ، وَفِي الْأَرْضِ عَلَى أَلْسِنَةِ
النَّاسِ، وَلَا يَرْتَكِبُ ذَنْبًا إِلَّا ذَكَرُوهُ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِهِ: يَا رَبَّنَا، قَدْ بَقِيَ
عَبْدُكَ مَهْتُوكَ السِّتْرِ، وَقَدْ أَمَرْتَنَا بِحِفْظِهِ. فَيَقُولُ عليه السلام: مَلَائِكَتِي، لَوْ أَرَدْتُ بِهَذَا الْعَبْدِ
خَيْرًا مَا فَضَحْتُهُ، فَارْفَعُوا أَجْنِحَتَكُمْ عَنْهُ» (٤٢).

والحمد لله رب العالمين.

المواهب:

- (١) الروم: ٤١.
- (٢) دعاء كميل بن زياد.
- (٣) مفاتيح الجنان: دعاء يوم الأحد.
- (٤) المناجاة الشعبانية لأمر المؤمنين عليه السلام.
- (٥) ميزان الحكمة: التحذير من رقية الشهوة / باب الهوى.
- (٦) التوبة: ١٠٥.
- (٧) أصول الكافي: ج ١/باب عرض الأعمال على الرسول والأئمة عليهم السلام.
- (٨) نفس المصدر.
- (٩) الأنبياء: ٦٧.

- (١٠) الكافي: ج ٢/باب الذنوب.
- (١١) ميزان الحكمة: الذنب/الصغائر طرقٌ إلى الكبائر.
- (١٢) الأنفال: ٢٩.
- (١٣) بحار الأنوار: ج ٧/٣٢٣.
- (١٤) نهج البلاغة: الحكمة ٢١٩.
- (١٥) راجع تفسير الأمثال: تفسير الآية.
- (١٦) ميزان الحكمة: باب الذنب/العاقل لا يذنب.
- (١٧) طه: ٦٩.
- (١٨) دعاء أبو حمزة الثماليّ: مفاتيح الجنان.
- (١٩) الإسراء: ٨٤.
- (٢٠) شرح أصول الكافي: المولى محمد صالح المازندرانيّ/ج ١٠/٤٢٨.
- (٢١) الصحيفة السجّاديّة: دعاء مكارم الأخلاق.
- (٢٢) البحار: ٨٣/٣٥٢.
- (٢٣) الصحيفة السجّاديّة: دعاؤه في عرفة.
- (٢٤) الجن: ٢٧.
- (٢٥) الموسوعة الفقهيّة الميسرة: الشيخ محمد عليّ الأنصاريّ/٣/٢٣.
- (٢٦) مكاتيب الرسول: الأحمديّ الميانجيّ: ج ٣/٥٧٣.
- (٢٧) ميزان الحكمة: الذنب/المجاهرة بالذنب.
- (٢٨) غافر: ٦٠.

- (٢٩) الشعراء: ٧٧.
- (٣٠) مناجاة أمير المؤمنين في مسجد الكوفة: مفاتيح الجنان.
- (٣١) ميزان الحكمة: الذنب/من حاول أمراً بمعصية الله.
- (٣٢) ميزان الحكمة: الذنب/العاقل لا يذنب.
- (٣٣) ميزان الحكمة: الذنب / الابتهاج بالذنب.
- (٣٤) ميزان الحكمة: الذنب / دور الذنوب في فساد القلب.
- (٣٥) تفسير الميزان: ج ١٦/٨٥.
- (٣٦) ميزان الحكمة: الذنب / دور الذنوب في زوال النعمة.
- (٣٧) نفس المصدر.
- (٣٨) نفس المصدر.
- (٣٩) طه: ١٢٤.
- (٤٠) تفسير الميزان: ج ١٤/٢٢٥.
- (٤١) التوبة: ١٠١.
- (٤٢) مستدرک الوسائل: باب تحريم اغتياب المؤمن صدقاً.

مشكل تأخير البياؤ.. وجهه

علي فاضل الصدي

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد وآله.

مقدمة (تحرير محل الكلام):

من جملة ما وقع محلاً للإشكال لدى الأصوليين تأخر المخصّصات كثيراً عن العمومات بعد حضور وقت العمل بها في كلمات المعصومين عليه السلام؛ لأن الالتزام بالتخصيص في جميع ذلك يستلزم الالتزام بتأخير البيان عن وقت الحاجة، مع أنّ المفروض قبحه، ولا يمكن صدوره من المعصوم. ومّا أجيب به عن هذا المشكل أنّ قبح تأخير البيان عن وقت الحاجة ليس على حدّ قبح الظلم ليستحيل انفكاكه عنه، بل غايته أن يكون مثل قبح الكذب القابل لانفكاكه عنه؛ لوجود المصلحة المقتضية له، أو كان في تقديم البيان مفسدة ملزمة، وفي ضوء هذا فيتعين كون الخاصّ المتأخّر الوارد بعد حضور وقت العمل بالعام مخصّصاً لا ناسخاً، وعليه فلا مشكل في تخصيص عمومات الكتاب والسنة الواردة في عصر النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله بالمخصّصات الواردة في عصر الأئمة الأطهار عليهم السلام؛ حيث إنّ المصلحة تقتضي تأخيرها عن وقت الحاجة والعمل، أو كانت في تقديمها مفسدة ملزمة تمنع عنه ⁽¹⁾. ومّا أجيب به عن هذا المشكل أيضاً ما أورده أحد الأساتيد (سلمه الله) من أنّ الخاصّ المنفصل بعد حضور وقت العمل بالعام هو مخصّص من حين وروده، لا من أول الأمر، والارتكاز العقلائيّ - والمتشرعيّ - على ذلك، وحكم العامّ إلى حين ورود المخصّص فعليّ، وبناءً على ذلك فلا يرد محذور تأخير البيان عن وقت

المحاجة؛ لأنَّ حكم الخاصِّ إنّما هو في ظرفه، لا من أوّل الأمر، وذلك لا يعني أنه محكومٌ واقعاً بحكم العامِّ كي يكون من باب النسخ، فهو تخصيصٌ أزمانى، وتأسيسٌ أفراديٌّ^(٢).

وثمةٌ مشكلٌ آخر عامٌّ يواجه جملةً من الروايات - التي استفيدت منها أحكامٌ فقهيةٌ - وقد ألجأ هذا المشكل بعض الفقهاء إلى طرح مفاد تلك الروايات، وعدم الإفتاء بموجبها، أو إلى طرح تلك الروايات من الأساس، ويتمثّل هذا المشكل في أنّ تأخّر ورود حكم الواقعة في أصل الشريعة المقدّسة، فلا يرد حكمها إلاّ من الأئمة المتأخّرين، كالرضا والجواد عليهما السلام، مع كونها عامّة البلوى - ممّا يستهجن أو يستبعد معه مثل هذا الحكم، ويعود الالتزام به صعباً جداً.

ومن الروايات المبتلاة بهذا المشكل - أو قيل بابتلائها به - ما يلي:

الأولى: ما دلّ من الروايات على نجاسة الناصب، والتي لم يرد شيءٌ منها عمّن قبل الصادقين عليهما السلام، وعمدتها موثقة عبد الله بن أبي يعفور، عن أبي عبد الله عليه السلام - في حديث - قال: وإياك أن تغتسل من غسالة الحمّام، ففيها تجتمع غسالة اليهودي، والنصراني، والمجوسي، والناصب لنا أهل البيت، وهو شرّهم؛ فإنّ الله تبارك وتعالى لم يخلق خلقاً أنجس من الكلب، وإنّ الناصب لنا أهل البيت لأنجس منه^(٣).

الثانية: ما دلّ من الروايات على نجاسة عرق الجنب من الحرام، والتي لم يرد شيءٌ منها عمّن قبل الإمام الهادي عليه السلام، وكما في بعض الكلمات: (إنّ اختفاء هذا الحكم إلى زمان الهادي عليه السلام، وخلوّ الأخبار عن التعرّض له من أقوى الشواهد على عدم النجاسة)^(٤)، وفي بعضٍ آخر: (وربما يُقال بحمل هذه الأخبار على الكراهة؛ لتأخّر هذا الحكم، وعدم معرفته قبل ذلك، وفيه: إنّ عدم المسبوقية لا يدل على عدم الحكم)^(٥)، ومن تلك الروايات ما رواه الشهيد في (الذكرى)، قال: روى محمد بن

همام بإسناده إلى إدريس بن يزيد الكفرتوثي (ابن زياد الكفرتوثي) أنه كان يقول بالوقف، فدخل سرّاً من رأى في عهد أبي الحسن عليه السلام، فأراد أن يسأله من الثوب الذي يعرق فيه الجنب، أيصلي فيه؟ فبينما هو قائم في طاق باب لانتظاره، إذ حرّكه أبو الحسن عليه السلام بمقرعة وقال - مبتدئاً -: إن كان من حلالٍ فصلّ فيه، وإن كان من حرامٍ فلا تصلّ فيه ^(٦).

الثالثة: ما دلّ من الروايات على ترخيص الإتمام في المواضع التي قال المشهور فيها بالتخير بين القصر والإتمام - وهي رواياتٌ مستفيضةٌ، ولم يرد شيءٌ منها عمّن قبل الصادق عليه السلام -، ومنها صحيحة حماد بن عيسى، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: من مخزون علم الله الإتمام في أربعة مواطن، حرم الله، وحرم رسوله صلى الله عليه وآله، وحرم أمير المؤمنين عليه السلام، وحرم الحسين بن علي عليهما السلام ^(٧). وصحيحة مسمع، عن أبي إبراهيم عليه السلام، قال: كان أبي يرى هذين الحرمين ما لا يراه لغيرهما، ويقول: إن الإتمام فيهما من الأمر المذخور ^(٨). وصحيحة عبد الرحمن بن الحجاج، قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن التمام بمكة والمدينة، فقال: أتمّ، وإن لم تصلّ فيهما إلا صلاةً واحدةً ^(٩).

الرابعة: ما دلّ من الروايات على وجوب الخمس في أرباح المتاجر والمكاسب، ولم يرد شيءٌ منها عمّن قبل الصادق عليه السلام من الأئمة، وكما قال أحد الأعاظم تتلمذ: (وإن تعجب فعجبٌ أنه لم يوجد لهذا القسم من الخمس عينٌ ولا أثرٌ في صدر الإسلام إلى عهد الصادق عليه السلام، حيث إن الروايات القليلة الواردة في المقام كلّها برزت - وصدرت - منذ هذا العصر، أمّا قبله فلم يكن منه اسمٌ، ولا رسمٌ بتاتاً حسبما عرفت ^(١٠)، منها موثقة سماعة، قال: سألتُ أبا الحسن عليه السلام عن الخمس، فقال: في كلّ ما أفاد الناس، من قليلٍ أو كثيرٍ ^(١١).

الخامسة: ما دلّ من الروايات على حرمة نكاح أبي المرتضع في أولاد صاحب اللبن ولادةً ورضاعاً، وفي أولاد المرضعة ولادةً لا رضاعاً، ولم يردنا شيءٌ من هذه

الروايات عمّن قبل الإمام الرضا عليه السلام من الأئمة عليهم السلام، ومنها صحيحة عليّ بن مهزيار، قال: سألت عيسى بن جعفر بن عيسى أبا جعفر الثاني عليه السلام: أن امرأة أرضعت لي صبياً، فهل يحلّ لي أن أتزوج ابنة زوجها؟ فقال لي: ما أجود ما سألت، من ههنا يؤتى أن يقول الناس: حرّمت عليه امرأته من قبل لبن الفحل، هذا هو لبن الفحل لا غيره. فقلتُ له: الجارية ليست ابنة المرأة التي أرضعت لي، هي ابنة غيرها، فقال: لو كنَّ عشرًا متفرقاتٍ، ما حلَّ لك شيءٌ منهنّ، وكنَّ في موضع بناتك ^(١٢). وصحيحة عبد الله بن جعفر، قال: كتبتُ إلى أبي محمد عليه السلام: امرأة أرضعتُ ولد الرجل، هل يحلّ لذلك الرجل أن يتزوج ابنة هذه المرّضة أم لا؟ فوَقَّع: لا تحلُّ له ^(١٣).

السادسة: ما دلَّ من الروايات على حرمان الزوجة من إرث الأرض عيناً وقيمةً، ومن إرث غيرها من العقار عيناً لا قيمةً، وهي رواياتٌ ادَّعى تواترها، ورغم التواتر المدّعى لم يردنا شيءٌ منها عمّن قبل الصادقين عليهما السلام، ومنها صحيحة جميل، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، ومحمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لا ترث النساء من عقار الأرض شيئاً» ^(١٤)، وصحيحة زرارة ومحمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا ترث النساء من عقار الدور شيئاً، ولكن يُقوّم البناء، والطوب، وتُعطى ثمنها، أو ربعها. قال: وإمّا ذلك لثلاث يتزوجن، فيفسدن على أهل المواريث مواريتهم» ^(١٥)، وفي بعض الكلمات: (كيف يتصوّر أن يكون حكم الله الواقعيّ هو عدم إرث الزوجة من الأرض شيئاً، وبالتالي صيرورة فرضه من الربع أو الثمن محدوداً في المنقولات من الثياب والمتاع دون القرى، والدور، والعقارات، ومع ذلك لا يذكر ذلك في كلمات النبي صلى الله عليه وآله وعصره المديد، ولا في عصر أمير المؤمنين عليه السلام وقضاياه؟! .. مع ملاحظة أن هذه المسألة ليست من حقوق الله أو الإمام.. بل من حقوق الناس والورثة الآخرين - إلى أن قال: - فالمسألة ثبوتاً مشكلةٌ جداً.. بحيث

يطمئن الإنسان بملاحظة مجموعة الجهات (وقد أوردتها) أن المراد من هذه الروايات ليس ظاهرها الأوّلي من حرمان الزوجات من العقار والأراضي عيناً وقيمةً^(١٨). ذلك هو المشكل، وهذه جملة من موارده، ثمّ إنّه للتفصّي عن هذا المشكل نعرض - أولاً - إجابات عامّة عن المشكل بلا خصوصيّة لموارده، وتتناول - ثانياً - موارد هذا المشكل كلّ موردٍ على انفراد؛ لتبيّن حقيقة الحال فيها.

إجابات عامّة عن المشكل:

أمّا الإجابات العامّة عن المشكل فهي كما يلي:

الإجابة الأولى: ما سلكها أحد الأعظم عليه السلام^(١٧) - تبعاً للشيخ الأعظم عليه السلام^(١٨) - من تدريجيّة الأحكام، وجواز تأخير التبليغ عن عصر التشريع بإيداع بيانه من النبيّ إلى الإمام؛ ليظهره في ظرفه المناسب له حسب المصالح الوقتيّة الباعثة على ذلك، - مضيفاً أنّه - قد يظهر من بعض النصوص أنّ جملة من الأحكام لم تنشر لحدّ الآن، وأنّها مودعة عند وليّ العصر عليه السلام، وهو المأمور بتبليغها متى ما ظهر وملاً الأرض قسطاً وعدلاً.

أقول: ويدلّ على ما أفيد - من تفويض التبليغ إلى الإمام عليه السلام ليظهره في ظرفه المناسب له حسب المصلحة الوقتيّة الداعية إليه - صحيحة الوشاء، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: سمعته يقول: «قال عليّ بن الحسين عليه السلام: على الأئمّة من الفرض ما ليس على شيعتهم، وعلى شيعتنا ما ليس علينا، أمرهم الله عزّ وجلّ أن يسألونا، قال: ﴿فاسألوا أهلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١٩)، فأمرهم أن يسألونا، وليس علينا الجواب، إن شئنا أجبنا، وإن شئنا أمسكنا»^(٢٠). وتؤيّد روايته الأخرى، قال: سألت الرضا عليه السلام عن قوله: ﴿فاسألوا أهلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فقال: نحن أهل الذكر، ونحن المسؤولون. قلت: فأنتم المسؤولون، ونحن السائلون؟ قال: نعم.

قلتُ: حقُّ (حقًّا) علينا أن نسألكم؟ قال: نعم. قلتُ: حقُّ عليكم أن تجيبونا؟ قال: لا، ذلك إلينا، إن شئنا فعلنا، وإن شئنا لم نفعل، أما تسمع قول الله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢١)؟!»، (٢٢)، ويرشد إلى ذلك روايات ترخيص المسافر في إتمام الصلاة في المواضع الأربعة، التي تضمّنت أن الإتمام من العلم المخزون، والأمر المذخور، وسيأتي - إن شاء الله سبحانه - التعرُّض إليها.

وقد أُورد (٢٣) على هذه الإجابة بإيرادين:

الأوّل: (وهو يرجع إلى عدم المقتضي) أن ذلك مخالفٌ لتبليغ الأحكام، وأن دعوى اقتضاء المصلحة ذلك مجازفة، فأية مصلحة تقتضي كون نوع الأحكام معطلة غير معمولٍ بها؟!

ويلاحظ عليه: أنه لما جاز تأخير بيان جملة من الأحكام عن الصدر الأوّل - بحيث لم تُبين من قبل الرسول ﷺ إلا في المدينة مثلاً، كوجوب صوم شهر رمضان - جاز تأخير بيان جملة منها عن زمن الرسول ﷺ إلى أزمنة المعصومين عليهم السلام، والمصلحة المسوّغة المتصورة بالإضافة إلى الجملة الأولى متصورة بالإضافة إلى الثانية، بلا فرقٍ بينهما، بل كيف لا تُتصور مصلحة مع أنه قد وردنا أن جملة من الأحكام لا يبلغها ويبينها إلا صاحبنا عليه السلام بعد ظهوره؟! وما تأخير ذلك إليه إلا لمصلحة لا محالة.

الإيراد الثاني: (وهو يرجع إلى وجود المانع) منافاة ذلك لقوله ﷺ في حجة الوداع: «معاشر الناس، ما من شيء يقربكم من الجنة، ويباعدكم من النار إلا وقد أمرتكم به، وما من شيء يقربكم من النار، ويباعدكم من الجنة إلا وقد نهيتكم عنه» (٢٤)، والقول بأن إيداعها لدى أمير المؤمنين عليه السلام يكفي في رفع المنافاة كما ترى.

ويلاحظ عليه - نقضاً وحلاً -، أمّا النقص فإنه لما دلّ الدليل على أن جملةً من الأحكام سيتمّ بيانها وتبليغها من قبل صاحب عليه السلام - فيتعيّن توجيه ما ورد عن الرسول صلّى الله عليه وآله في حجة الوداع بوجه يتصوّر به عدم المنافاة بينه وبين تأخير بيان تلك الأحكام إلى أزمنة المعصومين عليهم السلام بالأولوية. وأمّا الحلّ فحيث إنّ الأحكام لم تبلغّ لهم فهم معذورون، وعليه فما من شيءٍ يقربهم إلى الجنة فيما هو فعليٌّ في حقّهم إلا بلغوا إيّاه، وكذلك في ما نهوا عنه ممّا هو فعليٌّ في حقّهم، وهو ما وصل صراط العمل.

والمحصّلة هي تمامية هذه الإجابة العامّة عن المشكل.

الإجابة الثانية: ما يُستفاد ممّا ذكره أحد المحقّقين قدس سرّه (٢٥) من أنّ الأحكام التي وردت عن الأئمة المتأخّرين - قد بيّنها وبلغها رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولم يتمّ ضبطها إلا من قبل أمير المؤمنين عليه السلام، وأودعها عند الأئمة عليهم السلام، وإنّما أُخّر البيان إلى زمن الصادقين عليهم السلام؛ لابتلاء ساير الأئمة المتقدّمين عليهما ببليّات كثيرةٍ سدّ عليهم لأجلها بيان الأحكام، كما يشهد به التاريخ، فلمّا بلغ زمانهما اتّسع لهما المجال في برهنة من الزمان، فاجتمع العلماء والمحدّثون عليهما، فانتشرت الأحكام، وانبتت البركات، ولو اتّسع المجال لغيرهما ما اتّسع لهما لصارت الأحكام منتشرةً قبلهما، - وأضاف بأنك - لو تأملتَ فيما ذكرنا، وتتبعْتَ الأخبار، لوجدت ما ذكرنا احتمالاً قريباً قابلاً للتصديق.

ويلاحظ عليها بأنّها خلاف ظاهر الروايات في أنّهم عليهم السلام مفوضّ إليهم أمر

التبليغ، فلو تمّ تبليغ الأحكام كلّها لم يكن معنى للتفويض والولاية.

الإجابة الثالثة: إنّ أسئلة الرواة كانت - على الأكثر - تعبيراً عن الحاجات التي يواجهونها مباشرةً، ويندر بالإضافة إلى بعض المسائل إحراز صغرها من غيرهم،

فمن الجائز عدم ابتلاء رواة زمن الصادق عليه السلام - فعلاً - ببعض هذه المسائل، كنجاسة عرق الجنب من الحرام^(١٦)، وحرمة نكاح أبي المرتضع في أولاد المرضعة وصاحب اللبن.

دراسة الموارد الستة للمشكل:

وبعد عرض هذه الإجابات العامّة عن المشكل، نأخذ في تناول الموارد المزبورة تباعاً.

* أمّا مسألة نجاسة الناصب، فبعد البناء على أن الناصب هو من يدين الله بعداوة أهل البيت عليهم السلام، ويعمد إلى إظهارها - فلا وجود لفرد له في زمن النبي صلى الله عليه وآله، ولا في فترة الخلفاء غير المعصومين؛ فإن من أظهر عداوة لهم، وحاربهم، وناوهم، ما كان يدين الله بكل ذلك، بل كان منه ما كان إخلاداً إلى الأرض، واتباعاً للهوى، وحباً للرئاسة، نعم، سلك من سلك التدئين بعداوة أهل البيت عليهم السلام لمحض عداوة بعض السلف لهم عليهم السلام؛ إذ يدور الأمر لديه بين نفض اليد عنّ عاداهم محبةً لهم عليهم السلام، وبين التدئين بلزوم طريقة السلف، والأخذ بها، واستمراء معاداتهم عليهم السلام، وقد اتفق التدئين بعداوة أهل البيت عليهم السلام في الشام البعيدة عن مركز الإشعاع الديني الحقّ في زمن تخلف اللعين معاوية، وأمّا رعا ع رعا ع الشام ومساورتهم فلم تكن محلاً لابتلاء الرواة في الفترة السابقة لزمن الصادق عليه السلام، ولو لاختلاف المكان بين الرواة وأولئك الرعا ع. ولكن قد يُقال: بأنه لا شاهد على اعتبار التدئين بعداوتهم عليهم السلام؛ إذ ظاهر الأدلّة أن الناصب هو من نصب العداوة لهم، وأظهر بغضهم، مع التفاته إلى أنّهم آل محمد صلى الله عليه وآله، وهذا واضح في عصر الخلفاء.

* وأما مسألة نجاسة عرق الجنب من الحرام فلعلَّ طبيعة الجهة الخُلُقِيَّة الهابطة فيها تحول دون تداولها، والسؤال عنها، ووزانها وزان مسألة تحقق الجنابة بثقب الغلام، ووطء الدائبة التي لم ترد فيها رواية، ولعله للجهة المذكورة، وإن وردت روايات في حرمة الدائبة الموطوءة، مع أنَّها أكثر خَسَّةً.

* وأما مسألة ترخيص المسافر في الإتمام في المواضع الأربعة المعهودة فإنَّه لما كان من العلم المخزون، والأمر المذخور - كما دلَّت عليه جملة من الروايات - لم يخبر الأئمة عليهم السلام به إلاَّ بعض أصحابهم، وخواصَّ شيعتهم، بل أمروا أصحابهم بالتقصير مخافة وقوعهم في خلاف التقيَّة، فإنَّ من لاحظ الروايات الواردة في المواضع الأربعة يظهر له بوضوح أنَّ المتعارف بين الناس كان هو القصر دون الإتمام، ومعه فلا موضع لاستهجان أو استبعاد الإتمام فيها للمسافر؛ لأجل عدم تعرُّض من قبل الصادق عليه السلام من الأئمة إليه.

* وأما مسألة وجوب الخمس في أرباح المتاجر والمكاسب فلعلَّ تأخير بيانها لمصلحة^(٢٧) - كما تقدَّم في الإجابة الأولى من الإجابات العامَّة - من قبيل: عدم طاقة مسلمي الصدر الأول لتحمل مثل هذا الحكم الشاقَّ زيادةً على ما كانوا يؤدِّونه من الزكوات^(٢٨)، ولعلَّ عدم شيوعها لكونها على خلاف العامَّة^(٢٩)، خصوصاً وأنَّ مصرف الخمس ليس عموم فقراء المسلمين، بل خصوص الإمام عليه السلام، ومساكين بني هاشم، وإمامة أمير المؤمنين عليه السلام - فضلاً عن غيره من المعصومين عليهم السلام - لم تكن مورد قبولهم، بل لم يبايعوا الأمير عليه السلام بصفته إماماً لهم، بل بعنوان الخليفة للنبي، على غرار غيره ممن سبقه^(٣٠)، ولعلَّ إظهار ثبوت الخمس في هذا المورد في مصلحة حكَّام الجور؛ لأنَّ الخمس للإمام عليه السلام، فيستغلُّه حاكم الجور؛ لكونه يدَّعي الإمامة، ويأخذه من الناس لنفسه، ويعطي بعضه بعض فقراء بني هاشم ممن يختاره، كما

يحتمل أن هذا القسم من الخمس وظيفة حكومية وولائية جعلت من قبل الأئمة المتأخرين عليهم السلام حسب الاحتياج، حيث كانت الزكوات - ونحوها - في اختيار خلفاء الجور، ولذلك ترى الأئمة عليهم السلام محللين للخمس تارة، ومطالبين به أخرى ^(٣١)، هذا وفي بعض الكلمات: (والإنصاف أنه لم يتضح لدينا بعد ماذا كانت الحالة عليه في عصره صلى الله عليه وآله، بالإضافة إلى أخذ هذا النوع من الخمس وعدمه، كيف؟! والعهد بعيد، والفصل طويل، وقد تخلل بيننا عصر الأمويين الذين بدلوا الحكومة الإسلامية حكومة جاهلية، ومحقوا أحكام الدين، حتى أن كثيراً من الناس لم يعرفوا وجوب الزكاة الثابت بنص القرآن، كما يحكيه لنا التاريخ والحديث، بل في صحيح أبي داود، وسنن النسائي أن أكثر أهل الشام لم يكونوا يعرفون أعداد الفرائض، وعن ابن سعد في الطبقات أن كثيراً من الناس لم يعرفوا مناسك حجهم، وروى ابن حزم عن ابن عباس أنه خطب في البصرة، وذكر زكاة الفطرة، وصدقة الصيام، فلم يعرفوها، حتى أمر من معه أن يعلم الناس، فإذا كان الحال هذه بالإضافة إلى مثل هذه الأحكام التي هي من ضروريات الإسلام، ومتعلقة بجميع الأنام، فما ظنك بمثل الخمس الذي هو حق خاص للنبي صلى الله عليه وآله، ولقربانته؟! ولم يكن من الحقوق العامة كما في الزكاة، بل لخصوص بني هاشم - زادهم الله عزاً وشرفاً - فلا غرابة إذن في جهلنا بما كان عليه أمر الخمس في عصره صلى الله عليه وآله أخذاً وصرفاً. إلا أن هذا كله لا يكشف عن عدم الوجوب، وعدم الوصول لا يلزم عدم التشريع بعد أن نطق به الكتاب العزيز، والسنة المتواترة ولو إجمالاً.) ^(٣٢).

ثم إن العامة قد رووا عن النبي صلى الله عليه وآله وجوب الخمس في هذا النوع، ففي صحيح البخاري - بسنة أسانيد - وصحيح مسلم، عن ابن عباس، قال: قدم وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وآله، [قال: مرحباً بالوفد الذين جاؤوا غير خزايا، ولا

ندامى). فقالوا: إنا هذا الحي من ربيعة (قد حالت بيننا وبينك كفار مضر)، ولسنا نصل إليك إلا في الشهر الحرام، فمرنا بشيء نأخذه عنك، وندعو إليه من وراءنا، فقال: أمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع؛ الإيمان بالله، ثم فسرها لهم: شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا (لله/إلي) خمس ما غنمتم..^(٣٣). والمقصود خمس الأرباح والمتاجر، لا خمس غنائم دار الحرب؛ لعدم فرض حرب وغزو، بل صرحت الرواية بأن هؤلاء لا يستطيعون الوصول إلى النبي ﷺ إلا في الشهر الحرام؛ لحيلولة كفار مضر، فلا غنيمة حرب؛ إذ لا حرب. وثمة كتب وعهود لرسول الله ﷺ وجه بها إلى جملة من القبائل تتضمن لزوم أداء حق النبي ﷺ، أو حظ الله، وحظ الرسول ﷺ، أو الخمس من المغنم في عرض إيتاء وإعطاء الزكاة^(٣٤).

* وأما مسألة حرمة نكاح أبي المرتضع في أولاد المرضعة وصاحب اللبن فقد تناولتها بنحو مبسوط في رسالة منشورة^(٣٥)، ومحصل ما يرتبط بالجهة المبحوث عنها هنا - إضافة للإجابتين العامتين الأولى والثالثة - هو: أن هذا النكاح لم يثبت شياعه ودورانته بنحو يعد من المستهجن عدم التعرض له، ولعله صدرت نصوص فيه لم تصل إلينا.

* وأما مسألة حرمان الزوجة من إرث الأرض عيناً وقيمةً، ومن إرث غيرها من العقار عيناً لا قيمةً - فهي وإن كانت محلاً للابتلاء - وبكثرة كاثرة - إلا أن تواتر رواياتها الإجمالية - على الأقل - مع وضوح دلالتها على أصل الحرمان المذكور، بضميمة الإجابة العامة الأولى أو الثانية - يدفع استهجان - أو استبعاد - مثل هذا الحكم؛ لتأخر بيانه، ثم إن رواية عبد الملك^(٣٦) قال: دعا أبو جعفر عليه السلام بكتاب علي عليه السلام، فجاء به جعفر مثل فخذ الرجل مطوياً، فإذا فيه: إن النساء ليس لهن من

عقار الرجل (إذا توفي عنهن) شيء، فقال أبو جعفر عليه السلام: هذا والله خطُّ (خطّه) عليّ عليه السلام بيده، وإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله ^(٣٧) - وإن كانت قاصرةً سنداً، إلا أنها تصلح مؤيداً لورود هذا الحكم عن الأمير عليه السلام، بل وعن النبي صلى الله عليه وآله، وإن كان هذا الورود لا يؤذن بتبليغه من قبلهما.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على محمد وآله.

الموامش:

- (١) لاحظ أجدود التقريرات ١: ٥٠٨، ومحاضرات في أصول الفقه ٥: ٣٢١.
- (٢) وهو من إفادات سماحة العلامة الأستاذ السيّد منير الحبيّز (سألمه الله)، وقد كتب ذلك إليّ، ونقل بأنّه ذكره في بحث الخاصّ والعامّ. ولم أحضره عنده؛ إذ كان تتلمذي عليه من بداية مبحث الإجماع.
- (٣) الوسائل ١: ٢٢٠ (ك الطهارة)، ب ١١، من أبواب الماء المضاف والمستعمل، ح ٥.
- (٤) مدارك العروة الوثقى ٢: ١٦٣ - ١٦٤، لآية الله الشيخ يوسف الحائري الخراساني البيارجمندي تتقّى.
- (٥) دليل العروة الوثقى ١: ٥٢١، للحجّة الشيخ حسين السعيد، تقريراً لبحث آية الله الشيخ حسين الحلّي تتقّى.
- (٦) الوسائل ٣: ٤٤٧ (ك الطهارة)، ب ٢٧، من أبواب النجاسات، والأواني، والمجلود، ح ١٢.
- (٧) الوسائل ٨: ٥٢٤ (ك الصلاة)، ب ٢٥، من أبواب صلاة المسافر، ح ١.
- (٨) الوسائل ٨: ٥٢٤ (ك الصلاة)، ب ٢٥، من أبواب صلاة المسافر، ح ٢.
- (٩) الوسائل ٨: ٥٢٥ (ك الصلاة)، ب ٢٥، من أبواب صلاة المسافر، ح ٥.
- (١٠) مستند العروة الوثقى (ك الخمس) = موسوعة الإمام الخوئي ٢٥: ١٩٧.

- (١١) الوسائل ٩: ٥٠٣ (ك الخمس)، ب ٨، من أبواب ما يجب فيه الخمس، ح ٦.
- (١٢) الوسائل ٢٠: ٣٩١ (ك النكاح)، ب ٦، من أبواب ما يحرم بالرضاع، ح ١٠.
- (١٣) الوسائل ٢٠: ٤٠٤ (ك النكاح)، ب ١٦، من أبواب ما يحرم بالرضاع، ح ٢.
- (١٤) الوسائل ٢٦: ٢٠٨ (ك الفرائض والموارث)، ب ٦، من أبواب ميراث الأزواج، ح ٦.
- (١٥) الوسائل ٢٦: ٢٠٨ (ك الفرائض والموارث)، ب ٦، من أبواب ميراث الأزواج، ح ٧.
- (١٦) مجلّة فقه أهل البيت عليهم السلام - العدد ٤٥، ميراث الزوجة من العقار، لسماحة السيّد محمود الهاشمي الشاهرودي (سَلَّمَهُ اللهُ): ٣٥ - ٣٦.
- (١٧) مستند العروة الوثقى (الخمس) = موسوعة الإمام الخوئي ٢٥: ١٩٧ - ١٩٨.
- (١٨) كتاب الطهارة للشيخ الأنصاري ٥: ١٤٨، ولاحظ الرسائل للإمام الخميني (رسالة في التعادل والترجيح) ٢: ٢٥.
- (١٩) سورة النحل: ٤٣، سورة الأنبياء عليهم السلام: ٧.
- (٢٠) الوسائل ٢٧: ٦٤ (ك القضاء)، ب ٧، من أبواب صفات القاضي، ح ٩.
- (٢١) سورة ص: ٣٩.
- (٢٢) الوسائل ٢٧: ٦٤ (ك القضاء)، ب ٧، من أبواب صفات القاضي، ح ٨.
- (٢٣) الرسائل للإمام الخميني ٢: ٢٦.
- (٢٤) الكافي ٢: ٧٤ (ك الإيمان والكفر، ب الطاعة والتقوى، ح ٢)، الوسائل ١٧: ٤٤ (ك التجارة)، ب ١٢ من أبواب مقدّمات التجارة، ح ٢.
- (٢٥) لاحظ الرسائل للإمام الخميني ٣: ٢٧، ومصبّ كلامه وإن كان هو تأخّر المخصّصات والمقيّدات وسائر الصوارف - إلاّ أنّه شاملٌ لما نحن فيه، كما لا يخفى على من راجعه بطوله.
- (٢٦) بحوث في شرح العروة الوثقى للشهيد الصدر تَمَّتْ ٤: ٧ - ٨.
- (٢٧) مستند العروة الوثقى (الخمس) = موسوعة الإمام الخوئي ٢٥: ١٩٧ - ١٩٨.

(٢٨) دليل تحرير الوسيلة للحجة الشيخ علي أكبر السيفي المازندراني ١: ١٤٥.

(٢٩) مهذب الأحكام ١١: ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٣٠) دليل تحرير الوسيلة ١: ١٤٥.

(٣١) كتاب الخمس للفقهاء المنتظري: ٢٠٢، وإن استبعد هو هذا الاحتمال باستدلال الأئمة عليهم السلام في هذا الباب بآية الخمس، وتطبيقهم إيّاها عليه.

(٣٢) مستند العروة الوثقى (الخمس) = موسوعة الإمام الخوئي ٢٥: ١٩٩ - ٢٠٠، وقريب منه في

تفصيل الشريعة (الخمس والأنفال): ١١٠ - ١١١.

(٣٣) صحيح البخاري ١: ١٣٣، ٢: ١٠٩، ٤: ٤٤٤ و ١٥٧، ٥: ١١٦، ٧: ١١٤، صحيح مسلم ١: ٣٥.

(٣٤) وقد استقصاها ورصدها المرحوم السيد مرتضى العسكري في كتابه معالم المدرستين (مقدمة مرآة العقول ١: ١٠١ - ١٠٧)، منها كتاب النبي صلى الله عليه وآله لعمر بن حزم حين بعثه إلى اليمن، وكتابه لسعد هذيم من قضاة وإلى جذام، وكتابه لمالك بن أحمر الجذامي، ولمن تبعه من المسلمين، وكتابه للفجيع، ومن تبعه، وكتابه للأسبذيين ملوك عمان من منهم بالبحرين، وكتابه لمن أسلم من حدس ولحم، وكتابه لجنادة الأزدي، وقومه، ومن تبعه، وكتابه لبني معاوية بن جرول الطائيين، وكتابه لمهينة بن زيد، وكتابه لبني ثعلبة بن عامر، وكتابه لبني زهير العكليين، وكتابه لبعض أفخاذ جهينة، وكل هذه العهود والكتب مروية في كتب العامة، فراجع.

(٣٥) نشرت في مجلة «رسالة القلم»، العدد ١٤، الصادرة في ربيع الثاني ١٤٢٩ هـ بقم المقدسة.

(٣٦) لتردد عبد الملك بين الثقة وغيره، وإن كان جُلّ رجال السند ثقات بما في ذلك الحسين وأبو محمد، فإنّ الحسين هو الحسين بن أبي العلاء الثقة الذي يروي عن أبي محمد، وأبو محمد هو السراج الثقة برواية صفوان بن يحيى عنه، وأمّا عبد الملك فهو مردّد بين عبد الملك بن أعين الثقة، وعبد الملك بن عتبة الهاشمي الذي لم تثبت وثاقته؛ إذ هما الراويان عن الباقر عليه السلام، وليس

المراد منه عبد الملك بن عتبة النخعيّ الثقة، فإنّ لفظ عبد الملك وإن كان ينصرف إليه؛ لأنّه صاحب الكتاب، إلّا أنّه لا يروي عن الباقر عليه السلام.

(٣٧) الوسائل ٢٦: ٢١٢ (ك الفرائض والمواريث)، ب٦، من أبواب ميراث الأزواج، ح ١٧.

بحث في أدلة الشفاعة عند المعتزلة

(القسم الثاني)

سعيد جعفر حماد

كما تنقسم أدلة المعتزلة - على عدم شمول الشفاعة لأصحاب الكبائر إذا لم يتوبوا - إلى أدلة عقلية وأدلة سمعية قرآنية وروائية، وتقدم الكلام في القسم الأول حول الأدلة العقلية، ومقدار من الأدلة القرآنية مع ما فيها من مناقشات، ولازال الكلام في الأدلة القرآنية.

الآية الرابعة:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(١).

أخبر تعالى عن ملائكته أنهم لا يشفعون لكل شخص إلا أن يرتضيه الله عز وجل، والفاسق ليس بمرتضى عند الله تعالى، وإذا لم تشفع الملائكة له فكذا الأنبياء والأولياء عليهم السلام؛ لأنه لا قائل بالفرق^(٢)، والفاسق غير مرضي عند الله تعالى، فلا يشفع الرسول عليه وآله له، ولا الأولياء عليهم السلام، وقال مجاهد: لا يشفعون إلا لمن رضي الله عنه^(٣).

وعن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾^(٤) معناها: لا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(٥).

المناقشة الأولى:

للفخر الرازي، ومصلها: إن الآية الكريمة تثبت الشفاعة لكل من صدق عليه بأن الله راضٍ عنه، وصاحب الكبيرة مرتضى عند الله تعالى؛ لأن الله تعالى راضٍ عن إيمانه، وعن توحيده، فتشمله الشفاعة، وعن ابن عباس والضحاك أن معنى: ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ أي: لمن قال: لا إله إلا الله^(٦). وعدم ارتضاء الله تعالى عن الفاسق من حيث فسقه لا يعني صدق عدم ارتضاء الله تعالى عنه بشكلٍ مطلق، وثبت في العلوم المنطقية أن القضيتين المهملتين لا تتناقضان، فقولنا: (زيدٌ عالمٌ). على نحو القضية المهملة لا تتناقض مع: (زيدٌ ليس بعالمٍ). إذا كانت مهملةً أيضاً، وإذا ثبت هذا فكذا قولنا: (صاحب الكبيرة مرتضى.)، و: (صاحب الكبيرة ليس بمرتضى.)، لا يتناقضان؛ لاحتمال أن يُقال: إنه مرتضى بحسب دينه، ليس بمرتضى بحسب فسقه. وأيضاً فمتى ثبت أنه مرتضى بحسب إسلامه صدق عليه عنوان مرتضى، فتشمله الشفاعة، فوجب دخوله تحت الاستثناء، وخروجه عن المستثنى منه، فثبت أنه من أهل الشفاعة^(٧).

جواب المناقشة:

إن تخصيص الشفاعة لمن يرتضيه الله تعالى ليست قضيةً مهملةً - بحسب الظاهر - حتى يُقال بأنها لا تناقض عدم ارتضاء الله تعالى عن عبدٍ من جهة فسقه، بل ظاهرها - بحسب الانصراف عند الإطلاق - إلى كون العبد مرضياً عند الله من خلال عقيدته وطاعته، والمرتكب للكبيرة - مع عدم توبته عنها - ليس كذلك، نظير عدم رضا الأب عن الابن، والأم عنه، والسلطان عن رعيته، فإن الملحوظ في

الرضا العقيدة والعمل، ومجرّد الإسلام - والتلفظ من غير عملٍ - لا يعني تحقّق الرضا، وما أكثر الذنوب التي توجب سخط الله تعالى.
نعم ولو قامت قرينةً على أن المراد رضا الله من حيث العقيدة والتلفظ بالشهادتين، لأمكن صرف المعنى عن الظاهر، وعمّا تنصرف إليه من المعنى.

المناقشة الثانية:

وهي للعلامة الطباطبائيّ تدوّن^(٨)، ومحصّلها أن المراد لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه، وتعلّق الرضا بالدين - لا بالعمل - في الآية لثلاثة قرائن:
الأولى: إطلاق الارتضاء ولم يقيده بعملٍ أو نحوه، ولو كان مقيداً بالعمل لقيده به، كما قيّد الرضا بالقول في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾^(٩)، حيث لم يقيّد في: (لمن ارتضى) عرّف بأن المراد من: (ارتضى) ارتضاء أنفسهم، أي: ارتضاء دينهم، لا ارتضاء عملهم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفِدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا * لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾^(١٠)، إن من اتخذ عند الرحمن عهداً، يملك الشفاعة، ومن المجرمين من كان على دين الحق، لكنّه لم يعمل صالحاً، وهو الذي اتخذ عند الرحمن عهداً، ويدلّ على أن اتخاذ العهد عند الرحمن هو كونه على دين الحق، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(١١)، فإنّ قوله: ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي﴾ عهدٌ بمعنى: (الأمر)، وقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ عهدٌ بمعنى: (الالتزام)؛ لاشتغال الصراط المستقيم على الهداية إلى السعادة والنجاة، فيفهم أنّ اتخاذ العهد عند الله هو اتخاذ الدين الحق، فهؤلاء قومٌ من أهل الإيمان يدخلون النار؛ لسوء أعمالهم، ثمّ ينجون منها بالشفاعة، ويستشعر هذا المعنى من قوله تعالى:

﴿قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾^(١٢)، فبين استفهام استنكاري - فهل هؤلاء اليهود المحرفين على دين الحق حتى يقولوا: «لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة»، ثم نخرج منها بالشفاعة.؟!-، ومفهوم الآية أن من اتخذ عند الله عهداً - أي: كان على دين الحق - لا تمسه النار إلا مجرد أيام معدودة، فجميع الآيات الآتية تدل على مورد الشفاعة، أعني المشفوع لهم يوم القيامة هم: الدائنون بدين الحق من أصحاب الكبائر، وهم الذين ارتضى الله دينهم^(١٣).

القرينة الثالثة: ما رواه الفريقان من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، ولو لم يثبت هذا عن النبي ﷺ فإننا قد أثبتناه عن طريق الآيات المتقدمة^(١٤).

التأمل في المناقشة:

القرائن التي ذكرها السيد العلامة لا تخلو من نظر، ما عدا الثالثة، وسيأتي الحديث فيها، فأما القرينة الأولى: فلما تقدم من رد المناقشة الأولى، من أن ظاهر الارتضاء يتعلق بالعقيدة والعمل معاً، كما يظهر من عدة آيات من القرآن الكريم، مثل:

(١) ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١٥)، رضي الله عنهم بما فعلوا^(١٦).

(٢) وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾^(١٧)، فظاهر الآية الشريفة أن الاتباع بالإحسان له مدخلية في حصول الرضا، وقال الشيخ الطوسي في تفسير الآية: (ثم أخبر أن الله رضي عنهم، ورضي أفعالهم، ورضوا هم أيضاً عن الله؛ لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم، وإيمانهم...)^(١٨).

فالعطف في قوله: (ورضي أفعالهم) عطفٌ تفسيري؛ إذ لا يوجد إلا رضا واحدٌ من الله تعالى في الآية الشريفة، وقال الشيخ الطبرسي: (أخبر سبحانه أنه رضي عنهم أفعالهم) (١٩).

٣) وقال تعالى: ﴿وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٠)، رضي الله عنهم بإخلاصهم الطاعة له (٢١).

٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٢٢)، رضي أفعالهم، وبما قدموه من طاعات (٢٣).

وفي روايةٍ عن الإمام الصادق عليه السلام تدلُّ أن الرضا لا ينحصر بالرضا بالدين دون العمل، يرويها الكليني، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حفص المؤذن، عن أبي عبد الله عليه السلام في رسالته إلى أصحابه، قال: «واعلموا أنه ليس يغني عنكم من الله أحدٌ من خلقه شيئاً، لا ملكٌ مقربٌ، ولا نبيٌ مرسلٌ، ولا من دون ذلك، فمن سره أن ينفعه شفاعة الشافعين عند الله، فليطلب إلى الله أن يرضى عنه» (٢٤).

فإن الإمام عليه السلام يخاطب أصحابه، ولا شك أن دينهم مرضيٌّ، فلم يبق معنى لطلب الرضا إلا في العمل.

وأما القرينة الثانية: فإن نفس العلامة تتدبر - عند تفسيره لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ - بين أن المراد من: ﴿مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ هو: أن الشفيع يملك الشفاعة بعهدٍ من الله تعالى، وهذا لا يكون إلا إلى صفوة أوليائه، ونصّ عبارته عند تفسيره للآية في محلها هو:

(هذا جوابٌ ثانٍ عن اتِّخَاذِهِمُ الْآلِهَةَ لِلشَّفَاعَةِ، وهو أنَّ ليس كلَّ من يهوى الإنسان شفاعته فاتَّخَذَهُ إلهاً - ليشفع له - يكون شفيعاً، بل إنّما يملك الشَّفَاعَةَ بعهدٍ من الله، ولا عهد إلاّ لِأَحَادٍ من مقرَّبِي حضرته، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢٥).

وأما كون معنى: ﴿مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ هو أنَّ المُشْفَع لهم لا يملكون الشَّفَاعَةَ إلاّ من اتَّخَذَ عند الرحمن عهداً، والعهد هو: الإيمان بالله، والتصديق بالنبوّة، - فإنّما ذكره قولاً مشعراً بتضعيفه، وصرّح بترجيح المعنى الأوّل الذي اختاره، وقال: هو الأوجه، وهو بالسياق أنسب (٢٦).

مضافاً إلى أنّه قد ورد من الأخبار ما يفسّر العهد في قوله: ﴿مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، فعن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام في حديثٍ جاء فيه سؤال الراوي عن هذه الآية:

«قلتُ: قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: إلاّ من دان بولاية أمير المؤمنين، والأئمّة من بعده، هو العهد عند الله» (٢٧).
تدلّ على أنّ اتِّخَاذَ الْعَهْدِ ليس مجرد الشهادتين.

وفي روايةٍ أخرى تطبّق وصيّة الميت بنحوٍ خاصٍّ على عهد الله في الآية الشريفة، يرويها المحمّدون الثلاثة (٢٨) بسند متصلٍ عن سليمان بن جعفر، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من لم يحسن وصيّته عند الموت كان نقصاً في مروءته، وعقله. قيل: يا رسول الله، وكيف يوصي الميت؟ قال: إذا حضرته وفاته، واجتمع الناس إليه، قال: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، اللهم إني أعهد إليك في دار الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك، ورسولك، وأنّ الجنّة حقٌّ، وأنّ النار حقٌّ،

وَأَنَّ الْبَعْثَ حَقٌّ، وَأَنَّ الْحِسَابَ حَقٌّ، وَالْقَدْرَ وَالْمِيزَانَ حَقٌّ، وَأَنَّ الدِّينَ كَمَا وَصَفْتِ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ كَمَا شَرَعْتِ، وَأَنَّ الْقَوْلَ كَمَا حَدَّثْتِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَمَا أَنْزَلْتِ، وَأَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، جَزَى اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَحَيَّا اللَّهُ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ بِالسَّلَامِ، اللَّهُمَّ يَا عِدَّتِي عِنْدَ كَرْبَتِي، وَيَا صَاحِبِي عِنْدَ شِدَّتِي، وَيَا وَلِيَّ نِعْمَتِي، إِلَهِي وَإِلَهَ آبَائِي، لَا تَكْلِنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَدًا؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَكْلِنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَقْرَبُ مِنَ الشَّرِّ، وَأَبْعَدُ مِنَ الْخَيْرِ، فَانْسُ فِي الْقَبْرِ وَحْشَتِي، اجْعَلْ لِي عَهْدًا يَوْمَ أَلْقَاكَ مَنْشُورًا. ثُمَّ يُوَصِّي بِحَاجَتِهِ، وَتَصَدِّقُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ فِي الْقُرْآنِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يَذْكَرُ فِيهَا مَرْيَمٌ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَا يَلِكُونُ الشَّقَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، فَهَذَا عَهْدُ الْمَيِّتِ، وَالْوَصِيَّةُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَحْفَظَ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ، وَيَعْلَمَهَا، وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ع: عَلَّمْنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَلَّمْنِيهَا جَبْرَائِيلُ ع: (٢٩).

وهذه الرواية تشعر بالمعنى الذي يذهب إليه الطباطبائي من العهد، وإن كان التطبيق لحالة خاصة.

وأما القرينة الثالثة فهي العمدة في المقام، وسوف يأتي الحديث في حدودها إن شاء الله تعالى.

المناقشة الثالثة:

وهي للشيخ الطوسي تدثر، ومفادها أن الآية ليست ظاهرة في كون ارتضاء الله تعالى عن العبد من حيث العمل، بل يمكن أن يكون المراد: لا يشفعون إلا لمن رضي الله أن يُشفع فيه، قال:

(وهذا الذي ذكره ليس في الظاهر، بل لا يمتنع أن يكون المراد: لا يشفعون إلا لمن رضي الله أن يُشفع فيه، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، والمراد: أنهم لا يشفعون إلا من بعد إذن الله لهم، فيمن يشفعون فيه) (٣٠).

ونظير هذه المناقشة نقلها الفخر عن بعض المفسرين، فقال ما مفاده: (إذا قلنا: إن المراد من الآية الكريمة هو أن الملائكة لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله منه شفاعته. فلا تدل إلا على أن تحقق الشفاعة لشخص مشروطة بأن تكون ممن يرضى الله عن شفاعته، وليس فيها نظراً إلى من يكون الله راضياً عن شفاعته) (٣١).

فبناءً على هذه المناقشة: إن الآية الكريمة لا تدل على عدم شمول الشفاعة لمرتكبي الكبائر إذا لم يتوبوا، كما أنها لا تدل على شمول الشفاعة لهم، وإنما تدل على أن الشفاعة يمكن أن تتحقق إذا كان الله راضياً بتحققها، وليس فيها نظراً إلى من تتعلق به الشفاعة، فلا تدل على ما هي صفات الأشخاص الذين يرضى الله بتحقق الشفاعة لهم.

التأمل في المناقشة:

إن حمل ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ على: (إلا من ارتضى الله تحقق الشفاعة فيه من الشفعاء) - تحتاج إلى تقدير أكثر من معنى لمن ارتضى الله عنه.

وكما أن هذه المناقشة لا يقبلها من يرى دلالة الآية على عدم شمول الشفاعة لمرتكبي الكبائر، كذلك لا يرتضيها من يرى أن الآية تدل على شمولها لهم، كالفخر الرازي، حيث أجاب عن هذه المناقشة فقال ما مفاده: (إن حمل الآية على أن المراد: (لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله بشفاعته)، فلا داعي له، ولا فائدة فيه، بخلاف حملها على معنى: (لا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله)، حيث إن الآية تفيد الترغيب

والتحريض على طلب مرضاة الله ﷻ، والاحتراز عن معصيته، وتفسير كلام الله على ما يكون أكثر فائدةً أولى من غيره من التفسير) (٣٢).

المناقشة الرابعة:

وهي للشيخ الطوسي أيضاً، ومفادها أنه على فرض التنزل على كون المراد من: ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ هو: (إلا لمن ارتضى عمله)، فإن المعنى: ارتضى إيمانه، وكثيراً من طاعته (٣٣).

فإذا كانت الطاعة غالبيةً من العبد على المعاصي فيصحّ تعلق الرضا بالأعمال، فيكون إطلاق الرضا عليها من باب الغلبة، فتشمل الشفاعة من ارتكب الكبائر إذا غلبت عليها الطاعات.
لكن قد يُقال: بأن هذه المناقشة أخصّ من المدعى.

الآية الخامسة:

قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (٣٤).

ولو كان الله سبحانه يغفر للفاسق - الذي لم يتب - بتوسط الشفاعة، لما كان معنى لتقييد المستغفر إليهم في دعاء استغفار الملائكة للمؤمنين بالذين تابوا، واتبعوا السبيل (٣٥).

قال الزمخشري: فإن قلت: ما الفائدة في استغفارهم لهم، وهم تائبون، صالحون، موعودون المغفرة، والله لا يخلف الميعاد؟!

قلتُ: هذا بمنزلة الشفاعة، وفائدته زيادة الكرامة والثواب^(٣٦).

المناقشة الأولى:

مناقشة الفخر الرازي، ومفادها أن نفس الآية تدلّ على أن شفاعَةَ الملائكة تحصل للمذنبين الذين لم يتوبوا، ويستفاد ذلك منها من ثلاثة وجوه:

الأول: في قوله في صدر الآية: ﴿بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، فكلّ من صدق عليه عنوان المؤمن، فإن الملائكة تستغفر له، وصاحب الكبيرة من جملة المؤمنين، فوجب دخوله في جملة من تستغفر الملائكة لهم، أقصى ما في الباب أنه ورد بعد ذلك قوله: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾، إلا أن هذا لا يقتضي تخصيص ذلك العام؛ لما ثبت في أصول الفقه أن اللفظ العام إذا ذكر بعده بعض أقسامه، فإن ذلك لا يوجب تخصيص ذلك العام بذلك الخاص، أو إثبات شيء لبعض الأفراد لا ينفي ثبوته لبعض آخر^(٣٧).

الثاني: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، والاستغفار طلب المغفرة، والمغفرة لا تذكر إلا في إسقاط العقاب، أمّا طلب النفع الزائد فإنه لا يسمّى استغفاراً.

الثالث: قوله تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾، طلب المغفرة للذين تابوا، ولا يجوز أن يكون المراد إسقاط عقوبة الكبيرة بعد التوبة؛ لأن ذلك واجبٌ على الله عند المعتزلة، وما كان فعله واجباً كان طلبه بالدعاء قبيحاً، ولا يجوز أيضاً أن يكون المراد إسقاط عقوبة الصغائر؛ لأن ذلك أيضاً واجبٌ، فلا يحسن طلبه بالدعاء، ولا يجوز أن يكون المراد طلب زيادة منفعة على الثواب؛ لأن ذلك لا يسمّى مغفرةً، فثبت أنه لا يمكن حمل قوله: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ إلا على إسقاط عقاب الكبيرة قبل التوبة.

وإذا ثبت تحقق شفاعة الملائكة للمذنبين، فكذلك تثبت شفاعة الأنبياء؛ للإجماع على عدم الفرق^(٣٨).

جواب المناقشة:

أولاً: ظاهر سياق الآية الكريمة يفيد بأن الخاص الذي جاء بعد العام يفسر العام، فهما في سياق واحد، فقول الملائكة: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾، يفسر قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، فاستغفار الملائكة للمؤمنين هو بهذا الدعاء، ولا يفهم من الآية أن للملائكة استغفارين، أحدهما لمطلق من أسلم، والآخر لخصوص من تاب.

ثانياً: قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٣٩) - يصلح ردّاً على دعوى لغوية الاستغفار للتائب.

ثالثاً: على فرض تحقق التوبة التي ترتب عليها المغفرة لا مانع من استغفار الملائكة لهم، بناءً على ما أفاد الشيخ الطوسي، والشيخ الطبرسي من أن إسقاط العذاب من الله تعالى عن التائب تفضل منه^(٤٠).

رابعاً: إن التوبة لها مراتب ومستويات، ولا تلازم بين تحقق المغفرة وتحقيق صرف التوبة، ومن أي مستوى كانت.

المناقشة الثانية:

وهي تُفهم من كلام العلامة الطباطبائي^(٤١)، أن التوبة هنا ليست التوبة عن المعصية التي هي فرع الإيمان، وإنما التوبة هي الرجوع إلى الله تعالى بالإيمان، قال في تفسير: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾: والمعنى: فاغفر للذين رجعوا إليك

بالإيمان بوحدايتك، وسلوك سبيلك الذي هو الإسلام، وقهم عذاب الجحيم، وهو: غاية المغفرة^(٤٢).

وأفاد في مورد تفسير: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾^(٤٣)، أن المراد من التوبة أصل الإيمان، واستشهد بالآية التي هي محل البحث، قال:
والمراد بمن تاب مع النبي: المؤمنون؛ الذين رجعوا إلى الله بالإيمان، وإطلاق التوبة على أصل الإيمان - وهو رجوع من الشرك - كثير الورد في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾^(٤٤)، إلى غير ذلك^(٤٥).

التأمل في المناقشة:

أولاً: حمل التوبة على الإيمان خلاف الظاهر، ولا يصار إليه إلا بقريضة صارفة واضحة المعالم، وإطلاق استغفار الملائكة لمن في الأرض - من غير تخصيص بالمؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٤٦) - يمكن أن يخص بالآية التي هي محل البحث، كما فعل ذلك الشيخ مكارم الشيرازي^(٤٧).

ثانياً: ما ورد من رسالة ابن أبي عمير، عن بعض أصحابنا، من أن استغفار الملائكة خاص للتائبين من الذنوب، الرواية يرويهما الشيخ الكليني، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن بعض أصحابنا، رفعه قال:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعْطَى التَّائِبِينَ ثَلَاثَ خِصَالٍ، لَوْ أُعْطِيَ خِصْلَةً مِنْهَا جَمِيعَ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنَجَّوْا بِهَا، قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٤٨)، فَمَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ لَمْ يَعْذِبْهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٤٩﴾، وقوله ﴿٤٩﴾: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٤٩).

ثالثاً: ما ورد مستفيضاً - إن لم يكن متواتراً - من اختصاص استغفار الملائكة للمؤمنين بالمعنى الخاص^(٥٠)، حيث إنَّ المستفاد استغفار الذنوب التي هي فرع الإسلام والإيمان.

وهذا الوجه الأخير - وسابقه - يصلحان ردّاً على مناقشة الرازي أيضاً.

الآية السادسة:

قوله ﴿٥١﴾: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (٥١).

احتجَّ المعتزلة^(٥٢) بهذه الآية أيضاً؛ لعدم شمول الشفاعة لمرتكب الكبيرة؛ حيث إنَّ المجرمين اقتصروا ما أوجب دخولهم النار، فلا تنفعهم شفاعة الشافعين. قال الزمخشري:

لو شفع لهم الشافعون جميعاً - من الملائكة، والنبیین، وغيرهم - لم تنفعهم شفاعتهم؛ لأنَّ الشفاعة لمن ارتضاه الله، وهم مسخوطٌ عليهم، وفيه دليلٌ على أنَّ الشفاعة تنفع يومئذٍ؛ لأنَّها تزيد في درجات المرتضين^(٥٣).

المنافشة:

ما أطبق عليه المفسرون من كون الآية خاصةً بالكافرين، ولربما يُقال: إنَّ استدلال الرازيِّ بها على وقوع الشفاعة يصلح مناقشةً للمعتزلة، ودلالاتها على ثبوت الشفاعة للمسلمين بناءً على مفهوم اللقب، أو بتعبيره: دليل الخطاب، فالكافرون لا تنفعهم شفاعة الشافعين، يعني بالمفهوم: أنَّ شفاعة الشافعين تنفع المسلمين^(٥٤).

وكذا العلامة الطباطبائيُّ يرى دلالتها على وقوع الشفاعة بقرائن ثلاث: الأولى: أنها تنفي الانتفاع عن طائفةٍ خاصةٍ من المجرمين الذين ذكرت الآية صفاتهم، لا عن جميع المجرمين.

الثانية: الشفاعة في الآية الكريمة مضافة، لا مقطوعةً عن الإضافة، ونفي المصدر المضاف يشعر بوقوع الفعل في الخارج، ففرقٌ بين جملة: (لا تنفعهم الشفاعة.)، وبين جملة: (فلا تنفعهم شفاعة الشافعين.).

الثالثة: كون المضاف إليه بصيغة الجمع يدلُّ على وقوع الشفاعة، ولو لم تقع كان الإتيان بصيغة الجمع لغوً؛ لأنَّ صيغة الفرد تقوم مقامها، فلا معنى للإتيان بصيغة الجمع^(٥٥).

لكنَّ مجرد كون الآية تثبت الشفاعة لا يصلح رداً للمعتزلة؛ لأنَّ المعتزلة لا تنكر أصل وقوع الشفاعة، وقد تقدّم عن الزمخشري أنَّ الآية تدلُّ على أنَّ الشفاعة تنفع في زيادة النفع.

نعم، ظاهر العلامة بأنَّ من اتَّصف بالصفات التي ذكرتها الآية الكريمة - من أنَّ المجرمين لا تشملهم الشفاعة - يفيد بأنَّ من لم يتَّصف بتلك الصفات من المجرمين فإنَّ الشفاعة تنفعه، وقد وضَّح كلامه أكثر في موردٍ آخر، ومحصل ما أفاد: أنَّ قوله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ *
عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعَمُ
الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا
الْيَقِينَ﴾ (٥).

تبيِّن الآيات أنَّ كلَّ نفسٍ مرهونةٌ بعملها، مؤاخذةٌ على ما ارتكبتُ من الذنوب،
إلا أصحاب اليمين، وأما المجرمون الذين سلكوا سقر فإنَّهم مرهونون بأعمالهم، لكن
ليس كلَّ المجرمين، بل المجرمون الذين يتَّصفون بما وصفتهم به الآيات الكريمة، وأما
من لم يتَّصف بتلك الصفات فهو من أصحاب اليمين، وإن كان من المجرمين، لكن الله
سبحانه فكَّن نفوسهم عن رهان الذنوب والآثام بواسطة الشفاعة، فأصحاب اليمين هم
المشفَّعون بالشفاعة، وبيان ذلك:

إنَّ الآيات تُعرِّف أصحاب اليمين بانتفاء الأوصاف المذكورة في الآية الكريمة،
والآيات من سورة المدثر، وهي مكِّيَّة، نزلتُ في بدايات البعثة النبويَّة، ولم يشرَّع
الله في ذلك الوقت الصلاة - والزكاة - بالكيفيَّة التفصيليَّة في الأحكام الفقهيَّة، فالمراد
من الصلاة - وهي الصفة الأولى - في قوله: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ هو: التوجُّه إلى
الله تعالى بالخضوع إلى عبادته عمَّن سواه، والمراد من الصفة الثانية (إطعام المسكين):
مطلق الإنفاق على المحتاجين في سبيل الله، دون الصلاة والزكاة المعهودتين في
الشريعة الإسلاميَّة، والصفة الثالثة هي: الخوض، وهو الغور في ملاهي الحياة،
وزخارف الدنيا، التي تصرف الإنسان عن الإقبال على الآخرة، وذكر يوم الحساب،
والصفة الرابعة: التعمُّق في الطعن في آيات الله، التي تذكِّر يوم الحساب، وتنذر به،
والتي تبشِّر بالجنة للموحِّدين.

وهذه الصفات الأربع أركانٌ للدين؛ لأنَّ الدين - بحسب الاعتقاد والعمل - يقوم بهذه الخصال الأربع، وأمَّا بقيَّة أركان الدين - كالنبوة - فهي لازمةٌ لهذه الأركان الأربعة، وأصحاب اليمين من لا يتَّصف بهذه الصفات، فهم المرضيَّ عنهم في الدين والاعتقاد، سواء كانت أعمالهم مرضيةً فلا يحتاجون إلى الشفاعة يوم القيامة، أو لم تكن أعمالهم مرضيةً فهم المحتاجون إلى الشفاعة، وهم الذين لم يجتنبوا الكبائر، وأمَّا الذين اجتنبوا الكبائر - ولم يجتنبوا الصغائر - فإنهم غير محتاجين للشفاعة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ (٥٧)، فثبت أنَّ الشفاعة لأهل الكبائر من أصحاب اليمين (٥٨).

وإنما أُطلق عليهم لقب: (أصحاب اليمين) في مقابل: (أصحاب الشمال)، وقد يُطلق عليهم: (أصحاب الميمنة) مقابل: (أصحاب المشأمة)، وهي مأخوذةٌ ممَّا اصطُح عليه القرآن من إيتاء الإنسان يوم القيامة كتابه بيمينه (٥٩).

الآية السابعة:

وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٦)، وكذا قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٦)، وكذا بقيَّة الآيات النافية لوجود أنصارٍ للظالمين يوم القيامة، ولو كان الرسول ﷺ يشفع للفاسق من أمته لوصفوا بأنهم منصورون؛ لأنَّه إذا تخلَّص بسبب شفاعة الرسول ﷺ عن العذاب فقد بلغ الرسولُ النهايةَ في نصرته (٦).

وقال الزمخشريُّ في مورد الآية الثانية: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾: اللام إشارةٌ إلى من يدخل النار، وإعلامٌ بأنَّ من يدخل النار فلا ناصر له بشفاعة، ولا غيرها (٦٣).

المناقشة الأولى:

وهي للشيخ الطوسي تدش، ومفادها: أن حقيقة الشفاعة تختلف عن حقيقة النصر، قال في مورد الآية الأولى:

والنصير: هو المعين على العدو، فعلى هذا لا تدل الآية على أنه لا شفاعة لمرتكبي الكبائر؛ لأن لا أحد يقول: إن لهم معيناً على عدوهم في مورد الشفاعة، بل إنما نقول: لهم من يسأل في بابهم على وجه التضرع، ولا يسمّى ذلك نصراً على حال^(٦٥).

وقال في مورد الآية الثانية: معناه: ليس للظالمين من يدفع عنهم على وجه المغالبة والقهر؛ لأن الناصر هو: الذي يدفع عن المنصور على وجه المغالبة، ولا ينافي ذلك الشفاعة في أهل الكبائر؛ لأن الشفاعة هي: مسألة، وخضوع، وتضرع إلى الله تعالى، وليست من النصر في شيء، وقوله ﷺ: «يخرجون من النار بعد ما يصيرون حمماً وفحمًا»، صريحٌ بوقوع العفو عن مرتكبي الكبائر^(٦٥).

وتبع الشيخ الطبرسيّ الشيخ الأنصاريّ في هذه المناقشة^(٦٦)، والفخر الرازيّ تمسك بالمتبادر العرفي؛ لاختلاف أحدهما عن الآخر، قال:

إنّ العرف لا يسمّي الشفيع ناصراً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(٦٧)، ففرّق تعالى بين الشفيع والناصر، فلا يلزم من نفي الأنصار نفي الشفعاء^(٦٨).

المناقشة الثانية:

للفخر الرازيّ، مفادها: أن مدلول ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ سلب العموم، لا عموم السلب، وتقدّم نظير هذه المناقشة له^(٦٩).

المناقشة الثالثة:

له أيضاً، قال: إنَّ هذا الدليل النافي للشفاعة عامٌّ في حقِّ الكلِّ، وفي كلِّ الأوقات، والدليل المثبت للشفاعة خاصٌّ في حقِّ البعض، وفي بعض الأوقات، والخاصُّ مقدَّمٌ على العامِّ^(٧٠).

المناقشة الرابعة:

له أيضاً، ومفادها: أنَّ دلالة العموم إنَّما تدلُّ على الاستغراق بالظهور الظنيِّ، والمسألة ليست ظنيَّةً، ولا بدَّ فيها من العلم^(٧١).

المناقشة الخامسة:

العلامة الطباطبائيُّ يرى في الآية الأولى عدم النصير، وعدم الشفيع؛ وذلك لخصوصية ترك العمل بوجوب الإنفاق، وليس كذلك باقي المعاصي الكبيرة^(٧٢).

الآية الثامنة:

قوله ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾^(٧٣)، يدلُّ على أنَّ كلَّ الفجار يدخلون النار، وعنوان الفاجر يشمل الفاسق من المسلمين، وتدللُّ على أنَّهم لا يغيبون عن النار، وإذا ثبت أنَّهم لا يغيبون عنها ثبت أنَّهم لا يخرجون منها، وإذا كان كذلك فليس هناك من يشفع لهم، فليس لهم نصيب من الشفاعة، لا في العفو عن العقاب، ولا في الإخراج من النار بعد أن أدخلهم الله فيها^(٧٤).

وربما يؤيِّد هذا المعنى بما يُظنُّ من تصديق الإمام الصادق عليه السلام لخبر أبي ذرِّ الذي يرويه الشيخ الكلينيُّ بسندٍ إلى عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«جاء رجلٌ إلى أبي ذرٍّ، فقال: يا أبا ذرٍّ، ما لنا نكره الموت؟! فقال: لأنكم عمرتم الدنيا، وأخربتم الآخرة، فتكرهون أن تُنقلوا من عمرانٍ إلى خرابٍ. فقال له: فكيف ترى قدومنا على الله؟ فقال: أمّا المحسن منكم فكالغائب يقدم على أهله، وأمّا المسيء منكم فكالآبق يردُّ على مولاه. قال: فكيف ترى حالنا عند الله؟ قال: اعرضوا أعمالكم على الكتاب، إن الله يقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾... الخ»^(٧٥).

فإن نقل الإمام الصادق عليه السلام لكلام أبي ذرٍّ فيه لمسة تصديق وإمضاء له، والرجل الذي جاء إلى أبي ذرٍّ من المسلمين.

ونقل الرازي عن الجبائي أنه قال: لو خَصَّصْنَا قَوْلَهُ: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ لكان بعض الفجار يصيرون إلى الجنة، ولو صاروا إليها لكانوا من الأبرار، وهذا يقتضي أن لا يتميَّز الفجار عن الأبرار، وذلك باطل؛ لأن الله تعالى ميَّز بين الأمرين، فإذاً يجب أن لا يدخل الفجار الجنة، كما لا يدخل الأبرار النار^(٧٦).

المناقشة الأولى:

للشيخ الطوسي، ومفادها:

أولاً: أن الآية مختصة بالكافرين.

وثانياً: أن المؤمنين لهم ثواب دائم على إيمانهم، فلا يكونون ملازمين للنار، فإذا دخلوا النار فإنهم يخرجون؛ حتى يوافوا ثوابهم^(٧٧).

وقال الشيخ الطبرسي في وجه اختصاصها بالكافرين: وقد دلّ الدليل على أن أهل الكبيرة من المسلمين لا يخلدون في النار؛ ولأنه سبحانه قد ذكر المكذبين بالدين فيما قبل هذه الآية، فالأولى أن تكون لفظة الفجار مخصوصة بهم^(٧٨).

المناقشة الثانية:

للفخر الرازي، ومحصّلها: أنّه مع التسليم أنّ العموم يفيد القطع، فإنّه لا يُسلّم بأنّ عنوان الفاجر يشمل الفاسق في الآية، بدليل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾^(٧٩)؛ لأنّ المراد لا يخلو من أحد معنيين:

الأوّل: أولئك هم الكفرة من الفجرة، فتكون الفجرة قيداً للكفرة.

والثاني: أولئك هم الكفرة، وهم الفجرة.

والأوّل ليس صحيحاً؛ لأنّ كلّ كافرٍ فاجرٌ بالإجماع، فتقييد الكافر بالفاجر عبثٌ، وإذا بطل المعنى الأوّل تعيّن المعنى الثاني، ويفيد حصر الفاجر بالكافر، إذا ثبت أنّ الكافر هو الفاجر لا غير، ثبت أنّ الفاسق من المسلمين ليس فاجراً.

وعلى فرض شمول عنوان الفاجر للمسلم، فإنّ قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ بحاجة إلى تقدير؛ لأنّ ظاهرها أنّهم في الحال غير غائبين عنها، وتقدير المعتزلة هو: أنّهم بعد أن يدخلوها فإنّهم لا يغيّبون عنها، ولكنّ التقدير عندنا هو: أنّهم في الحال ليسوا غائبين عن استحقاق الكون في الجحيم، وثبوت الاستحقاق لا ينافي العفو. وعلى فرض أنّ تقديرهم هو الصحيح، فإنّ الآية تعارض ما دلّ على ثبوت الشفاعة، وهو أقوى دلالةً، فيخصّص هذه الآية بالكافرين^(٨٠).

الآية التاسعة:

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾^(٨١).

قال القاضي عبد الجبار في تقريب ما يراه من عدم شمول الشفاعة لمرتكب الكبيرة إذا لم يتب بهذه الآية:

تدل الآية على أن من أخبر الله تعالى أنه يعذبه لا يخرج من النار، فإذا صح أنه أخبر بذلك في الفجار والفساق، فيجب فيهم، ويدل أيضاً على أنه لا يشفع النبي ﷺ لهم؛ لأنه لو شفع لهم لوجب أن يكون منقذاً من النار، وقد نفى الله تعالى عنه ذلك (٨٢).

والزمخشري وإن لم يصرح باستفادة نفي الشفاعة للمذنبين من الآية، إلا أنه يستشعر منه ذلك، قال في مورد تفسيره للآية: وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُنقِذُ﴾ يفيد أن الله تعالى هو الذي يقدر على الإنقاذ من النار وحده، لا يقدر على ذلك أحد غيره، فكما لا تقدر أنت أن تنقذ الداخل في النار من النار، لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه (٨٣).

المناقشة:

وأجاب الفخر الرازي بقوله: لا نسلم أن أهل الكبائر قد حق عليهم العذاب، وكيف يحق العذاب عليهم مع أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٨٤)؟! ومع قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ (٨٥)؟! والله أعلم (٨٦).

ويمكن أن يقال: بأن شفاعته النبي ﷺ - والأولياء - إنما تكون بإذن الله تعالى، وأصل الشفاعة لله تعالى، كما قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٧)، فالمنقذ من النار هو الله تعالى، وإن كان بشفاعة النبي ﷺ، ولا أحد غير الله ينقذ من النار.

النتيجة: والحق أن تنقيح النقاش مع المعتزلة من خلال الروايات الواردة عن طريق بيت العصمة والطهارة، بعد التعرض إلى بعض روايات العامة، ولو أنهم

تمسكوا بها لما وقعوا في الذي وقعوا فيه، وأما استظهار دلالة شمول الشفاعة لأهل الكبائر - حتى ولو لم يتوبوا - من الآيات في نفسها فمشكلٌ جداً، بل لو لم تكن أدلةً أخرى سوى الآيات الكريمة لما كان رأي المعتزلة ببعيدٍ.

ثانياً: الروايات:

أولاً: روايات العامة:

ما ينقله الفخر عن المعتزلة أربع روايات، استدلت بها المعتزلة على عدم شمول الشفاعة لأصحاب الكبائر إذا لم يتوبوا^(٨٨):

الأولى: عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة، فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددتُ أنا قد رأينا إخواننا. قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟! قال: أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد. فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمّتك يا رسول الله؟ فقال: أرأيت لو أن رجلاً له خيلٌ غرٌّ محجلةٌ بين ظهري خيلٍ دهم بهم، ألا يعرف خيله؟! قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فإنهم يأتون غرّاً محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، ألا ليزادن رجالٌ عن حوضي كما يزداد البعير الضال، أناديهم: ألا هلم. فيقال: إنهم قد بدّلوا بعدك، فأقول: سحقاً، سحقاً^(٨٩).

ومحلّ الشاهد أن الرسول ﷺ لو كان شافعاً لهؤلاء لما قال لهم: سحقاً، سحقاً. وكيف يكون شافعاً لهم في تخليصهم من العذاب الدائم وهو يمنعهم شربة ماء؟!.

الثانية: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة: أعاذك الله - يا كعب بن عجرة - من إمارة السفهاء. قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: أمراء يكونون من بعدي، لا يهتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم،

وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا منِّي، ولستُ منهم، ولا يردون عليَّ حوضي، ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فأولئك منِّي، وأنا منهم، وسيردون على حوضي، يا كعب بن عجرة، إنَّه لا يدخل الجنة لحمٌ نبت من سحت، النار أولى به، يا كعب بن عجرة، الصوم جُنَّةٌ، والصدقة تطفيء الخطيئة، والصلاة قربانٌ، - أو قال: - برهانٌ.. الخ (٩٠).

والاستدلال بهذا الحديث من ثلاثة وجوه:

الأول: عدم كونهم من النبي ﷺ، والنبي ﷺ ليس منهم، كنايةً عن براءة النبي ﷺ منهم، وإذا كان النبي ﷺ متبرئاً منهم، فكيف يشفع لهم؟!
الثاني: منع الرسول ﷺ أن يصلوا إليه الحوض، فامتناعه عن الشفاعة لهم أولى.
الثالث: قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة لحمٌ نبت من سحت» صريحٌ في أنه لا أثر للشفاعة في حقِّ صاحب الكبيرة.

الرواية الثالثة: عن أبي هريرة، قال: قام فينا النبي ﷺ، فذكر الغلول، فعظَّمه، وعظَّم أمره، قال: «لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبتِه شاةٌ لها ثغاءٌ، على رقبتِه فرسٌ لها حممةٌ، يقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتُك. أو على رقبتِه بعيرٌ له رغاءٌ، يقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتُك. أو على رقبتِه صامتٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتُك. أو على رقبتِه رفاعٌ تحفق، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتُك. وقال أيوب، عن أبي حيان: فرسٌ له حممةٌ» (٩١).

وهذا الحديث صريحٌ في المطلوب، فإذا كان الرسول لا يملك له من الله شيئاً، فليس له في الشفاعة نصيب؛ لأنَّ الشفاعة التي يملكها النبي ﷺ تكون في غير ذلك، أي: في زيادة الفضل.

لكنَّ هذا الحديث غريبٌ في معناه، ولا يستبعد وضعه.

الرواية الرابعة: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة؛ رجلٌ أعطى بي ثم غدر، ورجلٌ باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجلٌ استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطِ أجره»^(٩٢).

والاستدلال بأن يُقال: إذا كان النبي ﷺ خصيماً لهؤلاء، فكيف يكون شفيعهم؟!

المناقشة:

أجاب الفخر الرازي على الاستدلال ما محصله بأن الأحاديث أخصّ من المدعى، قال: وأما الأحاديث فهي دالة على أن محمداً ﷺ لا يشفع لبعض الناس، ولا يشفع في بعض مواطن القيامة، وذلك لا يدل على أنه لا يشفع لأحدٍ - البتة - من أصحاب الكبراء، ولا أنه يمتنع من الشفاعة في جميع المواطن^(٩٣).

وتقدّمت الإشارة إلى أحاديث تدل على عدم نيل الشفاعة لمن لم يكن مؤمناً بالمعنى الخاص، وبيّن الفخر بأن الروايات الدالة على شمول الشفاعة لأهل الكبراء بمجموعها يثبت ذلك^(٩٤).

ردّ المناقشة:

لكن يبدو أن الأحاديث التي تدل على أن من ارتكب بعض الكبائر يخلد في النار من طرق العامّة ليست دالة على أن من ارتكب قليلاً من الكبائر يخلد في النار،

بل كثيرٌ منها، كما نقل القاضي عبد الجبار بعضاً من تلك الأخبار، بل ربما يُقال: بأن كونها مستثنياتٍ من الكبائر التي لا تنافي الشفاعة أمرٌ مستهجنٌ. وبعض الأفعال في الأحاديث المتقدمة التي توجب عدم دخول الجنة - وتوجب الخلود في النار - يبدو أنها لا تصدق عليها الكبائر، فضلاً عن كونها توجب الخلود في النار.

وأما الحديث النبوي: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» فأجابت المعتزلة على الاستدلال به بوجوه، قال القاضي عبد الجبار:

الجواب: أن هذا الخبر لم تثبت صحته أولاً، ولو صح فإنه منقولٌ بطريق الآحاد عن النبي ﷺ، ومسألنا طريقها العلم، فلا يصح الاحتجاج به، ثم إنه معارضٌ بأخبار رويت عن النبي ﷺ، نحو قوله: «لا يدخل الجنة نمامٌ، ولا مدمن خمرٍ، ولا عاقٍ..»^(٩٥)، وقوله ﷺ: «من قتل نفسه بمديدة فحديده في يده، يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً»^(٩٦)، إلى غير ذلك، فليس يوجد بما أورده أولى بما روينا، فيجب أن يطرحا جميعاً، أو حمل أحدهما على الآخر، فنحمل ما يقتضيه كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ونقول به، وهو: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي إذا تابوا»^(٩٧).

ثانياً: روايات الخاصة:

إن الحديث المروي عن النبي ﷺ: «ادّخرتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» مع انضمامه إلى الأحاديث الأخرى في شفاعة الأئمة عليهم السلام، وسيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام، الدالة على شمول الشفاعة للمذنبين، فإنها تثبت ذلك، وقال السيد العلامة الطباطبائي: الأخبار الدالة على وقوع شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة من طرق أئمة أهل البيت - وكذا من طرق أهل السنة والجماعة - بالغة حدّ التواتر، وهي من

حيث المجموع إنما تدلّ على معنى واحد، وهو: الشفاعة على المذنبين من أهل الإيمان بالتخليص من دخول النار، وإما بالإخراج منها بعد الدخول فيها، والمتيقنّ منها عدم خلود المذنبين من أهل الإيمان في النار^(٩٨).

وحتى يتّضح ما يثبت التواتر الإجماليّ في الروايات لشمول الشفاعة للمذنبين، أستعرض بعض الروايات؛ للتأمّل فيها:

* الحديث النبويّ المشتمل على مضمون: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي» جاء في روايات متعدّدة، جاء في الخصال في ضمن حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام، جاء فيه:

«جاء نفرٌ من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فسأله أعلمهم عن أشياء، فكان فيما سأله: أخبرنا عن سبع خصالٍ أعطاك الله من بين النبيّين، وأعطى أمّتك من بين الأمم. فقال النبيّ: أعطاني الله جبرئيل فاتحة الكتاب، والأذان، والجماعة في المسجد، ويوم الجمعة، والصلاة على الجنائز، والإجهار في ثلاث صلوات، والرخصة لأمتي عند الأمراض والسفر، والشفاعة لأصحاب الكبائر من أمّتي^(٩٩).

* وفي من لا يحضره الفقيه، قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي»^(١٠٠).

* وفي تفسير عليّ بن إبراهيم: حدّثني أبي، عن ابن محبوب، عن أبي أسامة، عن أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام قالوا: «والله لنشفعن في المذنبين من شيعتنا، حتى تقول أعداؤنا إذا رأوا ذلك: فما لنا من شافعين، ولا صديقٍ حميمٍ، فلو أنّ لنا كرّةً فنكون من المؤمنين»^(١٠١).

* وفي الفقيه: وسئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، هل تدخل الكبائر في مشيئة الله؟ قال: «نعم، ذلك إليه عز وجل، إن شاء عذب عليها، وإن شاء عفا» (١٠٢).

* وفي الخصال: ماجيلوبه، عن عمه، عن البرقي، عن علي بن الحسين الرقي، عن عبد الله بن جبلة، عن الحسن بن عبد الله، عن آبائه، عن جدّه الحسن بن علي عليه السلام في حديث طويل: «إن النبي صلى الله عليه وآله قال في جواب نفر من اليهود سألوه عن مسائل: «وأما شفاعتي ففي أصحاب الكبائر، ما خلا أهل الشرك، والظلم» (١٠٣). والمراد من الظلم هو: التعدي على حقوق المؤمنين.

* وروى الفتال النيسابوري مرسلًا عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي، ما خلا الشرك، والظلم» (١٠٤).

* وبعض الروايات تدلّ على عدم شمول الشفاعة لمن استخفّ بالصلاة، مثل معتبرة أبي بصير، عن أبي الحسن عليه السلام قال: «إِنَّهُ لَمَّا احْتَضَرَ أَبِي عليه السلام قَالَ لِي: يَا بَنِي، إِنَّهُ لَا يَنَالُ شَفَاعَتَنَا مِنْ اسْتِخْفٍ بِالصَّلَاةِ، وَلَا يَرُدُّ عَلَيْنَا الْحَوْضَ مِنْ أَدْمَنَ هَذِهِ الْأَشْرِبَةَ. فَقُلْتُ: يَا أَبَه، وَأَيَّ الْأَشْرِبَةِ؟ فَقَالَ: كُلُّ مَسْكِرٍ» (١٠٥).

* روى الشيخ الصدوق بسندٍ إلى الحسين بن خالد، عن الإمام الرضا عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من لم يؤمن بحوضي فلا أوردّه الله حوضي، ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي، ثمّ قال صلى الله عليه وآله: إِنَّمَا شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي، فَأَمَّا الْمُحْسِنُونَ فَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ».

* قال الحسين بن خالد: فقلتُ للرّضا عليه السلام يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، فما معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾؟ قال عليه السلام: لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه (١٠٦).

* وقال الصدوق: حدثنا محمد بن موسى بن المتوكل رحمته الله، قال: حدثنا محمد بن يحيى العطار، قال: حدثنا محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، قال: حدثنا النضر بن شعيب، عن خالد القلانسي، عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آباءه عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا قمتُ المقام المحمود تشفّعت في أصحاب الكبائر من أمّتي، فيشفّعي الله فيهم، والله لا تشفّعتُ في من آذى ذريّتي» (١٠٧).

* ورؤي عن محمد الباقر عليه السلام مرسلًا، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي» (١٠٨).

* وفي الخصال عن الأعمش، عن جعفر بن محمد عليه السلام، قال: «هذه شرائع الدين.. - إلى أن قال: - وأصحاب الحدود فسّاقٌ، لا مؤمنون، ولا كافرون، لا يخلّدون في النار، ويخرجون منها يوماً، والشفاعة جائزة لهم، وللمستضعفين، إذا ارتضى الله دينهم (١٠٩).

فيستفاد من هذه الروايات شمول الشفاعة - وعمومها - لمرتكبي الكبائر إجمالاً، سواء تابوا أم لم يتوبوا، لكنّ الذي يضعف هذا العموم ما عقب به الصدوق الحديث توضيحاً لمعنى ارتضى الله دينه، قال: المؤمن هو الذي تسرّه حسنته، وتسوؤه سيّئته؛ لقول النبي صلى الله عليه وآله: «من سرّته حسنته، وساءته سيّئته فهو مؤمنٌ»، ومن ساءته سيّئته ندم عليها، والندم توبةٌ، والتائب مستحقٌّ للشفاعة، والغفران، ومن لم تسوّه سيّئته فليس بمؤمنٍ، وإذا لم يكن مؤمناً لم يستحقّ الشفاعة؛ لأنّ الله عز وجل غير مرتضىٍ لدينه (١١٠).

فيدلّ على أنّه لا بدّ من الندم حتّى يمكن شموله للشفاعة، واستشهاد الصدوق بقوله أنّ الحديث رواه في التوحيد بسندٍ له اعتبارٌ، قال رحمته الله: حدثنا أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني رحمته الله، قال: حدثنا عليّ بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن محمد بن

أبي عمير، قال: سمعتُ موسى بن جعفر عليه السلام يقول: «لا يخلد الله في النار إلا أهل الكفر، والجحود، وأهل الضلال، و الشرك، ومن اجتنب الكبائر من المؤمنين لم يُسأل عن الصغائر، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾. قال: فقلتُ له: يا ابن رسول الله، فالشفاعة لمن تجب من المذنبين؟ قال: حدثني أبي، عن آباءه، عن علي عليه السلام قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي، فأما المحسنون منهم فما عليهم من سبيل». قال ابن أبي عمير: فقلتُ له: يا ابن رسول الله، فكيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله - تعالى ذكره - يقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ حَشِيئَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾، ومن يرتكب الكبائر لا يكون مرتضى؟! فقال: يا أبا أحمد، ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلا ساءه ذلك، وندم عليه، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «كفى بالندم توبة»، وقال عليه السلام: «من سرته حسنته، وسأته سيئة فهو مؤمن، فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن، ولم تجب له الشفاعة، وكان ظالماً، والله - تعالى ذكره - يقول: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾. فقلتُ له: يا ابن رسول الله، وكيف لا يكون مؤمناً من لم يندم على ذنب يرتكبه؟ فقال: يا أبا أحمد، ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي - وهو يعلم أنه سيُعاقب عليها - إلا ندم على ما ارتكب، ومتى ندم كان تائباً، مستحقاً للشفاعة، ومتى لم يندم عليها كان مصرّاً، والمصرُّ لا يغفر له؛ لأنّه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب، ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»، وأما قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ فإنّهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه، والدين الإقرار بالجزاء على الحسنات والسيئات، فمن ارتضى الله دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب؛ لمعرفة بعاقبته في القيامة»^(١١١).

وهذا الحديث حاكمٌ على عموم - وإطلاق - الشفاعة لأهل الكبائر بوضوح؛
لأنه ناظرٌ إليه، فيستفاد منه أن صاحب الكبيرة لا بدّ من أن يستاء ممّا فعل (الندم)
حتى يمكن شمول الشفاعة له، وأمّا إذا لم يستأ - بل يفعل الكبيرة ويبقى راضياً
بفعله - فهذا ليس بمؤمن، ولا يستحقّ الشفاعة.

ويؤكد ذلك حديثٌ آخر يرويه الشيخ الكلينيّ عن حفص المؤدّن، عن أبي
عبد الله عليه السلام في رسالته إلى أصحابه قال عليه السلام: «واعلموا أنه ليس يغني عنكم من الله
أحدٌ من خلقه، لا ملكٌ مقربٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ، ولا من دون ذلك، من سرّه أن ينفعه
شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه» (١١٢).

ويمكن أن يفرّق بين من يرتكب الكبيرة وهو يعلم أنه يرتكب كبيرة على ما
جاءت به الشريعة، وبين من يرتكبها من باب الشبهة، فالأول إذا بقي راضياً بفعله
لا تشمله الشفاعة، بخلاف الثاني، وعدم شمول الشفاعة لمن كان مصرّاً على الذنب
من غير تأسّف حتى موته لا يعني أنه يخلّد في النار، بل يلقي جزاءه بمقدار ما
يستحقّه من العذاب بجرمه، وممّا يؤيّد أنه لا بدّ من حصول الاستياء من الذنب حتى
تشمله الشفاعة ما دلّ على أن الشفاعة تتأخّر عمّن فجر بجارية الغير (أمة غيره)
على رغم توبته، حتى يذوق عذاباً يألمه، فعن صالح بن عقبة، عن أبي شبل قال:
قلت لأبي عبد الله عليه السلام: رجلٌ مسلمٌ ابتلي، ففجر بجارية أخيه، فما توبته؟ قال:
«يأتيه، فيخبره، ويسأله أن يجعل من ذلك في حلٍّ، ولا يعود. قال: قلتُ: فإن لم
يجعله من ذلك في حلٍّ؟ قال: قد لقي الله جبرئيل وهو زانٍ خائنٌ. قال: قلتُ: فالنار
مصيره؟ قال: شفاعة محمد صلّى الله عليه وآله - وشفاعتنا - تحبّط بذنوبكم يا معشر الشيعة، فلا
تعودون وتتكلون على شفاعتنا، فوالله ما ينال شفاعتنا إذا ركب هذا حتى يصيبه ألم
العذاب، ويرى هول جهنّم» (١١٣).

لكنّ حديث ابن أبي عمير المتقدم يعارض على ما يفهم من ظاهر ما رواه الصدوق في كتاب الفقيه قال: وقال الصادق عليه السلام: «شفاعتنا لأهل الكبائر من شيعتنا، وأمّا التائبون فإنّ الله عز وجل يقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾^(١١٤)، فإنّه يبيّن أنّ التائب هو: المحسن، الذي لا يشمل هذا النوع من الشفاعة. وربما يجمع بأنّ التائب الذي تحققت توبته - وقد عرفت عند الناس معصيته، وتأذى بذلك، وعمل صالحاً - فهو من المحسنين، وأمّا الذي أساءه عمله - ولو قبل أن يموت - وندم على فعله، وكان مستوراً على فعله، فإنّه المشار في رواية ابن أبي عمير.

ولربما أشار إلى ذلك ما يرويه الكلينيّ عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن حمّاد، عن بعض أصحابه، رفعه، قال: سعد أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثمّ قال: «أيّها الناس، إنّ الذنوب ثلاثة. ثمّ أمسك، فقال له حبة العرنيّ: يا أمير المؤمنين، قلت: الذنوب ثلاثة. ثمّ أمسكت؟! فقال: ما ذكرتها إلاّ وأنا أريد أن أفسرها، ولكن عرض لي بهرّ حال بيني وبين الكلام، نعم، الذنوب ثلاثة: فذنب مغفور، وذنب غير مغفور، وذنب نرجو لصاحبه، ونخاف عليه، قال: يا أمير المؤمنين، فبيّنها لنا. قال: نعم، أمّا الذنب المغفور فعبد عاقبه الله على ذنبه في الدنيا، فالله أحلم - وأكرم - من أن يعاقب عبده مرتين، وأمّا الذنب الذي لا يُغفر فمظالم العباد بعضهم لبعض، إنّ الله تبارك وتعالى إذا برز لخلقه أقسم قسماً على نفسه، فقال: وعزّي، وجلالي، لا يجوزني ظلم ظالم، ولو كفّ بكفّ، ولو مسحة بكفّ، ولو نطحة ما بين القرناء إلى الجماء، فيقتصّ للعباد بعضهم من بعض، حتّى لا تبقى لأحد على أحد مظلمة، ثمّ يبعثهم للحساب، وأمّا الذنب الثالث: فذنب ستره

الله على خلقه، ورزقه التوبة منه، فأصبح خائفاً من ذنبه، راجياً لربه، فنحن له كما هو لنفسه، نرجو له الرحمة، ونخاف عليه العذاب»^(١١٥).

ويُفهم من الحديث بأن الله يُجَاهِدُ إِذَا عَاقَبَ عَبْدَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ، فَإِنَّهُ يَعْفُو عَنْهُ فِي الْآخِرَةِ، مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى شَفَاعَةٍ.

وما تقدّم من الروايات يدلّ على شمول الشفاعة للمذنبين، وتوجد بعض الروايات تدلّ على شفاعة أخرى في زيادة المنافع للخلائق، منها ما عن عليّ بن إبراهيم، قال: حدّثني أبي، عن ابن أبي عمير، عن معاوية بن عمار، عن أبي العباس المكبر، قال: دخل مولى لامرأة عليّ بن الحسين «صلوات الله عليهما» على أبي جعفر عليه السلام - يُقال له: أبو أيمن -، فقال: يا أبا جعفر، تعرّون الناس، وتقولون: شفاعة محمد، شفاعة محمد! فغضب أبو جعفر عليه السلام حتّى تربّد وجهه، ثمّ قال: ويحك يا أبا أيمن، أغرّك أن عفّ بطنك وفرجك؟! أما لو قد رأيت أفزاع القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله، ويلك، فهل يشفع إلا لمن وجبت له النار؟! ثمّ قال: ما أحدٌ من الأوّلين والآخرين إلاّ وهو محتاجٌ إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله يوم القيامة. ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: إنّ لرسول الله صلى الله عليه وآله الشفاعة في أمته، ولنا شفاعة في شيعتنا، ولشيعتنا شفاعة في أهاليهم. ثمّ قال: وإنّ المؤمن ليشفع في مثل ربيعة، ومضر، وإنّ المؤمن ليشفع حتّى لخادمه، ويقول: يا ربّ، حقّ خدمتي، كان يقيني الحرّ والبرد»^(١١٦).

وفي المحاسن: أبي، عن القاسم بن محمد، عن عليّ بن أبي حمزة، قال: قال رجلٌ لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ لنا جاراً من الخوارج يقول: إنّ محمداً يوم القيامة همّه نفسه، فكيف يشفع؟! فقال أبو عبد الله عليه السلام: ما أحدٌ من الأوّلين والآخرين إلاّ وهو يحتاج إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله يوم القيامة»^(١١٧).

النتيجة النهائية:

- أولاً: إنَّ استظهار شمول الشفاعة للمذنبين من القرآن الكريم - مع غضّ النظر عن الأحاديث - صعبٌ.
- ثانياً: الأحاديث تدلُّ على شمول الشفاعة للمذنبين، لأهل القبائر وغيرهم، وعلى الإجمال نستفيد من مجموع الأحاديث المتقدمة عدّة أمور:
- الأول: إنَّ أهل القبائر مشمولين لشفاعة النبي ﷺ، وهو القدر المتيقن مع حصول الاستياء من العبد ممّا ارتكبه، ولو قبل موته.
- الثاني: إنَّ المحسنين لا تشملهم الشفاعة التي تكون للمذنبين.
- الثالث: إنَّ من أشرك لا تشمله الشفاعة.
- الرابع: الظالم لا تناله الشفاعة.
- الخامس: إنَّ المستخفّ بالصلاة لا تناله الشفاعة.
- السادس: نيل الشفاعة للمؤمن بالمعنى الخاصّ.
- السابع: إنَّ من آذى أهل البيت عليهم السلام - وذريّة النبي ﷺ - لا تناله الشفاعة.
- الثامن: إنَّ المستضعفين - وأصحاب الحدود - يمكن أن تشملهم الشفاعة إذا ارتضى الله دينهم.
- التاسع: إنَّ الشفاعة لا تختصّ بالنبي ﷺ، بل تشمل الأئمة عليهم السلام، والأولياء عليهم السلام، والشيعة الصالحين أيضاً.
- العاشر: إنَّ الشفاعة قد تتأخّر فتصل بعد النيل من العذاب، ويختلف ذلك باختلاف الجرم وحجمه.

الحادي عشر: إن جميع الخلق يحتاجون لشفاعة النبي محمد ﷺ في يوم القيامة، أي: أن الشفاعة تكون على قسمين؛ قسمٌ خاصٌ للمذنبين، وقسمٌ عامٌ، فتشمل الشفاعة رفع الدرجات.

هذا والله العالم، والله سبحانه رؤوفٌ بالعباد، حلِيمٌ، كريمٌ، فنسأل الله تعالى التوفيق لنيل شفاعة أوليائه، وأحبائه، وصفوته، وخاصته «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»، والحمد لله رب العالمين.

المواهب:

- (١) الأنبياء ﷺ: ٢٨.
- (٢) نقل الاستدلال الفخر الرازي، ج ٣، ص ٥٧، وما نقله الشيخ الطوسي عن قول أهل الوعيد، التبيان، ج ٧، ص ٢٤١.
- (٣) انظر ما قاله القاضي عبد الجبار في متشابه القرآن، ج ٢، ص ٤٩٩، والزحشري، ج ٣، ص ٤٢١، وتفسير الفخر الرازي، ج ٣، ص ٥٧، وج ٢٢، ص ١٦٠.
- (٤) سورة النجم، آية: ٢٦.
- (٥) نقل قول ابن عباس الطبرسي في تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٩٦.
- (٦) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٢، ص ١٦٠.
- (٧) لاحظ كلام الفخر الرازي، ج ٣، ص ٦٠، والنقل بتصرفٍ.
- (٨) وإن لم يكن العلامة في صدد الرد على المعتزلة، لكن يصلح كلامه لمناقشة المعتزلة.
- (٩) طه: ١٠٩.
- (١٠) مريم: الآيات: ٨٥ - ٨٧.
- (١١) يس: الآيتان ٦٠ - ٦١.
- (١٢) البقرة: ٨٠.
- (١٣) انظر تفسير الميزان، للقريظة الأولى والثانية ج ١، ص ١٧١، بتصرفٍ؛ للتوضيح.

- (١٤) تفسير الميزان، ج ١، ص ١٧٥.
- (١٥) المائة: ١١٩.
- (١٦) مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٦٢.
- (١٧) التوبة: ١٠٠.
- (١٨) التبيان، ج ٥، ص ٢٨٧.
- (١٩) مجمع البيان، ج ٥، ص ١١٢.
- (٢٠) المجادلة: ٢٢.
- (٢١) التبيان للشيخ الطوسي، ج ٩، ص ٥٥٧، ومجمع البيان للطبرسي، ج ٩، ص ٤٢٢.
- (٢٢) البيّنة: ٧-٨.
- (٢٣) التبيان، ج ١٠، ص ٣٩١، مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤١٥.
- (٢٤) الكافي، ج ٨، ص ١١، بحار الأنوار، ج ٨، ص ٥٣.
- (٢٥) الزخرف: ٨٦، تفسير الميزان، ج ١٤، ص ١١١.
- (٢٦) تفسير الميزان، ج ١٤، ص ١١١.
- (٢٧) أصول الكافي، ج ١، ص ٤٣١.
- (٢٨) الشيخ الكليني محمد بن يعقوب، والشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين، والشيخ الطوسي محمد بن الحسن.
- (٢٩) الكافي، ج ٧، ص ٢، من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ١٨٨، تهذيب الأحكام، ج ٩، ص ١٧٥.
- (٣٠) التبيان، ج ٧، ص ٢٤١.
- (٣١) انظر مناقشة الفخر الرازي للمعتزلة، التفسير الكبير، ج ٣، ص ٦٠.
- (٣٢) المصدر السابق مع التصرف.
- (٣٣) تفسير التبيان، ج ٧، ص ٢٤٢.
- (٣٤) سورة غافر، الآيات: ٧ إلى ٩.
- (٣٥) نقل هذه المناقشة عن المعتزلة الفخر الرازي، ج ٣، ص ٥٨.

- (٣٦) الكشّاف، ج ٤، ص ١٥٣ نشر البلاغة، وج ص ١٥٣ نشر البلاغة، وج ٤، ص ١٥٨ نشر أحياء التراث العربيّ.
- (٣٧) التفسير الكبير، ج ٣، ص ٦٢.
- (٣٨) تفسير الزمخشريّ، ج ٢٧، ص ٣٣ - ٣٤.
- (٣٩) النساء: ٦٤.
- (٤٠) التبيان، ج ٩، ص ٥٧، مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٢٨.
- (٤١) وإن لم يكن العلامة الطباطبائيّ في صدد نقاش المعتزلة.
- (٤٢) تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٣٠٩.
- (٤٣) هود: ١١٢.
- (٤٤) المؤمن (غافر): ٧.
- (٤٥) تفسير الميزان، ج ١١، ص ٤٩.
- (٤٦) الشورى: ٥.
- (٤٧) تفسير الأمثل، ج ١٥، ص ٤٦٩. ولاحظ ما أفاده العلامة الطباطبائيّ في الميزان، ج ١٨، ص ١١.
- (٤٨) البقرة: ٢٢٢.
- (٤٩) الفرقان: ٦٨ - ٧٠، والحديث في أصول الكافي ج ٢، ص ٤٣٢ - ٤٣٣ باب التوبة، ح رقم: ٥.
- (٥٠) الكافي، ج ٨، ص ٣٤، وفي نفس الجزء ص ٣٠٤، علل الشرائع، ص ٥، عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٣٧، فضائل الشيعة للشيخ الصدوق، ص ٢٢، كمال الدين وتمام النعمة، ص ٢٥٤، شرح الأخبار للقاضي نعمان المغربيّ ج ٣، ص ٤٦٥.
- (٥١) المدثر: ٤٨.
- (٥٢) نقل احتجاج المعتزلة بهذه الآية ابن حزم الظاهريّ في الفصل في الملل، ج ٤، ص ٥٣، والفخر الرازيّ في التفسير الكبير، ج ٣، ص ٥٧، القرطبيّ في تفسيره ج ١، ص ٣٧٨، والنسفيّ في تفسيره ج ١، ص ٤٢، وابن حجر العسقلانيّ في فتح الباري، ج ١١، ص ٤٢٦، وبدر الدين العينيّ في عمدة

- القاري، ج ٢، ص ١٢٧، والمباركفوري في تحفة الأحوذبيّ، ج ٧، ص ١٠٨؛ وشمس الحقّ العظيم آبادي في عون المعبود، ج ١٣، ص ٥٢، والقاري في مرعاة المفاتيح، ج ١٠، ص ٢٧٠، وغيرهم.
- (٥٣) تفسير الكشّاف، ج ٤، ص ١٨٧، نشر مصطفى البايّ ط ١٩٦٦م.
- (٥٤) تفسير الفخر الرازيّ، ج ٣، ص ٦١.
- (٥٥) انظر تفسير الميزان، ج ١، ص ١٦٧، العلامة الطباطبائيّ، والفخر الرازيّ لم يوردا كلامهما ردّاً على المعتزلة، ولكن لربما قائلٌ يقول ذلك.
- (٥٦) سورة المدثر آيات ٣٩-٤٧.
- (٥٧) النساء: ٣١.
- (٥٨) هذا ما أفاده العلامة الطباطبائيّ قَبْلَهُ في تفسير الميزان، ج ١، ص ١٦٩-١٧٠.
- (٥٩) تفسير الميزان، ج ١، ص ١٧٠.
- (٦٠) البقرة: ٢٧٠.
- (٦١) آل عمران: ١٩٢.
- (٦٢) عرض الفخر الرازيّ استدلال المعتزلة بهذه الآية الكريمة، التفسير الكبير، ج ٣، ص ٥٧، وج ٧، ص ٧٥، وصرّح الزمخشريّ بالاستدلال بها في الكشّاف ج ٣، ص ٤٢١.
- (٦٣) تفسير الكشّاف، ج ١، ص ٤٨٩، نشر مصطفى البايّ.
- (٦٤) تفسير التبيان، ج ٢، ص ٣٥٠.
- (٦٥) التبيان، ج ٣، ص ٨٣.
- (٦٦) مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٧٤.
- (٦٧) البقرة: ٤٨.
- (٦٨) التفسير الكبير، ج ٧، ص ٧٥.
- (٦٩) تفسير الفخر الرازيّ، ج ٣، ص ٦٥.
- (٧٠) التفسير الكبير، ج ٧، ص ٧٥.
- (٧١) التفسير الكبير، ج ٧، ص ٧٥.

- (٧٢) تفسير الميزان، ج ٢، ص ٣٩٦.
- (٧٣) الانفطار: ١٤-١٦.
- (٧٤) هذا ما نقله الفخر الرازي من تقريب المعتزلة لدلالة الآية على ما يرون، نقلته بتصريف يسير، وانظر تفسيره ج ٣، ص ١٤٧، وج ٣١، ص ٨٤.
- (٧٥) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٥٨.
- (٧٦) التفسير الكبير، ج ٣١، ص ٨٤.
- (٧٧) التبيان، ج ١٠، ص ٢٩٣.
- (٧٨) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٢٨٨.
- (٧٩) عبس: ٤٢.
- (٨٠) التفسير الكبير، ج ٣١، ص ٨٥.
- (٨١) الزمر: ١٩.
- (٨٢) متشابه القرآن، ج ٢، ص ٥٩٢.
- (٨٣) الكشف ج ٤- ص ١٢٣ نشر إحياء التراث العربي، وج ٣، ص ٣٩٣، نشر مصطفى البايي.
- (٨٤) النساء: ٤٨.
- (٨٥) الزمر: ٥٣.
- (٨٦) التفسير الكبير، ج ٢٦، ص ٢٢٨، نشر دار الكتب العلميّة.
- (٨٧) الزمر: ٤٤.
- (٨٨) ينقل مناقشتهم بها الفخر الرازي في تفسيره ج ٣، ص ٥٥، نشر دار الكتب العلميّة.
- (٨٩) صحيح مسلم، ج ١ باب إطالة الغرّة والتحجيل في الوضوء، ص ٢١٨ ح رقم: ٢٤٩، صحيح ابن خزيمة، ج ١، ص ٦، ح ٦، سنن ابن ماجّة، ج ٢، ص ١٤٣٩، ح ٤٣٠٦... الخ.
- (٩٠) مسند أحمد بن حنبل، ج ٣ مسند جابر، ص ٣٢١ رقم ١٤٤٨١، المستدرک على الصحيحين، كتاب الأطعمة، ج ٤، ص ١٤١ رقم ٧١٦٣، وفيه في كتاب الفتن والملاحم ج ٤، ص ٤٦٨، رقم ٨٣٠٢؛ صحيح ابن حبان، ج ٥، ص ٩، رقم ١٧٢٣؛ سنن الترمذي، ج ٢ باب ما ذكر في فضل

الصلاة، ص ٥١٣ رقم ٦١٤؛ موارد الظمان، باب: فيمن يدخل على الأمراء السفهاء ج ١، ص ٣٧٨، رقم ١٥٦٩؛ مصنف عبد الرزاق، باب الأمراء ج ١١، ص ٣٤٦ رقم ٢٠٧١٩، المعجم الأوسط، باب: من اسمه عبد الله ج ٤، ص ٣٧٨، رقم ٤٤٨٠، المعجم الكبير، ج ١٩، ص ١٠٥، رقم ٢١٢.

(٩١) صحيح البخاري، باب: الغلول ج ٣، ص ١١١٨، رقم ٢٩٠٨، صحيح مسلم، وهو حديث فيه موارد أكثر مما في حديث البخاري، باب: غلظ تحريم الغلول، ج ٣، ص ١٤٦١، رقم ١٨٣١، صحيح ابن حبان، ج ١١، ص ١٨٢، رقم ٤٨٤٧، وص ١٨٤ رقم ٤٨٤٨، مسند أحمد بن حنبل، باب: مسند أبي هريرة، ج ٢، ص ٤٢٦، رقم ٩٤٩٩، تفسير الطبري، ج ٤، ص ١٥٨.

(٩٢) صحيح البخاري، باب: إثم من باع حرًا، ج ٢، ص ٧٧٦، رقم ٢١١٤، وفي باب الإجارة إلى صلاة العصر، ج ٢، ص ٧٩٢، رقم ٢١٥٠، صحيح ابن حبان، باب: ذكر أوصاف قوم يكون خصمهم يوم القيامة، ج ١٦، ص ٣٣٣، رقم: ٧٣٣٩، سنن ابن ماجة، باب: الرهن مركوبٌ ومحلوبٌ، ج ٢، ص ٨١٦، رقم ٢٤٤٢، مسند أحمد بن حنبل، ج ٢، ص ٣٥٨ رقم: ٨٦٧٧، سنن البيهقي الكبرى، ج ٦، ص ١٤ رقم ١٠٨٣٦، وسننه الصغرى ج ٥، ص ٤١٣، رقم ٢١٣٢.

(٩٣) التفسير الكبير، ج ٣، ص ٦٦، وج ٣، ص ٦٢ وفق نشر دار الكتب العلميّة.

(٩٤) التفسير الكبير، ج ٣، ص ٦٠.

(٩٥) «لا يدخل الجنة نائمٌ». رواه مسلم، باب: بيان غلظ تحريم النميمة، ج ١، ص ١٠١ رقم: ١٠٥، ومسند أحمد بن حنبل، ج ٥، ص ٣٩١ رقم ٢٣٣٧٣، ص ٣٩٦ رقم ٢٣٤٠٧، وص ٣٩٩ رقم ٢٣٤٣٥، وص ٤٠٩ رقم ٢٣٤٩٧، وأمّا حديث: «لا يدخل الجنة مدمن خمرٍ» رواه ابن ماجة في سننه ج ٢، ص ١١٢٠، رقم ٣٣٧٦، وجاء في ضمن حديث يرويه صحيح ابن حبان في ضمن حديث: «لا يدخل الجنة مدمن خمرٍ، ولا مؤمنٌ بسحرٍ، ولا قاطعٍ...» ج ١٣، ص ٥٠٧ رقم ٦١٣٧، والنسائي في ضمن حديث: «لا يدخل الجنة مدمن خمرٍ، ولا منانٌ، ولا عاقٌ والديه، ولا ولد زنية» ج ٣، ص ١٧٥ رقم ٤٩١٦، ومثله ص ١٧٦ رقم ٤٩٢٢، ومثله أيضاً ما عدا ذكر ابن زنية في ص ١٧٦، رقم ٤٩٢١، ومثله المعجم الكبير، ج ١١، ص ٩٨-٩٩ رقم ١١١٦٨ و١١١٧٠، وفي مسند أحمد بن حنبل قال: «ثلاثةٌ لا يدخلون الجنة: مدمن خمرٍ، وقاطع رحمٍ، ومصدقٌ بالسحر، ومن

مات مدمناً للخمر سقاه الله ﷻ من نهر الغوطة. قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: نهرٌ يجري من فروج المومسات، يؤذي أهل النار ريح فروجهم». ج ٤، ص ٣٩٩، رقم ١٩٥٨٧.

(٩٦) جاء في صحيح البخاريّ ضمن حديث: «من تردّى من جبلٍ فقتل نفسه فهو في نار جهنّم يتردّى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبداً، ومن تحسّى سمّاً فقتل نفسه فسمّه في يده يتحسّاه في نار جهنّم خالدًا مخلدًا فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنّم خالدًا مخلدًا فيها أبداً»، ج ٥، باب: شرب السمّ، والدواء، وبما يخاف منه، ص ٢١٧٩ رقم ٥٤٤٢، وفي صحيح مسلم - مضافاً إلى ما في صحيح البخاريّ - جاء فيه أيضاً: «ومن شرب سمّاً فقتل نفسه فهو يتحسّاه في نار جهنّم خالدًا مخلدًا فيها أبداً»، ج ١، باب: غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، ص ١٠٣، رقم ١٠٩، ومثله في صحيح ابن حبان ج ١٣، ص ٣٢٥، رقم ٥٩٨٦؛ سنن النسائيّ ج ١، ص ٦٣٨، رقم ٢٠٩٢، وج ٨ منه ص ٢٣، رقم ١٥٦٥٥، وسنن الترمذيّ، ج ٤، ص ٣٨٦ رقم ٢٠٤٣ - ٢٠٤٤ الثاني يرويه الأعمش، عن أبي هريرة، وقال الترمذيّ في شأن سنده: هذا حديثٌ صحيحٌ، وهو أصحّ من الأوّل.

(٩٧) شرح الأصول الخمسة، ص ٤٦٥.

(٩٨) تفسير الميزان، ج ١، ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٩٩) الخصال، ص ٣٥٥.

(١٠٠) من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٥٧٤.

(١٠١) تفسير عليّ بن إبراهيم، ج ٢، ص ١٢٣، بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٧.

(١٠٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٥٧٤.

(١٠٣) الخصال، ص ٣٥٥، أمالي الشيخ الصدوق، ص ٢٦١، البحار ج ٨، ص ٣٨ - ٣٩، ج ١٠، ص ٣٠١.

(١٠٤) روضة الواعظين، ص ٥٠١.

(١٠٥) الكافي، ج ٦، ص ٤٠١.

- (١٠٦) عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٢٤ - ١٢٥؛ أمالي الشيخ الصدوق، ص ٥٦، حديث رقم: ٤/١١.
- (١٠٧) أمالي الصدوق، ص ٣٧٠.
- (١٠٨) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٣٤.
- (١٠٩) الخصال، ص ٦٠٨ - ٦٠٩، بحار الأنوار ج ٨، ص ٤٠، وج ١٠، ص ٢٢٨.
- (١١٠) عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٢٤ - ١٢٥؛ أمالي الشيخ الصدوق، ص ٥٦، حديث رقم: ٤/١١.
- (١١١) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق، ص ٤٠٧ - ٤٠٨، وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٣٥.
- (١١٢) الكافي، ج ٨، ص ١١ و ص ٤٠٥، وبحار الأنوار، ج ٨، ص ٥٣.
- (١١٣) الكافي، ج ٥، ص ٤٧٠.
- (١١٤) من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٥٧٤، وسائل الشيعة، ج ١٥، باب: صحّة التوبة من الكبائر، ص ٣٣٤، ح ٤.
- (١١٥) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٤٣ باب: الذنوب ثلاثة.
- (١١٦) تفسير التمهي، ج ٢، ص ٢٠٢، بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٧.
- (١١٧) المحاسن، ص ١٨٤، بحار الأنوار، ج ٨، ص ٤٢.

دروسٌ في الأخلاق السياسية

(الحلقة الثانية)

عادل عليّ الشعلة

كفتح هذه الحلقة بالإشارة إلى مبحث المذاهب الأخلاقية؛ لتبيين بعض الفروقات العامة بين المذاهب البشرية ومذهب خالق البشرية بِمَا نَزَّلْنَا، وهو المذهب الذي يجب علينا استقاء أخلاقيّاتنا السياسيّة منه؛ لتحقيق سعادتنا الدنيويّة والأخرويّة في مجال الاجتماع والسياسة.

المذاهب الأخلاقية:

وإنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ العالم المعاصر يعيش أزماتٍ أخلاقيةً حادةً في كلّ الأبعاد، في علاقة الإنسان بربه، أو بذاته، أو بالآخرين، وقد تعدّدت المذاهب، وتشعبت الحلول؛ لمعالجة هذه الأزمات المعقّدة، ويوجد في علم الأخلاق مذاهب ومدارس كثيرة، انحرف أكثرها، وآل بها الأمر إلى مخالفة الأخلاق، وسوف أستعرضها بشكلٍ مختصر؛ لنعرف بعدها الفارق بينها وبين المذهب الأخلاقيّ الذي بُعث به نبينا الكريم، محمد بن عبد الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والذي قد جعله محور بعثته بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١).

طبعاً سوف يكون الحديث حول المذاهب الأخلاقية بشكلٍ عامٍّ، لكن يمكن النظر إليها من الزاوية الاجتماعية والسياسية أيضاً، وحرى أن ألفت النظر إلى أن المراد من مصطلح (المذهب) هو الطريقة المتبعة، ولذا فنحن سوف نُشير إلى الطرائق الأخلاقية

المتَّبعة عند المجتمعات البشريَّة، ولن أبين نقاط الخلل في هذه المذاهب، فعرضها كافٍ لبيان خللها، كما أن البحث فيما لا ثمرة عمليَّة فيه سيطول جداً، ممَّا قد يوجب الملل والسأم، ولذا سوف أجتنبه:

المذهب الأوَّل: المذهب المادِّي:

وهو المذهب الذي يرى الأشياء كلَّها بمنظار المادَّة دون أن يكون للإيمان بالله والمسائل الروحية دخلاً في رؤيته، وهذا المذهب المادِّي ليس واحداً، بل فيه مدارس مُتعدِّدة، وتعدَّدت بسبب اختلاف النظرة إلى المادَّة، ويُمكن تقسيم هذا المذهب المادِّي إلى المدارس التالية:

المدرسة الأولى: مدرسة المذهب المادِّي التاريخي: - مذهب الشيعيين -، وهي المدرسة التي تذهب إلى القول بأصالة الاقتصاد، أي تعتبر الاقتصاد أساساً يُحدِّد كلَّ شيء في الوجود، والأخلاق في هذه المدرسة - وفقاً للأصل الذي تتبناه - هي: كلُّما يؤدِّي إلى تقوية الاقتصاد الشيعيِّ، أو قل: كلُّما يُعجِّل بالثورة الشيوعيَّة، فتكون الثورة هي المعيار الأخلاقيِّ، فالكذب يكون أمراً أخلاقياً حين يُسرِّع بالثورة، بينما يكون الصدق أمراً غير أخلاقيِّ إذا أضرَّ بالثورة.

المدرسة الثانية: مدرسة المذهب المادِّي العملي (البرجماتي): ويُسمَّى أيضاً بـ(مذهب الذرائع): وهي المدرسة التي تذهب إلى القول بأصالة العمل (براجماتيسم)^(٢).

ولا تعتبر أيِّ قضيةٍ حقيقيَّةٍ إلاَّ إذا كانت ذا فائدةٍ عمليَّةٍ، فالمصدر الوحيد للحكم، والمقياس الذي يفصل بين الحقِّ والباطل، والذي يفصل بين حقانيَّة القضايا وأصدقيتها إذا ما تضاربت الآراء، واختلفت الأنظار في هذه المدرسة، فهو أنفع هذه

الأشياء - أو القضايا -، وما كانت له نتائج عملية في حياتنا العملية، فتجعل هدف الحياة مُنحصرًا فيما كانت في الشيء منفعةً عمليةً ماديةً، وتستخفّ في الوقت نفسه بالقيم المعنوية، والأخلاق في هذه المدرسة - وفقاً لهذا الأصل الذي تذهب إليه - فهي: الصفات والأفعال التي تمهد طريق الوصول إلى المنفعة العملية.

طبعاً، هذا المذهب وإن كان مرفوضاً عند أبناء المدرسة التوحيدية، إلا أن الكثير منهم يمارسه عملياً، فالكثيرون يتبنون المعتقدات والمواقف التي تُعينهم على تحقيق مصالحهم ومنافعهم الخاصة، فيكون واقعهم هو الذي يوجّه أفكارهم، وليس العكس، أي: ليست أفكارهم هي التي توجّه واقعهم، أو أخلاقياتهم، أو ممارساتهم، وربما قوله في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّأكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾^(٣) - ربما هذه الآية - تُشير إلى المسألة التي نذكرها، فهي تُلفت النظر إلى أن سلوكيات الإنسان تتحرك وفق الظروف التي يعيشها، فحين تنزل به بليّةٌ - أو مُصيبةٌ - ولا يجد أحداً ينجيه، يتوجّه لربه، وخالفه، ويطمئن بما في جيبه وحسابه البنكي أكثر ممّا في السماء، فحاجته وظروفه هي التي تُذكره بربه، أمّا إذا لم تكن هناك ظروفٌ ضاغطةٌ، ولم تكن هناك حاجةٌ ماسّةٌ، فسوف ينسى الخالق المنعم المُفضل؛ هذا كَلِّه لآئِه انساق مع الظروف التي تكون فيها الهيمنة لأهوائه، وشهواته، وغفلته، طبعاً هذه الهيمنة للأهواء باختياره، أو بضغوطات خارجية.

المدرسة الثالثة: مدرسة المذهب الماديّ الفرديّ: (مذهب الرأسماليين)، وهي المدرسة التي تذهب إلى القول بأصالة الفرد، وقد يُطلق عليها مدرسة مذهب الديمقراطية المطلقة التي تُشجّع الفردية إلى أبعد الحدود، وتجعل الفرد مصدر الحكم على تصرفاته، فللفرد اقتناء أيّ شيء كان، وأن يعيش في ظلّ عرف المجتمع

وعاداته، وله أن يخرج عن هذا العرف وعاداته، شرعياً كان هذا العرف أو اجتماعياً، بلا فرق بين ما إذا كانت تؤدّي أفعاله - وقناعاته - إلى افتقار غيره أو لا، أو جرح مشاعر غيره أو لا، وقس على ذلك، فإذا جئنا إلى تملك مصادر الإنتاج ووسائله مثلاً، فإننا نجد أن الرأسمالية تتيح إلى الفرد - باعتباره صاحب رأس المال - أن يأخذ الفوائد المالية عند منح القروض للآخرين، ولذلك تجد هناك أزمات أخلاقية حادة، فبسبب ذلك يتحكّم فردٌ - أو جماعةٌ محدودةٌ - في طبقات المجتمع الواسعة، وتستغلّ مواردهم وطاقاتهم لمصالحها، لدرجة أن هذه الرأسمالية قد استخدمت الدولة دعماً لحماية فردٍ - أو أكثر - من أصحاب الملايين، وتركت الآلاف يعيشون الكدح والفقر، ولذا تجد قوانين هذا البلد - فضلاً عن غيره - تُصاغ لمصلحة فردٍ، أو أكثر، والشعوب في العالم تتطلّع للديمقراطية لا لإيمانها بها، ولا لكونها الوسيلة المحققة للسعادة، ولو كانت كذلك لحققت السعادة لشعوبها، ولما كانت هناك فئةٌ محدودةٌ هي التي تنتفع على حساب الملايين من الناس، وإنما لكون الشعوب في بلدانها الإسلامية تعيش الظلم، والقهر، والجور، فهي تبحث عن مخرجٍ يخفف من هذا الظلم والجور. أليست هذه الديمقراطية - التي يُراد تبشيرها في العالم - هي التي تخدم فئةً محدودةً؛ لتسلب - ظلماً، وعدواناً - حقوق الملايين في العالم، وتُسخر قوانين الأنظمة، والدول، وقوانين الأمم المتحدة - وغيرها - من أجل مصالحها؟! ألم تتبنّ دولنا العربية ديمقراطياتٍ تُبيح لها سرقة الشعوب، وقتلها بغيوطٍ حريرية؟! فالخلاصة: أنه طالما كانت الحرية الشخصية - والمصالح الفردية - هي مدار حقانية الأشياء وصدقها، فسوف تسود الأنانية، والاحتكار، وحبّ الذات، وغيرها من الأخلاقيات المريضة التي جرّتها ثقافة الرأسمالية، والأخلاق - بناءً على النظرة التي تتبناها هذه المدرسة - هي: التي توصل وتنسجم مع منافع الفرد الشخصية.

المذهب الثاني: المذهب الاجتماعيّ:

مذهب الاشتراكيّين، وهو المذهب الذي يذهب إلى القول بأصالة المجتمع (الجماعة)، وليس للفرد - كما يذهب إليه المذهب الرأسمالي -، والأخلاق في هذا المذهب، هي: تلك الأفعال التي يعود نفعها على الغير. وأمّا إن عاد نفعها على الذات فهي أفعالٌ غير أخلاقيّة، وعلى هذا الأساس تُكبتُ حرّيّة الفرد، وتُصادر أملاكه، ويُجبر على تصرّفه لصالح الجماعة، فهم يفنون الفرد من أجل مصلحة الجماعة.

المذهب الثالث: المذهب الفلسفيّ:

وفيه مدرستان - إن صحّ التعبير - :

المدرسة الأولى: مدرسة مذهب الفلاسفة العقليّين: وهي المدرسة التي تذهب إلى القول بأصالة العقل، والأخلاق - بناءً على هذا الأصل - هي عبارة عن: الصّفات - والأعمال - التي تساعد الإنسان على تحكيم عقله، وتُمكنه من السيطرة على شهواته، ونزعاته، وأهوائه النفسانيّة في حركة الحياة. وهذا بحاجة لدراسة تأثير السلوكيّات في واقع الفرد والمجتمع؛ لتتميّز السلوكيّات المحسنة من غيرها، وهو يحصل بالبحث والاستدلال.

المدرسة الثانية: مدرسة مذهب الفلاسفة الوجدانيّين: وهي المدرسة التي تذهب إلى القول بأصالة الوجدان لا العقل، والأخلاق - بناءً على هذا الأصل - هي عبارة عن: تلك الأمور التي يدركها الوجدان بلا حاجة إلى برهان. ككون العدل، والإيثار، والشجاعة أموراً حسنة، وككون الظلم، والأنانيّة، والجبن أموراً قبيحة، وهذه الأمور ممّا يُشخّصها الوجدان، ويُعطي حكماً بشأنها، بلا حاجة إلى إقامة الأدلّة والبراهين. طبعاً، هذه المدرسة لا تنكر بأنّ الوجدان عاجزٌ عن إدراك بعض الأمور، ولذا فإنّها تستعين بالشريعة للتمييز بين الأمور الأخلاقيّة عن غيرها.

ومن خلال استعراض هذه المذاهب والمدارس تبين لنا الاختلاف - والتضارب - فيما بينها، الأمر الذي يوصلنا لحقيقة محدوديّة العقل البشريّ في إدراك الحقائق الواقعيّة، وضرورة الاستناد لعقلٍ كاملٍ يكفي البشريّة من التجارب المدمّرة والقاتلة، وليس هناك من عقلٍ كاملٍ إلاّ الشارع المقدّس؛ فهو سيّد العقلاء؛ لأنّه الوحي المُنزل من خالق العقل **بِعَمَلِهِ**، والعقل البشريّ مهما توصل إليه، فسوف يسلك الطريق الملائم - والنافع - بمنظار اللذائذ، والمنافع الآنيّة المؤقتة، التي سوف يُنهيهاموت، وإذا تبين ما بعد الموت وجود منافع أبدية، فما قيمة الفانية حينها؟! ولذا فليس أمامنا إلاّ خيار المذهب التوحيديّ، هذا المذهب الذي صاغته يد الصانع الحكيم، يد الذي لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضرّه معصية من عصاه، يد الذي خلق الإنسان لسعادته في الدنيا والآخرة، ودولة بقيّة الله الأعظم (روحي لتراب مقدمه الفداء) ستكون النموذج الإلهيّ المحقّق للسعادتين؛ الدنيويّة، والأخرويّة، حين تعجز كلّ الأطروحات الأرضيّة في معالجة الأزمات الأخلاقيّة المتنوّعة الأبعاد.

المذهب الرابع: المذهب التوحيديّ:

وهو المذهب الذي يذهب إلى القول بأنّ العالم عبارة عن وحدة متماسكة، قطب دائرتها واجب الوجود سبحانه، فهو الذي خلق الإنسان؛ ليقترّب منه، وسيميته؛ ليعود إليه، فيجازيه، والأخلاق - بناءً على هذا الأصل - هي: الصفات - والأفعال - التي تساعد الإنسان في سيره إلى الله. فإذا تحلّى بها استطاع القرب من الله أكثر فأكثر، وسيكون لقربه الأثر الكبير في إنقاذه - وإنقاذ المجتمع البشري من

حوله -، فبالقرب تزول عناصر الشرِّ - وقوى الانحراف - في الفرد، والمجتمع،
وعندها تسود العدالة، ويعمّ الأمن، وينتشر الرخاء.
وهذا المذهب هو الذي بُعث به الأنبياء، وآخرهم نبينا محمد بن عبد الله ﷺ،
وهو المذهب الوحيد الموجب لسعادة الإنسان، المذهب الوحيد لأنه يتعذّر - أو
يتعسّر - على الإنسان التمييز بين محاسن صفاته عن مساوئها من دون الرجوع إلى
ما أوحاه الله، مودع الطبائع والسجايا إلى أنبيائه ﷺ، فبالشرع وحده يعرف طريق
كمال النفوس، وما هو جمالها، وجلالها، وما يكون موصلاً إليه بجملة من سبحانه
العالم، الحكيم، وما عداه فهو قاصر، ناقص، وكيف يوصل إلى الكمال من كان
مُحتاجاً إليه؟!

ما هي خصائص الأخلاق في الإسلام؟

الحديث حول الأخلاق السياسيّة في الإسلام ليس موجّهاً للسياسيين فقط، بل
هو حديثٌ شاملٌ؛ لأنّ التخصيص بالسياسة بُعدٌ تطبيقيٌّ فقط على حالةٍ خاصّةٍ؛
لتكون أقرب للفهم لشريحةٍ واسعةٍ جدّاً، سيّما في هذا العصر الذي أصبح كلُّ شيءٍ
مرتبطاً بالسياسة.

وكيف كان، تكميلاً للبحث أقول: بأنّ لكلّ مذهبٍ من المذاهب خصائصه التي
تُميّزه عن غيره، تحدّد هويّته، وتبيّن مرتكزاته، وتُبلور أهدافه، وترسم طريقته،
وتطبع كافّة ممارساته، والبنية الفكرية - القاعدة المفاهيمية - هي الأساس الذي
تتقومّ بها الخصائص المنهجية بشكلٍ عامٍّ، وبما أنّ القاعدة الفكرية للمذهب الإسلاميّ
قاعدة إليها، ويستمدّ خصائصه منها دون سواها، فسوف تتمييز أخلاقيّاته السياسيّة

عن غيرها من أخلاقيات المذاهب الأخرى، وهنا أشير لبعض الخصائص التي تتميز بها الأخلاق السياسيّة باعتبارها مفردةً من مفردات الإسلام:

أولاً: شموليّتها للبعدين الجسمانيّ والروحانيّ، فإنّ الإسلام لا يقتصر في نظره إلى الأخلاق على البعد المادّيّ وحده، أو على البعد الروحانيّ وحده، كما أنّه لا يركّز في المجال الاجتماعيّ إمّا على الفرد، أو على المجتمع فحسب؛ لأنّ هذه الرؤية ناقصة، جزئيّة، بل ينظر إلى الأخلاق نظرةً كليّةً، كما ينظرها إلى الإنسان باعتبار جوانبه المادّيّة، والروحيّة، والفرديّة، والاجتماعيّة، وهي جوانب متداخلة، وفي تفاعلٍ مستمرٍّ، ولهذا لا يُمكن فصلها عن بعضها البعض، ومن الواضحات بأنّ نظرة كهذه من شأنها المساهمة في صياغة مذهبٍ أخلاقيّ مُنسجم، ومنتج، ومتقدّم، وخالد.

ثانياً: صناعتها السماويّة، فإنّ التعاليم - والقيم السياسيّة الأخلاقيّة في الرؤية الإسلاميّة - ليست من صنع الفكر البشريّ، وإنّما هي من صنع الغيب؛ باعتبار كونها من الإسلام، والإسلام وحيّ سماويّ، ودين ربّانيّ.

ثالثاً: ربّانيّتها (أصالة الثقافة والانتماء)، إذ بما أنّ قيم - وتعاليم الأخلاق السياسيّة - مُستقاة من تعاليم الله بِهِدَايَتِهِ كما قلنا، فإنّ من سيجعلها علاجاً لأمراضه السياسيّة، ومن سيحكّمها في جميع أخلاقيّاته وعلاقاته، فإنّ قلبه سوف يعمر بتوحيد الله سبحانه في بعدٍ من أبعاد تشريعاته، وبذلك تتّصف نظراته - وأخلاقيّاته - بالربّانيّة، وقد قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾^(٤)، فتلقّي الأخلاق السياسيّة من الإسلام يُخرج الإنسان من خانات الجاهليّة، والأعراف المنحرفة، وإغراءات الأهواء، وممارسات الباطل، ويدخله في دائرة الإسلام، ويصوغ أعرافه، ويوجّه أهواءه، ويقتن ممارساته وفق الحقّ والصدق.

رابعاً: انسجامها مع العقل، وهذه الميزة تتأسس على أساس أنه لا تناقض بين العقل والدين في المنظور الإسلامي، فإن الدين الحنيف لم ينف دور العقل في عملية تقييم سلوكيات وأفعال الإنسان، بل أعطاه دوره في ذلك، ولكن، بما أن إدراك العقل نسبي، وليست له القدرة الذاتية على التقييم وحده، فقد أعطاه دوره في أفق علاقته بالغيب، ومن حيث هو بعدٌ غيبيٌّ في الإنسان الخليفة، وعلى هذا الأساس فالنظرية الأخلاقية الإسلامية ليست مجرد انعكاسٍ لواقع الأمة الإسلامية، وإنما هي - بالإضافة إلى ذلك - تنطلق من الدين الحنيف لتعالج الواقع، وبذلك لا تكون المعالجة وفق رؤية عقلية محدودة قد يتبين قصرها غداً، وإنما ستكون وفق رؤية عقلية كاملة باعتبار أن الدين - بما يتضمّنه من قيمٍ روحيةٍ وأخلاقيةٍ ذات مصدرٍ غيبيٍّ - سيدّ العقلاء، وهذه محطة افتراقٍ بين نظرة الإسلام والغرب للعقل، فالغرب - خاصةً المذهب الماديّ - جعل العقل مقابل الغيب، وبهذا ينفون الغيب إطلاقاً، وهذا ما لا يتبناه الإسلام.

القواعد العامة لصناعة الأخلاق السياسيّة:

وفي الحديث العمليّ يُمكن القول - بدايةً - : إنّ النفس الإنسانيّة أرقى الموجودات، وأشرف المخلوقات، وهي باقيةٌ أبديةٌ، بخلاف الجسد، فإنّه فان زائلٌ، وهذه النفس لذائذ وآلام، ومهلكاتٌ ومنجياتٌ، أمّا آلامها - ومهلكاتها - فهي رذائل الأخلاق، وبها تهبط إلى أخسّ الدرجات إذا لم تُوجّه التوجيه السليم، وأمّا لذائذها - ومنجياتها - فهي تمسكها بالفضائل، وبها ترتفع إلى ملكوت الله، وتوصل إلى مقام القرب، وعلمي الأخلاق والسير والسلوك هما العلمان المتكفلان ببيان طريق رياضة النفس، وطرق معالجة رذائل الأخلاق، وطرق التحلّي بفضائلها، وقبل الدخول في تفاصيل المسائل الأخلاقية، أرغب في استعراض القواعد العامة المفيدة في معالجة المعاصي السياسية:

القاعدة الأولى: اليقظة الباطنية تجاه أوضاعنا الأخلاقية السياسية:

موقعية اليقظة السياسية: إنَّ أوَّل خطوةٍ في طريق طيِّ منازل الكمال وتغيير الأخلاق السياسية هي اليقظة، والإفاقة من سبات الغفلة السياسية، ومن غير الممكن طيِّ هذا الطريق بالغفلة القلبية عن الهدف الذي خُلِقنا لأجله.

تعريف اليقظة السياسية:

(١) اليقظة هتافٌ في الضمير، يُحرِّك الإحساس بالتقصير، والعقوق، والحرمان، والبعد من الخالق المنعم بسبب المعاصي، والجرائم السياسية التي قام بها، أو يقوم بها، اليقظة شعلةٌ تتوقد في داخل الإنسان؛ لينتفض على ذاته.

(٢) اليقظة محاكمةٌ باطنيةٌ للأوضاع المتردِّية الموجبة لمعصية الله بِهَمَانَةً، فيبصر بسبب هذه المحاكمة طريقه، ومن هنا فهي نورٌ، كما قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «الْيَقَظَةُ نُورٌ»^(٥).

(٣) اليقظة تعني التنبّه للإنسانيّتي؛ أنني إنسانٌ ولست حيواناً، ولذا فيجب أن يكون هناك فارقٌ بيني وبين الحيوان في مسيرتي وحياتي، فلماذا غلبت المادّيّات في حياتي على الروحانيّات؟! لماذا أصبحت نظرتي ورؤيتي غريزيّة؟! ولماذا أصبحت معاملاتي وتصرفاتي بهيميّة؟! لماذا أفكّر في اقتطاف المنصب السياسيّ من الصالحين؟! ولماذا أعمل على استيلاء المكاسب السياسيّة بلا وجه حقّ؟! ولماذا أسقط الآخرين لمجرد اختلافهم معي في رؤيتي، أو موقفي السياسيّ؟! أليست أفعالي هذه غرائزيّة، بهيميّة، شهويّة؟! أما أن لي أن أُغيّر نظرتي وأخلاقي؟! أما أن لي أن أتحرّر من حيوانيّتي، وأسير إلى حرم الإنسانيّة؟!!

٤) اليقظة تعني التنبه إلى أن لي أهدافاً ساميةً من العمل السياسي، يجب أن أصل إليها، كخدمة المظلومين، والمستضعفين، والمضطهدين، تقرباً لوجه الله أكرم الوجوه؛ لنيل رضوانه، وجنانه، ومرافقة ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(٦)، وليس من أجل أهدافٍ سياسيةٍ فانيةٍ زائلةٍ، كالتقرب من السلطان خوفاً من شره، أو طمعاً في خيره.

٥) اليقظة تعني الالتفات إلى قصر العمر، وكون الموت قادماً لا محالة، ويجب الإعداد لما بعد الموت، وأن طول الأمل، وتخيل وجود المتسع من الوقت، من أهم أسباب الغفلة المؤدية لنسيان الغايات الحقيقية، ولذا فأى قيمة للبعد عن الله بممارسة المعاصي السياسية؛ تقرباً لمسئولٍ سياسيٍّ سيفارق الحياة الدنيا في أي لحظةٍ من اللحظات؟! نعم، إنها لخسارة عظيمة أن أقترب من ملكٍ أو سلطانٍ صغيرٍ أو كبيرٍ، وأغضب مالك الملك، مجري الفلك.

تحديات اليقظة السياسية:

وهناك تحدياتٌ بشأن اليقظة السياسية يجب التنبه إليها لتحقيقها:

التحدي الأول: خلق اليقظة السياسية في الباطن، وهي التي حثنا عليها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله: «ضَادُّوا الْغَفْلَةَ بِالْيَقَظَةِ»^(٧)، ومن هذه الكلمة النورانية نفهم أن تحصيل اليقظة باختيار الإنسان، وقد سُميت اليقظة من هذا النوع بـ(اليقظة الكسبية)، وهي تُقابل اليقظة المُسمّاة بـ(اليقظة الجذبية)، وهي التي يتلطف الله بها على من يشاء من عباده المجاهدين فيه، أو في سبيله.

التحدي الثاني: جعل اليقظة مُستمرةً طوال مسيرة العمل السياسي.

التحدي الثالث: جعل اليقظة راسخةً متجذرةً في النفس، لا تهزها أعاصير الغفلة.

طرق اليقظة السياسيّة:

ويمكننا مواجهة هذه التحدّيات الثلاثة، وتحصيل اليقظة المستمرة الراسخة بواسطة الطرق الآتية، وسأبين أولاً طرق تحصيل اليقظة الكسبيّة:
أولاً: طرق تحصيل اليقظة الكسبيّة: ويمكننا الحصول على (اليقظة الكسبيّة) من خلال الطرق التالية:

الطريق الأوّل: التلاوة السياسيّة:

بمعنى أن يجعل السياسيّ له ورداً قرآنيّاً يوميّاً، ويتدبّر في آيات الله تدبّراً من منظار واقعه السياسيّ، ويُعالج حاله وأوضاعه السياسيّة من خلال التأمل القرآنيّ، وإسقاط الآيات القرآنيّة على واقعه، وأنا مُطمئنٌّ بأنّ الحياة السياسيّة قد أهتنا لدرجة أنّ الكثير منّا ما عادت له علاقةٌ بالقرآن، بينما نُقل عن رسولنا الكريم ﷺ: «من قرأ عشر آياتٍ في ليلةٍ لم يُكتب من الغافلين، ومن قرأ خمسين آيةً كتبت من الذاكرين»^(٨)، فخرجنا من ديوان الغافلين متوقّفين على قراءة عشر آياتٍ، ودخولنا في ديوان الذاكرين متوقّفين على قراءة خمسين آيةً، وإذا كان كذلك فأيّ يقظةٍ هذه بلا تلاوةٍ قرآنيّةٍ خمسينيّةٍ؟! نعم، إنّ للتلاوة أثرها في صناعة يقظةٍ سياسيّةٍ مؤثّرةٍ، وفاعلةٍ، وذات حصانةٍ ومناعةٍ.

نعم، من شأن القرآن أن يهزّ الأعماق، فمن كان مُنغمساً بالمحرّمات السياسيّة، ووصل مثلاً لقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أَلْفُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيْقًا مُّقْرَّبَيْنَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾^(٩)، فإنّ باطنه سوف يتغيّر، وكيف لا يتغيّر لو توقّف، وتدبّر، وتأمّل، وتخيّل نفسه مُلقاةً في الجحيم؟! نعم، بالقرآن سوف تتغيّر أمراض الأخلاق السياسيّة، وكيف لا تتغيّر وقد قال تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٠)؟! وإذا كان ذلك فما أحرى بالإنسان

حين يَمِرُّ بِآيَاتِ الْعَذَابِ أَنْ يَقُولَ كَمَا عَلَّمَنَا الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «آهٌ وَآ حُزْنَاهُ، لَيْتَنِي لَمْ أَكُ شَيْئًا أَبَدًا، آهٌ وَآ حُزْنَاهُ مِنْ مَلَائِكَةِ غَلَاظِ شِدَادٍ لَا يَرْحَمُونَ مَنْ شَكَا وَبَكَى، آهٌ وَآ حُزْنَاهُ مِنْ رَبِّ شَدِيدِ الْقُوَى، آهٌ وَآ حُزْنَاهُ، أَنَا جَلِيسٌ مِنْ نَاحِ عَلِيٍّ نَفْسِهِ وَبَكَى»^(١١).

ومن هنا فإذا لم يكن هناك تأثرٌ في باطننا كقراء سياسيين حينما نقف بين يدي القرآن، فلنترحم على أنفسنا، ولنبكِ عليها، مرددين قول زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُوا قَلْبًا قَاسِيًا»^(١٢)، نبكي؛ لعدم تأثرنا بأدنى مستوياته؛ لأنَّ هناك أناساً قد قتلهم، فأين نحن من أولئك؟! يقول صاحب سفينة البحار - كما في المنقول عنه - في بيان سبب وفاة عليِّ بن الفضيل - الزاهد العابد -: كان عليُّ بن الفضيل يوماً واقفاً قرب ماء زمزم في المسجد الحرام، فسمع قارئاً يقرأ: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سُرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانَ وَتُعْشَى وَجْهَهُمُ النَّارُ﴾، فصعق ومات^(١٣). فلماذا صعق ومات؟! لأنه أسمع نفسه، وجعلها المقصودة بهذه الآية، ولذلك أعطت مفعولها القاتل، أمّا مثلي - وأمثالي المساكين - فنقرأ القرآن وكأنه قصةٌ حدثت لغيرنا، ولسنا معنيين بها.

الطريق الثاني: المداومة على ذكر الله:

كما قال أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بِدَوَامِ ذِكْرِ اللَّهِ تَنْجَابُ الْغَفْلَةِ»^(١٤)، وكما عَلَّمَنَا طَلِبَ هَذَا الْهَمِّ فِي دَعَاءِ كَمِيلٍ: «وَاجْعَلْ لِسَانِي بِذِكْرِكَ لَهْجًا، وَقَلْبِي بِحُبِّكَ مُتِيماً»، وفي مدرسة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من التراث الدعائي الضخم، الذي يوقظنا، وينبّهنا من سنة الغفلة، ولذا فحريٌّ بنا أن نلازم الصحيفة السجّادية؛ لتنعلم منها كيف نُخاطَبُ رَبَّنَا، وَنُنَبِّهُ بِهَا نَفُوسَنَا، فَمَنْ شَأْنُ ذَلِكَ شَدُّ الْوَجْدَانِ بِاللَّهِ بِعَمَلِهِ، وتعويد القلب حالة الاتصال بحبوه الأوحد، فهذه التجارب الذكرية - إن صحَّ

التعبير- سيكون لها تأثيراتها في خضمّ الحوادث السياسيّة الاستثنائيّة، وللحرّ تجربةٌ ذكريةٌ رائدة، فقد هزّه المشهد الكربلائيّ إلى حدّ أخذت الرعدة جسمه، حتّى قال له المهاجر بن أوس: إنّ أمرك لمُريباً! والله ما رأيت منك في موقفٍ قطّ مثل هذا، ولو قيل لي: من أشجع أهل الكوفة؟ لما عدوتك، فما هذا الذي أرى منك؟! فقال له الحرّ: إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار، فوالله لا أختار على الجنة شيئاً، ولو قُطعت، وأُحرقت. ثمّ ضرب فرسه، فلحق الإمام الحسين عليه السلام، وطلب منه التوبة ^(١٥).

فاليقظة هي التي تحدّد الخيارات، فالسياسيّ إمّا أن يخضع لإغراءات المال، أرضاً وسيارةٍ بآخر موديل، أو منصباً، حينما يقف مع السلطان، ويكون أداةً للظلم، والجور، والقهر، أو يرفض كلّ ذلك ويقف مع المستضعفين، والمظلومين، وتحديد أيّ الخيارين بحاجةٍ ليقظةٍ سياسيّةٍ متحرّرة، فلنبتهل - ونتضرّع - إلى الله صادقين في أن يهدينا طريق الخلاص من المعاصي السياسيّة، ويُعيننا على تطهير أنفسنا وصلاحها.

الموامش:

(١) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٧٣ و ٣٨٢.

(٢) Pragmatism اشتقت من اللفظ اليونانيّ: (براجما)، وتعني: «العمل». ويعرّفها قاموس «ويبستر» بأنّها: تيارٌ فلسفيّ، أنشأه «تشارلز بيرس»، و«وليام جيمس»، يدعو إلى أنّ حقيقة كلّ المفاهيم لا تثبت إلا بالتجربة العلميّة، نشأت البراجماتيّة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، في أواخر القرن التاسع عشر، حيث ظهر هذا اللفظ للمرّة الأولى في مقالٍ لـ«تشارلز بيرس» عام: ١٨٧٨، وهي مذهبٌ - أو معتقداً - فلسفيّ يركّز على العواقب، والنفعية، والعمليّة، ويعتبرها المكونات الحيويّة للحقيقة.

- (٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.
- (٤) سورة البقرة، الآية: ١٣٨.
- (٥) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٤٤٨، الحديث ١٠٢٨٨.
- (٦) سورة النساء، الآية: ٦٩.
- (٧) غرر الحكم ودرر الكلم، ج ٤، ص ٢٣٢، الحديث ٥٩٢٥.
- (٨) البيان في تفسير القرآن، ص ٢٥.
- (٩) سورة الفرقان، الآيتان ١٢-١٣.
- (١٠) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
- (١١) الصحيفة السجّادية، دعاؤه عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّوَهُّدِ.
- (١٢) مناجاة الشاكين.
- (١٣) سفينة البحار، ج ٧، ص ١٠٣، الطبعة الحديثة.
- (١٤) فروع الكافي، ج ٣، ص ٢٧٠.
- (١٥) الملهوف على قتلى الطفوف، ص ١٥٩.

المنهجية الصحيحة لدراسة العلوم الدينية

(الحلقة الثانية)

محاضرة ألقاها سماحة العلامة الشيخ معين دقيق العاملي رحمته في الحسينية البحرانية في قم المقدسة، بتاريخ ١٩/ربيع الثاني/١٤٢٧هـ الموافق ١٧/٥/٢٠٠٦م.
بسم الله الرحمن الرحيم، وأفضل الصلوات، وأتم التسليم، على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا، ونبينا محمد، وعلى الهداة المهديين من آله الطيبين الطاهرين.
روى الشيخ الكليني في الكافي، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن القاسم بن محمد، عن المنقري، عن حفص بن غياث، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «من تعلم العلم، وعمل به، وعلم الله، ودُعي في ملكوت السماوات عظيماً، فقيل: تعلم لله، وعلم الله، وعلم لله.»^(١)

هذه الرواية المباركة رواها أيضاً الشيخ الطوسي بسند آخر يصل إلى حفص بن غياث^(٢)، الذي هو وإن كان من العامة، إلا أن الشيخ ذكر في العدة على أنه ممن أجمعت الطائفة على العمل برواياتهم.

المهم بنظر الإمام في هذه الأمور الثلاثة - التعلم، والعمل، والتعليم - أن يكون لله تبارك وتعالى، حيث إنه من ضروريات الإسلام أن النية هي الأساس في العمل، ولا ينظر إلى العمل في الإسلام من ناحية الكم بقدر ما ينظر فيه من ناحية النية، والكيفية، وهناك شواهد متعددة في القرآن الكريم - وفي غيره - تشير إلى مسألة النية، وإن كان العمل بالميزان الكمي لا قيمة له، قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾^(٣)، من ناحية الكم لم يكن مقدار الإطعام إلا أقرصاً من شعير لا قيمة لها

في المنظور الدنيوي، إلا أنه لما دخل لوجه الله نزلت فيهم سورة كاملة، مع أن الكثير ممن ادّعى لهم الصّحة لرسول الله قد أنفقوا القناطير المقنطرة، فلم ينزل فيه إلاّ الدم، قال تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾^(٤).

إذن العمل يُقاس بحسب النية، لا بحسب الكم، فعملنا في هذه الحوزة مهما بقينا فيها، طالّت المدّة أو قصرت، المدار على النية، وليس المدار على كثرة الدرس، ولا على طول البقاء في هذه الحوزة، بقدر ما يكون المدار على نيتنا في التعلّم، والعمل، والتعليم.

وجزاء هذا الإنسان الذي يقوم بهذه الأمور الثلاثة لله: «دُعي به في ملكوت السماوات عظيمًا».

دُعي هنا بمعنى: ذُكر اسمه، وُثِّقَ باسمه، وانحصر النداء بملكوت السماوات، ولم يذكر الأرض، مع أنه عادةً في القرآن الكريم إذا ذكر ملكوت السماوات يقرب بالأرض، بينما في هذه الرواية انحصر الأمر بملكوت السماوات، ولم يذكر الأرض، المراد بالملكوت هنا: المسلط عليهم في عالم السماوات، وهم سكّان العالم العلويّ.

يريد الإمام أن يقول: إنّ هذا التنويه باسم من تعلّم، وعمل، وعلم لله، جاء من العالم العلويّ، أمّا العالم السفليّ فليس دائماً يكون التنويه فيه معتبراً عند الله سبحانه وتعالى؛ إذ أنّ مقاييس هذه الأرض غير مقاييس السماء، حيث يقول الباري عزّ وجلّ: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾^(٥).

فمقاييس يوم القيامة مختلفة، فبهذه المقاييس الإلهية في يوم القيامة يأتي التنويه، ويذكر اسمه في العالم العلويّ.

هذا ما أحببت أن أشرع به، ثمّ نتابع ما بدأنا به في الجلسة السابقة، وقد كنّا في الجلسة السابقة قد أشرنا إلى جملة من المواصفات العلميّة - والفكريّة - في الطالب

الذي يتّصف بالتحصيل، وأشرنا أيضاً إلى جملةٍ من المواصفات الخلقية - والمعنوية -
في هذا الطالب التي يكمل بعضها بعضاً.

وفي هذه الجلسة سوف نتكلم حول أركان الدراسة الحوزوية، ومقصودنا من
أركان الدراسة الحوزوية هو: كل أمرٍ لو أُخلَّ به لا يصحّ أن يُقال: إنّه توجد دراسةٌ
حوزويةٌ، أو يوجد تحصيلٌ علميٌّ.

تحصيل العلم في الحوزة يعتمد على أركان ثلاثة رئيسية:

الركن الأول: الأستاذ.

الركن الثاني: الطالب.

الركن الثالث: المادة العلمية.

وبدون هذه الأركان الثلاثة لا ينعقد تحصيلٌ علميٌّ، ولكل ركنٍ من هذه الأركان

الثلاثة شرائط ومواصفاتٌ.

الركن الأول: الأستاذ:

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى
طَعَامِهِ﴾^(١)، عن الطعام، فقال: «إنّه علمه عمّن يأخذه»^(٧)، فطعامنا في هذه الحوزة هو
العلم، فيجب أن نتأمّل - وننظر - عمّن نأخذ هذا العلم.

فكرة خاطئة:

للأسف الشديد، يدور بين الفينة والأخرى في أذهان الكثير أنّه في الحوزة يمكن
له أن يستغني عن الأستاذ، خصوصاً عندما ينهي شيئاً من المقدمات والسطوح،
فيتردّد على السنة الطلبة أنّه من الممكن حينئذٍ أن يكون الطالب عصامياً؛ بمعنى أنّه
يستغني عن الأستاذ، فلا بدّ لنا أولاً أن نثبت خطأ هذه الفكرة، ثمّ نتكلم عن كيفية

انتخاب الأستاذ، وما هي الشروط التي يجب أن يتّصف بها؛ حتى تكون الأركان
للتحصيل العلمي كلّها متناسبةً، ومتناسقةً.

هذه المقولة مقولةٌ قديمةٌ، وليست جديدةً في حوزاتنا، وهي أنّه ليس من
الضروريّ أن يؤخذ العلم من أفواه الرجال، فإنّ العلم مبثوثٌ في بطون الكتب، وإنّ
الطالب يمتلك مجموعةً من المقدمات التي يستطيع بواسطتها فهم الكتب، فتكون
دراسته أسرع.

والبعض ممّا قد لا ينظر إلى هذه الفكرة، ولكن عملياً نجد أنّ الكثير ممّا يلتزم
بها، ويمارسها، وهذه النظرية مدخولةٌ على مستويين، مستوى نظريّ، ومستوى
تجريبيّ عمليّ:

المستوى النظري: يمكن لنا أن نثبت التفاوت بين الطالب الذي يحضر عند أستاذ،
والطالب الذي يتّخذ أن يكون طالباً عصامياً، ويدرس بنفسه في عدة نقاط:

النقطة الأولى: الطالب الذي يريد أن ينظر في الكتب المصنّفة والحواشي عادةً
يكون النظر في هذه الحاشية إلى الجهة التي ترتبط بالمطلب الذي يدرسه فعلاً، فينظر
من زاوية واحدة، والحال أنّ كثيراً من المطالب يرتبط فهمها - وحلّها، ورفع المشكلة
فيها - على أن يوجد تسلّطٌ كاملٌ على مطالب الكتاب، وهذا يفقده الطالب
العصاميّ، بخلاف حضوره عند مدرّسٍ قديرٍ.

النقطة الثانية: المطالب التي تسطرّ في الكتب، والحواشي، والتعليق، عادةً تسطرّ
على طريقة: «إنّ اللبيب بالإشارة يفهم»، خلافاً لشرح الأستاذ، فإنّه يتألّف من
أمثلة، وتطبيقات، وإذا لم يفهم الطالب يكرّر الشرح بأسلوبٍ آخر، وهكذا.

النقطة الثالثة: هناك كثيرٌ من الفوائد الجمّة التي يفقدها الطالب العصاميّ من
الحضور في الدرس، فمثلاً عند طرّو شبهةٍ في ذهن الطالب، يقوم الأستاذ بدفع هذه

الشبهة، أو أنه يقوم الأستاذ ببيان المطلب بأمثلةٍ مختلفةٍ، أو دعم الطالب من قبل طالبٍ آخر...

النقطة الرابعة: نلاحظ أن الحضور في الدرس يلزم الطالب بالمتابعة أكثر من الدراسة لوحده، وهذا يجعل المسيرة العلميّة للطالب الذي يدرس عند مدرّسٍ أسرع من الطالب الذي يدرس لوحده؛ لأنّ الالتزام فيها أكثر.

النقطة الخامسة: الطالب العصاميّ قد يفهم مطلباً من المطالب على نحو الاشتباه، فيستنتج منه نتيجةً خاطئةً، وتكون هذه النتيجة المشتبهة - التي استنتجها الطالب - مقدّمةً لنتيجةٍ أخرى، وهكذا الحال بالنسبة للنتيجة الثانية، والنتيجة تتبع أحسنّ المقدمات، فإذا كانت المقدّمة مشتبهةً فالنتيجة تكون مشتبهةً كذلك، بينما هذا عادةً لا يحصل في الدرس عند أستاذ؛ لأنّه - عادةً - في الدرس يقوم الأستاذ بتكرار المطلب، فيستبعد عادةً أنّه في كلّ عمليّة تكرارٍ يقوم الطالب بفهم المطلب بطريقةٍ خاطئةٍ.

المستوى العمليّ: على المستوى العمليّ التجريبيّ الذي نمارسه كلّنا في الحوزة العلميّة، أو نقرأ عنه عن السلف الصالح من علمائنا، يمكن سرده في نقاطٍ أيضاً:

النقطة الأولى: نجد أنّ السلف الصالح من علمائنا كانوا يواظبون على الحضور عند الأستاذ، فمثلاً شخصيّةٌ مثل المحقّق الميرزا حبيب الله الرشتيّ، وشخصيّةٌ مثل المجدّد الشيرازيّ، كانا من أركان درس صاحب الجواهر، وشخصيّةٌ مثل الشيخ البروجرديّ الذي كان عنده إجازة اجتهادٍ، عندما حضر درس المحقّق العراقيّ كان مواظباً على حضور درسه، بل إذا خضنا أكثر في البعد التاريخيّ نجد أنّ سيرة السلف الصالح من علمائنا كانت قائمةً على أنّ كلّ عالمٍ - يدرك أنّ غيره أعلم في فنٍّ - يحضر عنده، كالشهيدين؛ الأوّل، والثاني، وقبلهما العلامة، فنجدهم قد حضروا لدى

مجموعة من علماء العامة؛ لكون هذا العامي متخصصاً في فن من الفنون هم لم يطلعوا عليه.

إذن فالتجربة والسيرة لدى السلف الصالح من علمائنا كانت قائمة على ركنية الأستاذ في طلب العلم.

النقطة الثانية: الكثير من الانحرافات التي حصلت عند بعض الحوزويين نشأت من نظرية العصاميّة، وهذا المطلب يعتمد على النقطة الخامسة التي ذكرناها في المستوى النظريّ، وهو أنه قد اشتبه في فهم مطلب، فتتكون عنده سلسلة من النتائج الخاطئة، وتصبح عنده مجموعة من الاشتباهات، وبالتالي يكون عنده فكر اشتباهي؛ لكونه لم يتتلمذ - بما للكلمة من معنى - على يد أستاذ، وهذه العملية في كثير من الأحيان تنتج من بعد أخلاقيّ نفسيّ، وهو الغرور.

وتحصّل أنّ في عملية التحصيل العلميّ يكون الأستاذ هو الركن الركين، لكن ليس بمعنى أنّ كل شيء هو الأستاذ، فلو درسنا عند أعلم أستاذ - وهو النبيّ الأعظم ﷺ - ولم نطبّق ما ينبغي أن يطبّق، فلا نستفيد شيئاً.

كيف ننتخب الأستاذ؟

قد أشرنا في الجلسة السابقة على أنه يوجد عندنا ضعف في المنهجية، فأمر المؤمنين ﷺ يقول: «أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه»^(أ)، أي: استفاد من تجارب الآخرين، وكلنا عندنا تجارب، وكثير منها كان فاشلاً، فلا بدّ أن نبحت نظرياً عن مسألة انتخاب الأستاذ.

لا يوجد في الحوزة العلمية أستاذ واحد ينفع لكل طلاب العلوم الدينية، وإلاّ لو كان كذلك لأصبحت الحوزة كلها أستاذاً واحداً، بل الأستاذ أشبه ما يكون بنسخة الدواء، فهي تنفع لمريض، ولا تنفع لآخر، وعدم نفعه للآخر لا يضرّ بقيمة الدواء،

فإذا كان أستاذٌ ينفَعُ أحداً، ولا ينفَعُ آخر، لا يكون ذلك نقصاً في الأستاذ؛ لأنَّ الاستعدادات، والذهنيَّات، والرغبات، والمتطلَّبات، متفاوتةٌ بين طالبٍ وآخر. والشيء السائد عندنا - من المقدمات إلى البحث الخارج - أنَّ الطالب ينتخب الأستاذ عن طريق السؤال، ولكنَّ السؤال لا يحلُّ المشكلة، وكثيراً ما يكون السؤال خاطئاً؛ لأنَّه لا يوجد جوابٌ متفقٌ عليه؛ باعتبار أنَّ كلَّ واحدٍ في عمليَّة جوابه ينظر إلى نفسه، وتجربته، وهنا جاءت المغالطة، فليس كلُّ ما هو نافعٌ لأحدٍ هو نافعٌ للآخر.

فقبل أن أسأل عند من أدرس، هناك أسئلةٌ يجب أن أوجهها لنفسي، وهي: ماذا أريد؟ ما هي توقَّعاتي من الدرس والمدرِّس؟ وأقوم بإعداد قائمةٍ بالقواعد العامَّة، وقائمةٍ بالقواعد الخاصَّة التي تخصُّني أنا فقط، وبعد تجربتي للأستاذة أقوم بوضع علامةٍ على كلِّ قاعدةٍ من القواعد، وفي الختام: الأستاذ الذي يأخذ أكبر علامةٍ يكون هو الأستاذ المناسب لي، وهذه القائمة تكون خاصَّةً بي، فربما يكون للآخرين قواعدٌ خاصَّةٌ بهم.

وهذا الأسلوب ينبغي أن يحدِّد في كلِّ سنة، فهناك ضوابطٌ تختلف، وتتجدد؛ لأنَّ معلومات الطالب تزداد، فيشعر من نفسه أنَّ هذا الأستاذ لم يعد ينفعه، فيذهب لأستاذٍ آخر، ويطبِّق عليه هذه القواعد، وهكذا.

وهذه الطريقة لا تأخذ وقتاً؛ لأنَّ بعض المدرِّسين قد يحسم أمره في جلسة، أو جلستين، وربما مدرِّسٌ آخر يحتاج إلى أسبوع، أو أسبوعين؛ لكي يعرف أنَّه يناسبه أو لا.

ونفس هذا الأسلوب تستطيع أن تقوم به المدارس لانتخاب الأستاذة، لكن بشرط أن تضمَّ حلقات الدرس مجموعةً من الطلبة المتقارِبين استعداداً، وقدرةً، وذهنيَّةً...

وعلى أيّ حال، حتماً هذه الطريقة أفضل من توجيه السؤال عشوائياً، نعم، من المستحسن للطالب المبتدئ أن يستفيد من تجارب الآخرين، ولكن هذا لا يعني عن التجربة بنفسه.

ومن الأساليب الناجحة في كيفية اختيار الأستاذ أنه إذا استشعر الطالب أن عند حضوره لدرس أستاذ أنه عالمٌ، فليعلم الطالب أن درس هذا المدرّس لا ينفعه، أمّا لو استشعر في محضر الأستاذ أنه جاهلٌ، فدرسه ينفعه.

العلاقة بين الطالب والأستاذ:

الطالب قد يكون بالنسبة للأستاذ علةً محرّكةً، وعلةً فاعليّةً، بمعنى أن الأستاذ إذا رأى أن هذا الطالب مجتهدٌ، ودائماً يسأل، ودائماً يلاحقه، ويتابعه في كل صغيرة وكبيرة، سوف يضطرّ هذا الأستاذ أن يحسّن من تحضير الدرس، ومطالعه، أمّا لو لم يبالي التلميذ بشرح الأستاذ، سوف يتراخي الأستاذ، وربما يأتي إلى الدرس بدون مطالعة، فالطالب لا بدّ أن يكون علةً في استفادة نفسه؛ لأنّه سوف ينعكس أثر ذلك عليه.

فمن المهم جداً أن يتابع التلميذ درسه مع الأستاذ؛ لكي يجبر الأستاذ على المطالعة الجيدة، مضافاً إلى أن نفس الأخذ، والردّ، والسؤال، والجواب، يفتح آفاقاً أمام الذهن العلمي للطالب، وكثيراً من الشبهات التي ربما تكون عالقةً في ذهنه تحلّ.

مضافاً إلى المتابعة المعنويّة، والمتابعة الاجتماعيّة، والمتابعة النفسيّة، غير المتابعة العلميّة، وهناك قسمٌ من هذا الشيء من وظيفة الأستاذ، ومن حقّ الطالب على الأستاذ، وهناك أيضاً جزءٌ كبيرٌ في عمليّة التواصل بين الطالب والأستاذ يرتبط بالطالب نفسه.

هذا ما يمكن أن نذكره - على نحو الاختصار - في الركن الأوّل من أركان التحصيل العلميّ، وهو الأستاذ، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّ اللهم على محمّد، وآله الطاهرين.

المواهب:

(١) الكافي: ج ١ ص ٣٥.

(٢) الأمالي: ص ٤٧.

(٣) الإنسان: ٨-٩.

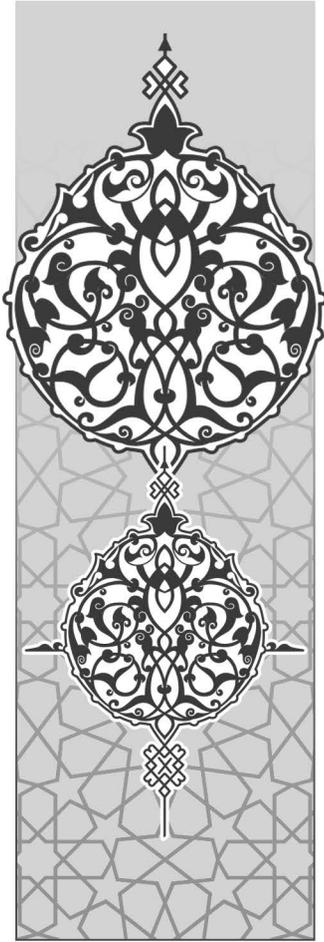
(٤) البقرة: ٢٦٤.

(٥) الزمر: ٤٧.

(٦) عيس: ٢٤.

(٧) الكافي ج ١ ص ٥٠. وفي هذه الرواية لم يكن الإمام بصدد التفسير المفهوميّ للآية، بل كان بصدد التطبيق المصداقيّ لها.

(٨) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٩٥.



- General Supervisor & Executive Manager:
Abdulla Ali Al daqaq
- Editor in Chief:
Ali Ahmad Alkarbabadi
- Managing Editor:
Ali Ahmad Aljofairi
- Publishing Committee:
Abdulroof Hassan Alrabia
Aziz Hassan Salman
Fadhel Abduljaleel Al Zaki
Ghazi Abdulhassan



Resalat Alqalam

Islamic, Enlightening & Comprehensive

A Periodical Magazine Issued by the
Bahraini Students
of the Educational Hawza the
Holy City of Qom